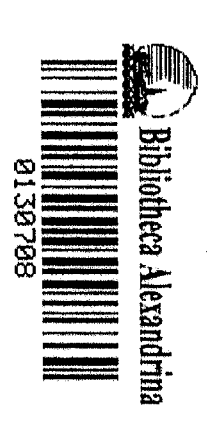
الدكتور علي الوردي
استاذ علم الاجتماع
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الاول

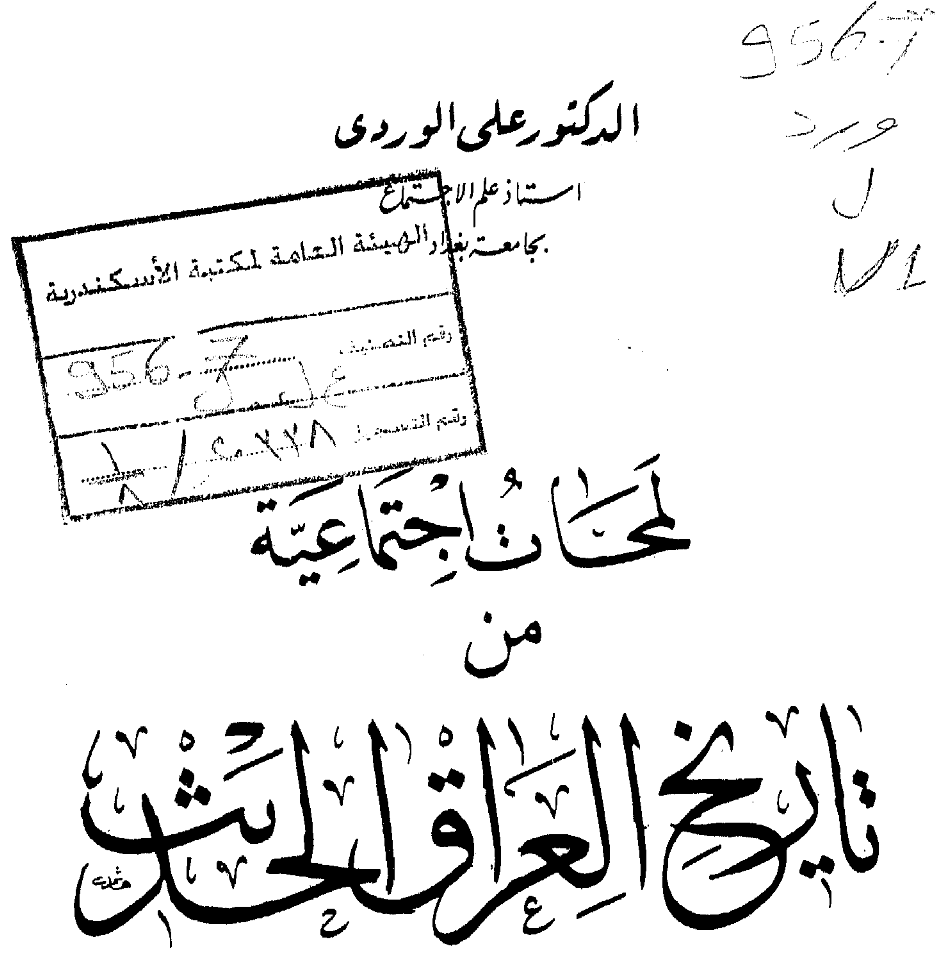
من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر



الدكتور علي الوردي

استاذ علم الاجتماع

بجامعة بغداد



لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الاول

من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر

هوية الكتاب:

الكتاب: .... لمحات اجتماعيه من تاريخ العراق

المؤلف: .... الدكتور علي الوردي

الناشر: .... انتشارات الشريف الرضي

عدد الصفحات: .... ١٢٤٤ صفحه وزيري

سنة الطبع: .... ١٣٧١ ـ ١٤١٣

عدد المطبوع: .... ١٠٠٠ دوره

المطبعة: .... امير ـ قم

الطبعة: .... الاولى في ايران

السعر: .... ٢٥٠٠٠ ريال

مقدمة الكتاب

عند دراستي للمجتمع العراقي ـ وهو الموضوع الذي أولعت بـه زمناً غير قصير ـ أدركت أني لا أستطيع أن أفهم المجتمع في وضعه الراهن ما لم أفهم الأحداث التي مرت به في عهوده الماضية ، فكل حدث من تلك الاحداث لابد أن يكون له شيء من التأثير قليلاً أو كثيراً في سلوك الناس حالياً وفي تفكيرهم •

من الممكن تشبيه المجتمع في هذا الشأن بشخصية الانسان البالغ إذ هي في حاضرها تتأثر بما حدث لها في ماضيها ، وهذا التأثير قد يكـون لا شعورياً انما هو موجود على أي حال وهو قـد يظهر بمظهر العقـدة النفسية التي تدفع الانسان نحو بعض الافعال « السخيفة » إذ هو يفعلها مرغماً بتأثير حافز لا إرادي يسيطر عليه • أكاد أعتقد أن المجتمع لا يختلف عن الفرد في هذا ، فكثيراً ما تخلق الأحداث الماضية في المجتمع عقدة كالعقـدة النفسية حيث نرى الناس يندفعون ببعض العادات والافكار الموروثة اندفاعـاً لا شعوريا ، وقد يؤدي ذلك بهم الى المهالك بينما هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً • وسوف نرى في هذا الكتاب نماذج واقعية من هذا الطراز •

اقتصرت في هذا الكتاب على دراسة الاحداث التاريخيـة منذ بداية العهد العثماني ، وكنت أود أن أدرس ما قبل ذلك لان عهود التاريخ في الواقع مترابطة ومتشابكة ، وان كل عهد منها يصعب فهمه بغير الرجوع الى دراسة ما قبله ، ولكني وجدت أن ذلك يشبه أن يكون مستحيلا من الناحية العملية إذ هو يضطرنا الى استقراء الاحداث الماضية خطوة وراء خطوة حتى نصل بها الى أبينا آدم •••

قد يصح القول إن دراسة العهد العثماني هي أشد الدراسات

علاقة بواقع مجتمعنا الراهن ، فنحن لا نزال نعيش في تراثه الاجتماعي ولا يزال الكثيرون منا يفكّرون على نمط ما كانوا يفكرون عليه في ذلك العهد ، وقد أدركت في صباي أناساً يحنّون اليه ويترنمون بأمجاده ويتمنّون أن يعود اليهم •

الاجتماع والتاريخ :

كنت قد حاولت في كتابي السابق[1] دراسة ما كان عليه العراق في العهد العثماني من وضع اجتماعي عام ، وسأحاول الآن دراسة الاحداث التاريخية التي وقعت في ذلك العهد • ولا حاجة بي الى القول إن هذين الأمرين مترابطان ترابطاً وثيقاً يصعب الفصل بينهما ولهذا سوف يجد القارىء في الكتاب الحالي كثيراً من التحليل الاجتماعي كمثل ما وجد في الكتاب السابق كثيراً من السرد التاريخي •

ان هذا الكتاب على أي حال يشبه أن يكون كتاب تاريخ بيد أنه يختلف عن كتب التاريخ المعتادة بكونه لا يهتم بالاحداث الماضية لذاتها على منوال ما يفعل المؤرخون بل هو يهتم في الدرجة الأولى بما تنطوي عليه الاحداث من دلالة فكرية واجتماعية ، أما الاستقراء التاريخي فيأتي في أهميته بالدرجة الثانية •

اني لست مؤرخاً انما أعتمد فيما أكتبه على المؤرخين ، وقد عانيت في ذلك صعوبة غير قليلة إذ أن تاريخ العراق في العهد العثماني لا يزال يكتنفه الغموض من بعض نواحيه ، ولابد للباحث من التحري في الكثير من المراجع لكي يعثر على حادثة لها دلالتها الاجتماعية أو الفكرية •

وهناك صعوبة أخرى تواجهنا في هذا الشأن هو أن تاريخ العراق متشابك مع تواريخ البلاد المجاورة وهذا يقتضي البحث في تلك

---

(١) وهو الكتاب الذي عنوانه « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » بغداد ١٩٦٥ •

التواريخ علاوة على بحث التاريخ الخاص بالعراق • سيجد القارىء انـي أطنبت أحياناً في سرد الأحداث التي وقعت في ايران وتركيا ، ثم في نجـد ومصر وبلاد الشام ، وهذا أمر أحسبه ضرورياً لفهم احداث العراق • وقد يصح القول إن كثيراً من أحداث العراق لم يكن سوى صدى لما حدث في الاقطار المجاورة •

مشكلة الموضوعية :

إن هذا الكتاب قد يجوز أن أعدّه « كتاب العمر » بالنسبة لي ، فقد بذلت فيه من الجهد والوقت اكثر مما بذلت في أي كتاب آخر سـابق له • وقد جعلته عدة اجزاء أكملت منها حتى الآن أربعة ، والمأمول أن أتابع البحث في تاريخ العراق الحديث حتى أصل به الى الوقت الحاضر الـذي نعيش فيه ، وهذا ما استمد العون عليه منه تعالى !

ولابد لي في هذه المقدمة العامة أن أشير الى مشكلة طالما عانيت منها في كتبي السابقة وهي مشكلة الموضوعية والحياد في الدراسة • فسوف نأتي في بعض فصول هذا الكتاب على أمور تعتبر حساسة جداً في نظـر الكثيرين من العراق ، وقد اعتاد هؤلاء أن ينظروا في أحداث التاريخ كمثل ما ينظرون نحو هرم (له عدة أوجه) فكل فريق منهم يركز نظره على وجه واحد منه بينما هو يهمل الأوجه الأخرى •

حين نشهد معركة من معارك النساء في أحد ازقة بغداد القديمة نستطيع أن نفهم طبيعة تلك النظرة « الجزئية » التي اعتاد عليهـا الكثيرون منا ، فان المعركة تبدأ عادة بحدوث شجار بين طفلين فيؤذى كل منهمـا الآخر ، وعند هذا تخرج أم كل واحد منهما صائحة نادبة حيث نراهـا تبالغ في تقدير الاذى الذي وقع على طفلها بينما هي تتناسى ما أوقع طفلهـا على خصمه من الأذى ، والأم الأخرى تفعل مثلها طبعاً ، وبذا قد تتضـخم المعركة تدريجاً وتمتد الى الرجال وسائر الأقارب • وبمرور الأيام قد تتطور

المعركة فتصبح تراثاً عائلياً مليئاً بالأحقاد والثارات • ومن يستمع الى احدى العائلتين وهي تقص قصتها يجد بوناً شاسعاً بينها وبين قصة العائلة الأخرى ، فكل عائلة تصوّر الأحداث من الوجهة التي تلائمها وتنسى الوجهات الأخرى •

لعلني لا أغالي اذا قلت إن أكثر المنازعات الطائفية والسياسية والقبلية التي يزخر بها تاريخنا هي في أساسها الاجتماعي لا تختلف عن معركة النساء الآنفة الذكر • وهذا هو الذي جعل مهمة الباحث المحايد – أو الذي يحاول أن يكون محايداً – عسيرة جداً ، إذ هو يمسي مكروهاً من الجميع • فهو يريد أن يتحرى الحقيقة الموضوعية لدى كل فريق منهم ، بينما يريد كل فريق منهم أن يلتزم الباحث جانبه وحده •

التنويم الاجتماعي :

لا يذهب ظن القاريء الى أن العراقيين يختلفون في هذا عن غيرهم من البشر ، فالواقع أن النظرة « الجزئية » طبيعة بشرية عامة وهي انما تختلف شدة وضعفاً – في الافراد أو في الجماعات – حسب اختلاف الظروف •

إن الانسان يخضع في حياته الاجتماعية لتنويم يشبه من بعض الوجوه التنويم المغناطيسي وهو ما يمكن أن نسميه بـ « التنويم الاجتماعي »• فالمجتمع يسلّط على الانسان منذ طفولته الباكرة ايحاءاً مكرراً في مختلف شؤون العقائد والقيم والاعتبارات الاجتماعية وهو بذلك يضع تفكير الانسان في قوالب معيّنة يصعب الخروج منها • وهذا هو الذي جعل الانسان الذي نشأ في بيئة معينة ينطبع تفكيره غالباً بما في تلك البيئة من عقائد دينية وميول سياسية واتجاهات عاطفية وما أشبه ، فهو يظن أنه اتخذ تلك العقائد والميول بارادته واختياره ولا يدري أنه في الحقيقة صنيعة بيئته الاجتماعية ، ولو أنه نشأ في بيئة أخرى لكان تفكيره على نمط آخر •

دلّت الابحاث النفسية الحديثة التي أجريت في مجال التنويم المغناطيسي على أن الانسان قد يتأثر بالتنويم الى درجة يرى فيها أشياء أو يسمع أصواتاً غير موجودة ، وهو أثناء التنويم قد يتصور الأبيض أسود والأسود أبيض ، ولو قرّبت الى أنفه زجاجة تنبعث منها رائحة كريهة وأوحي اليه بأنها رائحة طيّبة لظهر على وجهه الارتياح كأنه يشم الطيب فعلاً[1] •

إن التنويم المغناطيسي في حقيقته ليس سوى إيحاء مكرر يسلّط على الانسان حيث يقال له مرة بعد مرة إنه يرى شيئاً معيناً فتنطبع الصورة الموحى بها في ذهنه تدريجاً حتى تبدو كأنه يراها رأي العين أو يلمسها لمس اليد • وقد يصح أن أقول ان التنويم الاجتماعي يفعل مثل ذلك في الكثير من الناس بحيث يجعلهم يرون الأبيض أسود والأسود أبيض وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم يرون الحق الذي لا شك فيه •

القوقعة الجديدة :

إن الفرد الذي يعيش طيلة حياته في بيئة مغلقة ــ كما هو الحال في القبائل والقرى المنعزلة ــ يظل خاضعاً للتنويم الاجتماعي في كبره فيرى الامور من خلال ما أوحى به اليه في مجتمعه الضيق ، وهو يبقى كذلك حتى ساعة موته • أما الذي يعيش في بيئة مفتوحة فانه عندما يكبر يقع تحت تأثير ايحاءات اجتماعية من أنماط شتى ، وبهذا يخرج من قوقعته الفكرية التي نشأ عليها في بيئته الاولى ويدخل في عالم جديد يحتوي على الكثير من وجهات النظر وصراع الأفكار والجماعات •

إن أكثر الافراد في مثل هذه الحالة ، إذ يخرجون من قوقعتهم الفكرية القديمة ، قد يدخلون في قوقعة جديدة لها بريق يجذبهم اليها •

---

(١) انظر في موضوع التنويم المغناطيسي والتنويم الاجتماعي كتاب « الاحلام بين العلم والعقيدة » للمؤلف ــ بغداد ١٩٥٩ •

ومن طبيعة الانسان بوجه عام أنه يميل الى الطمأنينة في داخل قوقعة تحميه كما يفعل الحلزون ، ولهذا فهو حين يخرج من قوقعته القديمة يحب الدخول في قوقعة جديدة • وهذا هو ما حدث فعلاً في مجتمعنا في مرحلته الراهنة التي بدأت منذ الحرب العالمية الأولى كما سنأتي اليه في جزء قادم من هذا الكتاب •

تتميز المرحلة الراهنة بما نسميه ب « الحماس الجمعي » ، وهذا الحماس كأي شيء آخر في الوجود له محاسنه ومساوئه ، فهو من جهة يثير الجماهير ويبث فيهم نزعة الفداء والتضحية ولكنه من الجهة الأخرى يحجب عنهم النظرة الموضوعية ويجعل مهمة الباحث المحايد بينهم عسيرة •

صدق من قال : « إن حماس الجماهير هو وقود التاريخ » ، فالحماس هو الذي يحرك الشعوب ، ومن الممكن القول إن الشعب البارد الذي لا يتحمس لقضاياه العامة قد يكون طعمة لكل فاتح طامع أو مستغل ظالم • ولكن الذي أريد أن ألفت النظر اليه في هذا الصدد هو أن الحماس لا يكفي وحده لنجاح الشعوب في مضمار الحياة الحديثة ، بل لابد أن تتواسق معه من الجانب الآخر دقة النظر وموضوعيته •

يمكن تشبيه المجتمع الناجح في العصر الحديث بالجيش الذي يدخل معركة حاسمة إذ هو يجب أن تتوازن فيه حكمة القيادة مع حماس الجنود ، فالجيش لا يستطيع أن ينتصر في المعركة اذا كان جنوده لا يتحمسون عند القتال ، وكذلك لا يستطيع أن ينتصر اذا كانت القيادة فيه يسيطر على أحكامها الحماس • ان القائد المتحمس قد يدفع جنوده نحو الهزيمة المحتومة وهو يحسب أنه سائر بهم نحو النصر الأكيد •

إننا ـ في هذه المرحلة المتأزمة من تاريخنا ـ في أشد الحاجة الى التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في أنفسنا ، فليس من الخير أن يسيطر الحماس على تفكيرنا دوماً ، كما أنه ليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحماس !

مقدمة الجزء الاول

ان هذا الجزء من الكتاب يستوعب فترة طويلة نسبياً تمتد من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ، أي أنها تشمل الجزء الاكبر من الزمن الذي حكم العثمانيون فيه العراق ، والملاحظ أن أهم ما تميز به المجتمع العراقي في تلك الفترة أمران : أولهما الصراع التركي الايراني على العراق وما جرّ وراءه من نزاع طائفي شديد بين الشيعة وأهل السنة ، والثاني سيطرة المد البدوي على العراق حتى صار الناس فيه كأنهم قد انتكصوا الى عادات الجاهلية الاولى • وفي رأيي أن هذين الأمرين يمثلان المحور الذي كانت الحياة الاجتماعية في العراق تدور حوله ولا يزال بعض أثره باقياً حتى الآن • وسأحاول في هذه المقدمة تحليل هذا الموضوع واستقصاء بعض الجوانب النفسية والاجتماعية منه بقدر الامكان لكي يكون القاريء على بصيرة من أمره عند قراءة الفصول التالية •

الايرانيون والتشيع :

أرى من المناسب قبل أن أبدأ بالموضوع أن أشير الى خطأ شائع لا يزال الكثيرون منا يعتقدون بصحته وهو أن ايران كانت الموطن الأصلي الذي انبثق منه مذهب التشيع منذ بداية أمره وأن هذا المذهب انما جاء الى العراق من ايران •

إن الابحاث التاريخية الحديثة تشير الى العكس من هذا الرأي تماماً ، حيث ثبت أن العراق هو منبع التشيع وقد انتقل التشيع منه الى ايران والى غيرها من البلاد الاسلامية ، وهناك حقيقة تاريخية يكاد يجمع عليها الباحثون الآن وهي أن الايرانيين كانوا في الغالب من أهل السنة والجماعة وقد ظلوا كذلك حتى بداية القرن العاشر الهجري – أي القرن السادس عشر الميلادي – وهم لم يدخلوا مذهب التشيع الا منذ ذلك القرن على إثر ظهور

الدولة الصفوية هناك •

لا يُنكر أن ايران كانت قبل ظهور الدولة الصفوية تحتو غير قليل من الشيعة ، ولكن هؤلاء كانوا محصـــورين في مدر ونيسابور ، أما بقية المدن الايرانية ولا سيما الكبيرة منها كاصف وخراسان وتبريز فكان سكانها ـ كلهم أو معظمهم ـ سنيين •

ومما يجدر ذكره في هـــذا الصدد أن الايرانيين عندما اشتهروا بان أكثر علماء السنة منهم ، وقد استفاضت هذه الشهرة نسب الرواة الى النبي حديثاً في تأييدها هو : « لو تعلّق العلم بأ لناله قوم من أهل فارس » • وعقد ابن خلدون فصلاً في مقدمتا تعليل ذلك في ضوء نظريته العامة حول خصائص البداوة والحض

سواء أصحت نظرية ابن خلدون في هذا الشأن أم لم تص أن المجتمع الايراني كان ذا ميل قوي نحو طلب العلم والانهماك وجه من الوجوه ، وقد شهدنا أثر ذلك عندما تحول الايرانيون حيث أصبح اكثر علماء الشيعة منهم • والمعروف عن الدولة الص عندما كانت تعمل على « تشييع » الايرانيين في البداية استعانت العرب ، فاستقدمت منهم عدداً من جبل عامل ومن البحرين[٢] ، على ذلك سوى فترة قصيرة من الزمن حتى أخذ العلماء يظهرو الايرانيين أنفسهم ، ونبغ اذ ذاك أفذاذ مشهورون لا يقلون في الفكري عن أسلافهم الأولين ، ولكن الفرق بينهم وبين أسلافهم شيعة بينما كان أسلافهم من أهل السنة •

---

(١) ابن خلدون (مقدمة ابن خلدون) ـ تحقيق علي عبدال ـ القاهرة ١٩٦٢ ـ ج٤ ص١٢٤٧ ـ ١٢٥٠ •

Edward Browne (A. Literary History of Persia) .bridge 1953—vol IV p. 360.

صارت اصفهان في العهد الصفوي عاصمة الدولة ومركز العلم الشيعي • وعلى إثر انهيار الدولة الصفوية وشيوع الفوضى في ايران انتقل مركز العلم الى كربلاء وظل فيها حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ومنذ ذلك الحين أخذ المركز يتحول الى بلدة النجف واستقر فيها حتى يومنا هذا ويبدو أنه استقر فيها نهائياً ولن يتحول عنها •

إن الذي نريد أن نستنتجه من هذا هو أن ايران بعد أن تحولت الى التشيع أخذت تؤثر في المجتمع العراقي تأثيراً غير قليل ، فقد بدأ التقارب بين الايرانيين وشيعة العراق ينمو بمرور الأيام ، وصارت قوافل الايرانيين تتوارد تباعاً الى العراق من أجل زيارة العتبات المقدسة أو طلب العلم أو دفن الموتى أو غير ذلك •

وقد نشأ في العراق من جراء ذلك وضع اجتماعي فريد في بابه هو أن الشيعة الذين يؤلفون أكثرية السكان في العراق هم من العرب بينما أكثرية علمائهم من الايرانيين •

يأتي الطلاب الايرانيون الى العراق لتلقي الدروس الدينية في مدارس النجف أو كربلا ، فمنهم من يعود الى وطنه بعد الانتهاء من دراسته ، ومنهم من يبقى • ومن الطبيعي أن الذين يبقون منهم يظلون على صلة مستمرة بوطنهم الأول ، فاذا حدث في ايران أي صراع ديني أو سياسي فسرعان ما ينتقل أثره الى العراق عن طريقهم إذ أن الجدال الذي ينشب بين رجال الدين في ايران لابد أن يصل اليهم على وجه من الوجوه ، فيتجادلون هم بدورهم ، وكثيراً ما ينتشر عدوى الجدال الى العامة وربما أدى الى استفحال الخصومة وتبادل الشتائم بينهم • وهذا هو ما وقع فعلاً في قضية « التنباك » التي حدثت في عام ١٨٩٠ ، وقضية المشروطية التي حدثت في عام ١٩٠٦ ، وغيرها من القضايا التي سنأتي الى بعضها في هذا الجزء أو الاجزاء التالية له •

إن هذا الوضع ليس من شأنه أن تكون له تلك الاهمية لو قدر للعراق أن يكون جزءاً من الدولة الايرانية ، ولكن القدر شاء للعراق أن يكون جزءاً من الدولة العثمانية ، وبهذا صار المجتمع العراقي منشقاً على نفسه لا يدرى أين يتجه ، فحكومته كانت مرتبطة بتركيا تأخذ أوامرها منها بينما كانت أكثرية شعبه مرتبطة بايران •

استفحال الصراع الطائفي :

كانت الدولة العثمانية قد ظهرت في تركيا منذ القرن السابع الهجري، غير أنها اتجهت في توسعها أولاً نحو الغرب باتجاه أوربا ، وهي لم تتجه نحو الشرق أي باتجاه العراق وغيره من البلاد العربية ألا بعد ظهور الدولة الصفوية في ايران • ومنذ ذلك الحين صار العراق موضع نزاع عنيف بين الدولتين الايرانية والعثمانية واستمر كذلك ما يزيد على الثلاثة قرون ، ومن هنا نشأ المثل المشهور في العراق : «بين العجم والروم بلوى ابتلينا»[١] • إن هذه « البلوى » التي ابتلي بها العراق اذ ذاك نشأت من كون الدولة الايرانية اتخذت التشيع شعاراً لها بينما اتخذت الدولة العثمانية شعار التسنن ، فأدى ذلك الى استفحال الصراع الطائفي في العراق الى درجة لا تطاق •

يجب أن لاننسى أن الصراع الطائفي كان موجوداً في العراق منذ صدر الاسلام ، وطالما شهدت بغداد في العهد العباسي معارك بين المحلات السنية والشيعية يسقط فيها الكثير من القتلى ، وتحرق البيوت والاسواق ، وتنتهك حرمة المراقد المقدسة • ولكن هذا الصراع بلغ أوجه عندما حدث التنازع على العراق بين الدولتين الايرانية والعثمانية حيث صار أهل العراق

---

(١) مما يلفت النظر أن العراقيين ــ والعرب عموماً ــ كانوا يطلقون على الأتراك اسم « الروم » ، والظاهر ان ذلك نشأ من كون الاتراك جاءوا الى البلاد العربية من جهة الروم •

لا يفهمون من شؤون حياتهم العامة سوى أخبار هذه الدولة أو تلك ، وكل فريق منهم يدعو الله أن ينصر احداهما ويخذل الأخرى .

لم يكن أهل العراق في ذلك الحين يعرفون شيئاً من المفاهيم السياسية الحديثة كالوطنية أو القومية أو الاستقلال ، بل كان جلّ ما يشغل بالهم هو الاحساس الديني المتمثل بالتعصب المذهبي . ومعنى هذا أنهم لم يكونوا يعتبرون الايرانيين أو الأتراك أجانب هدفهم احتلال البلاد والانتفاع بخيراتها ، انما كان كل فريق منهم ينظر الى الدولة التي تنتمي الى مذهبه كأنها حامية الدين ومنقذة الرعية .

وقد ظلت هذه النظرة سائدة بين العوام حتى عهد قريب ، وكان من مظاهرها تقديسهم للمدفع المعروف باسم « طوب أبو خزامة » ، فهذا المدفع جاء به السلطان مراد الرابع لفتح بغداد ثم تركه فيها ، وقد اتثال العوام يتبركون به بعدئذ مع العلم أنه لم يكن سوى اداة من ادوات « احتلال » العراق و « استعماره » حسب مفاهيم العصر الحديث .

ان الصراع الطائفي يقوم في ظاهره على أساس الخصومة بين من يدّعي التمسك بأصحاب النبي ومن يدعي التمسك بأهل بيته . والواقع أن الدولتين العثمانية والايرانية كانتا متماثلتين من حيث بعدهما عما كان يدعو اليه أصحاب النبي وأهل بيته معاً ، إذ كانت كلتاهما من الدول الاستبدادية القديمة التي لم يكن لها أي شبه كثير أو قليل بالدولة الاسلامية التي شهدناها في عهد النبي وخلفائه الراشدين .

لم يكن أهل العراق في العهد العثماني يدركون هذا ، أو يستطيعون أن يدركوه ، فقد كان يكفيهم أن تكون الدولة على مذهبهم فتشيّد قبور ائمتهم وتعتني باقامة الطقوس والمظاهر الدينية الخاصة بهم ، ولا بأس بعدئذ أن تفعل الدولة ما تشتهي فذلك أمر لا يهمهم ولا يعتقدون أن له دخلاً بالدين .

مبدأ الشفاعة :

يمكن القول إن العقيدة الدينية كانت آنذاك ترتكز في بعض أسسها على مبدأ الشفاعة فالناس حين يدّعون التمسك بالصحابة أو بأهل البيت لم يكن قصدهم من ذلك اتباع طريقتهم في الحياة ، بل كان قصدهم الحصول على شفاعتهم يوم القيامة .

كان الناس يعتقدون أن الدنيا فانية وهي لا تستحق أن يهتم بها الانسان إنما يجب عليه أن يهتم بأمور الآخرة بدلاً عنها ، وأهم وسيلة للفوز الأخروي في نظرهم هو القيام بالطقوس الدينية من جهة والحصول على شفاعة المقرّبين عند الله من الجهة الأخرى ، أما الاخلاق وحسن المعاملة وما أشبه فهي ليست ذات أهمية كبيرة لأن جميع الذنوب في نظرهم قد يغفرها الله بوساطة الشفعاء الذين يحبهم الله حباً جماً ولا يردّ لهم أي طلب .

لا يخفى أن مبدأ الشفاعة هذا منبثق من طبيعة الحكم الذي اعتاد الناس عليه في العصور القديمة ، فهم قد اعتادوا أن يروا الشخص المقرّب من السلطان قادراً أن ينقذ أي انسان من حبل المشنقة أو يجعله يحظى بالجوائز والمال الوفير ، وقد انعكست هذه النظرة على عقيدتهم الدينية فصاروا يعتقدون أن الشفاعة لها أهمية عند الله في الآخرة كمثل أهميتها عند السلاطين في الدنيا .

إن هذا قد يساعدنا على تفسير الكثير من الظواهر الاجتماعية المتناقضة التي كان العهد العثماني يزخر بها من حيث اهتمام الناس ـ حكومة وشعباً ـ بتعمير المساجد والمراقد المقدسة ، وشدة العناية بالطقوس والمظاهر الدينية ، في الوقت الذي كان فيه الظلم والنهب والاعتداء شائعاً بين الناس ـ فالحكومة تظلم الناس ، والناس يظلمون بعضهم بعضاً ، ولكن الجميع واثقون بأنهم سيدخلون الجنة غداً بوساطة الشفعاء الكرام .

إن أهم قضية يثور الجدل حولها بين الشيعة وأهل السنة هي قضية الخلافة أي من يجب أن يكون الخليفة بعد وفاة النبي ـ علي أم أبو بكر . ومن ينظر الآن في هذه القضية نظرة عصرية محايدة يشعر أنها من قضايا الماضي البعيد وليست لها أية أهمية أو علاقة بواقعنا الراهن . ولكن العراقيين كانوا ينظرون فيها من وجهة نظر أخرى ، فهم حين يعتقدون بان فلاناً أجدر من فلان بالخلافة يحسبون ان ذلك سينفعهم يوم القيامة لان فلانا سيشفع لهم بين يدى الله ولابد أن ينقذهم بشفاعته من عذاب الجحيم !

تدور عقيدة الشيعة حول أهل البيت ، فهؤلاء في نظر الشيعة هم وحدهم المقربون الى الله والقادرون على الشفاعة المنجية ، ومن يريد أن يحظى بشفاعتهم يجب عليه أن يتولاهم ويتبرأ من أعدائهم ولا يجوز له أن يحبهم ويحب أعداءهم في آن واحد. أما أهل السنة فاتخذوا عقيدة أخرى تتلخص بالعبارة المعروفة : « نحب الكل ونحظى بالكل » ـ أي أنهم يحبون أبا بكر وعلياً معاً كما يحبون الصحابة وأهل البيت جميعاً ـ ولذلك فهم سينالون حسب عقيدتهم شفاعة الكل[1] .

مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن مبدأ الشفاعة موجود في كل الطوائف والأديان على وجه من الوجوه ، ولكننا نستطيع أن نقول إن هذا المبدأ يضعف تأثيره في المرحلة الأولى من نشأة الدعوة الدينية ، فالناس اذ ذاك يهتمون بالعمل الصالح اكثر من اهتمامهم بمبدأ الشفاعة ، انما هم بعد مرور الزمن عليهم وانتكاصهم تدريجاً الى قيمهم الاجتماعية القديمة

---

(١) يروي طالب مشتاق قصة طريفة في هذا الشأن وهي أنه بحكم ولادته في الكاظمية وهي بلدة شيعية نشأ شيعياً فأخذت جدته تنصحه بأن يترك التشيع ويعتنق مذهب السنة ، وكانت تكرر عليه دائماً قولها : « إننا يا بني نحب الكل ونحظى بشفاعة الكل » ، غير أنه كان يهزأ بها ولا يعير قولها أيّ اهتمام ...

انظر : طالب مشتاق (أوراق أيامي) ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ج١ ص١٠ .

ـ حيث يعودون الى التكالب على الدنيا وينســـون تعاليم الدين ـ يجدون أنفسهم أنهم قد انغمسوا في الذنوب وأن ليس لهم من أمل في النجاة الا اذا كان لديهم رجل وجيه عند الله يتشفع لهم • إنهم في هذا كالمجرم الذي هو على وشك أن يحال الى المحكمة إذ هو لا يجد أملاً في النجاة الا عن طريق الوساطة ، ولذا نراه يلتجىء الى الوسيط طالباً « دخالته » متضرعاً بين يديه وهو يظن أن الوسيط لابد أن يرق قلبه أو تدفعه المروءة والشهامة فيقوم بالوساطة له على أي حال •

يمكن القول إن مبدأ الشفاعة يشبع حاجة نفسية عند الناس ، وهـم لا يكتفون باللجوء اليه من أجل غفران ذنوبهم فقط ، بل يلجأون اليه أيضاً عندما يحتاجون الى وسيط في أمورهم الدنيوية ، فاذا تمرض شخص عزيز عليهم ، أو حلّ بهم الفقر وتراكمت عليهم الديون ، أو انتشر بينهم وبـاء أو داهمتهم كارثة ، أسرعوا الى قبر أحد الائمة أو الاوليـاء يبكون عنده ويستغيثون • فهم قلّما يدعون الله في حاجـــة لهم لأنهم يتصورون الله كالسلطان لا يمكن الوصول اليه الا عن طريق المقربين منه من ذوي الجاه الكبير والمقامات الرفيعة •

خلاصة القول أننا لا نستطيع أن نفهم سرّ الكثير من مظاهر التدين ـ في المجتمع العراقي وغيره من المجتمعات المشابهة له ـ ما لم نفهم مبـدأ الشفاعة ومبلغ تغلغله في أعماق القلوب ، إن الناس قد ينكرون أثر هـــذا المبدأ فيهم أحيانـــاً لكنهم خاضـعون لتأثيره من حيث لا يشعرون ولولاه لأحسّوا بالضياع •

اخلاق اهل العراق :

كان العراقيون في العهد العثماني أقرب الى أخلاق البداوة منهم الى أخلاق الاسلام ، وسبب ذلك يعود الى سيطرة « المد البدوي » عليهم . وليس هنا مجال التبسط في هذا الموضوع ، يكفي أن أقول إن هناك تبايناً كبيراً بين أخلاق البداوة وأخلاق الاسلام إذ أن البداوة تمجد قيم العصبية والثأر والغزو والنهب والدخالة وقتل المرأة لغسل العار وما أشبه ، بينما يشجب الاسلام تلك القيم ويعدها من عادات الجاهلية المنهي عنها . والواقع أنها على الرغم من شجب الاسلام لها كانت شائعة في العهد العثماني وكان الكثير من الناس يمجدونها ، ولم يكن من النادر أن نراهم يفخرون بالرجل الذي يهزّ الارض بأقدامه اذا مشى ، ويكسر عيون الناس دون أن يتمكن أحد من كسر عينه ، ويسطو على البيوت ليلاً بدافع الرجولة ، وهم عندئذٍ يصفونه بأنه « سبع » أو « رجل ليل » أو « فخر العشيرة » أو غير ذلك من صفات المديح .

الواقع ان « المد البدوي » طالما راود المجتمع العراقي ـ مرة بعد مرة ـ خلال عصور التاريخ ، فهو يأتيه تارة وينزاح عنه تارة أخرى . ويرجع السبب في ذلك على الاكثر الى كون الصحراء التي تتاخم العراق هي من أعظم منابع البداوة في العالم ـ إن لم تكن أعظمها على الأطلاق ـ وليس هناك حاجز طبيعي يحجز بينها وبينه ، ولذا كانت القبائل البدوية على استعداد دائماً لدخول العراق والسكنى فيه ، وهي تفعل ذلك حالما تجد الفرصة مؤاتية لها كما في فترات الفوضى والحروب ، أو على إثر انتشار الأوبئة الكاسحة ، أو في الأوقات التي تكون فيها الحكومة ضعيفة مهملة والحضارة مضمحلة ـ وعندئذ تتغلغل القبائل البدوية في أنحاء العراق فتسيطر على الطرق وتهدّد المدن والقرى مما يؤدي بسكانها الى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم وبهذا تنتشر قيم العصبية والثأر والغزو بينهم .

وهناك سبب آخر يمكن أن يؤتى به في هذا الصدد وهو أن مياه العراق تحمل من الغرين نسبة عالية جداً[1] ، وهـــذا يؤدى في فترات الفوضى والاهمال الى ترسب الطين في مجاري الانهـار ، واندثار تـرع الري ، وتتابع الفيضانات • ولابد أن يؤدي هذا بدوره الى ترك الكثير من العشائر حرفـة الزراعـة واتجاهها نحو حرفـة الرعي وما يصاحبهـا من عادات البداوة •

أضف الى ذلك أن الأراضي الزراعية في العراق كثيراً ما تتضاءل في قدرتها الانتاجية من جراء تراكم الأملاح فيها أو تغير مجاري الأنهار ، وهذا يدفع العشائر الريفية ــ في العهود التي تضعف سيطرة الحكومـة فيها ــ الى التنازع فيما بينها من أجل الاستحواذ على الاراضي الصالحة أو من أجل الاحتفاظ بها على الاقل ، ومعنى هذا انتكاص تلك العشائر الـى عادات البداوة إذ هي تجد أنها غير قادرة على البقاء في معركة الحياة الا بحد سيفها وقوة عصبيتها •

المد البدوي الاخير :

يبدو لي أن المد البدوي الأخير الذي شمل العراق في العهد العثماني كان أشد وطأة من جميع عهوده السابقة إذ لم يشهد المجتمع العراقي عبر تاريخه الطويل حقبة سيطرت فيها القيم البدوية كتلك الحقبة • ولعلنـي أستطيع أن أعلّل ذلك بالأسباب التالية :

أولاً ــ ان الفتح العثماني جاء عقب فترة من الفتوح المغولية والتترية، وهي فترة لم تتوفر فيها حكومة حضرية تعنى بترويج التجارة وتشجيع الانتاج والعناية بنظام الري • ويعتبر المؤرخون تلك الفترة أشـد فترات التاريخ العراقي ظلاماً وأوطأها حضارة • ان الحكومات التي تتابعت عـلى

---

(١) احمد سوسة (فيضانات بغداد في التاريخ) ــ بغداد ١٩٦٣ ــ ج١ ص ١٤٧ ــ ١٤٨ •

العراق منذ سقوط الدولة العباسية ، أو ربما قبل ذلك ، كان همها الأكبر ينحصر في الفتح والجباية بدلاً من العمران أو سيادة الأمن والنظام في المجتمع ، فاضطر أهل المدن من جراء ذلك الى الالتجاء الى العصبية القبلية والقيم البدوية من أجل المحافظة على أرواحهم وأموالهم ، كما اضطرت العشائر الصغيرة الى التكتل أو الانضمام الى اتحادات قبلية كبيرة لكي تكون أقدر على تنازع البقاء • وقد اشتد هذا الوضع ضراوة في العهد العثماني ، فكثيرا ما كان الولاة فيه يضربون العشائر بعضها ببعض لكي يشغلوها أو يضعفوها على طريقة « فرّق تسد » •

ثانياً ـ ان الدولة العثمانية حين جاءت لفتح العراق في القرن السادس عشر كانت قد اجتازت قمة قوتها وازدهارها وسرعان ما بدأت تظهر عليها امارات الضعف والانهيار ، ولم يكن من المقدّر لها آنذاك أن تبقى على قيد الحياة مدة طويلة غير أن الذي أبقاها حية على الرغم من وهنها الشديد هو ما عرف في التاريخ الحديث باسم « المسألة الشرقية » إذ كانت بعض الدول الكبرى كبريطانيا وفرنسا تتبع ازاء الدولة العثمانية سياسة من لا يريد لها الحياة أو الموت • إنهم كانوا يخشون أن تموت قبل أن يتم الاتفاق بينهم على اقتسام تراثها ، فكانوا يدأبون على اعطائها جرعات صغيرة من العلاج كلما وجدوها مشرفة على الموت ، وهكذا بقيت الدولة العثمانية مدة طويلة تعالج سكرات الموت دون أن تموت • ومعنى هذا أن العراق وغيره من البلاد التي كانت خاضعة لها ظلت ترزح تحت نير التفسخ الحكومي والانحطاط الحضاري ، فكان ذلك فرصة ثمينة للقبائل البدوية حيث أخذت تتغلغل في العراق وتسيطر بقيمها الاجتماعية عليه •

ثالثاً ـ ان الدولة العثمانية علاوة على ضعفها العام كانت مشغولة بنزاعها المتصل مع ايران ـ ذلك النزاع الذي استمر ثلاثة قرون تقريباً ولم يهدأ نسبياً الا منذ منتصف القرن التاسع عشر ، ولابد أن يكون هذا

الانشغال فرصة للقبائل لكي تسرح وتمرح في العراق كما تشاء . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الحكومة العثمانية كثيراً ما كانت تستعين بالقبائل العراقية في حروبها مع ايران ، والمعروف عن تلك القبائل أنها لا تشترك في الحرب بدافع وطني أو ديني أو ما أشبه ، بل هي تشترك فيها ابتغاء الغنيمة من جهة وابتغاء الحصول على امتيازات تخول لها السيطرة على مناطق خاصة بها من الجهة الاخرى ، وهي بعد انتهاء الحرب قد تصبح مستقلة تحكم نفسها بنفسها وتحاول أن توسع نفوذها على العشائر المجاورة لها . وبهذا قد تقع مناطق واسعة من العراق تحت سيطرة شيوخ عشائريين يحكمونها حسب قيمهم البدوية .

رابعاً ـ كانت الأوبئة تجتاح العراق في العهد العثماني مرة كل عشر سنوات تقريباً . والواقع ان الأوبئة كانت تجتاح العالم كله حيناً بعد حين ولكنني أميل الى الظن أن العراق كانت حصته منها أكثر من حصة غيره ، وربما كان من أسباب ذلك هو أن العراق يقع في طريق الحج بالنسبة لبعض الاقطار الاسلامية ، وهو بالاضافة الى ذلك يحتوي على مراقد مقدسة يقصدها الزوار كثيراً وفيه مقبرة تعد أعظم مقابر العالم هي مقبرة « وادي السلام » في النجف . ومعنى هذا أن أي وباء يحدث في بلد مجاور لابد أن ينتقل الى العراق عاجلاً أو آجلاً[1] .

ولا حاجة بنا الى القول إن الأوبئة هي من أشد العوامل تأثيراً في توهين الحضارة وفي تدعيم « المد البدوي » في البلاد ، إذ هي تكون عادة أشد وطأة على سكان المدن منها على سكان البادية أو الريف ، وكلما كانت المدن أكبر وأكثر ازدحاماً بالسكان كان تأثير الوباء فيها أفظع . وطالما قضت الاوبئة على معظم الصنّاع وأرباب الحرف في المدن فلا يبقى منهم

---

(١) انظر في عوامل استفحال الأوبئة في العراق كتاب « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » للمؤلف ـ بغداد ١٩٦٥ ـ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٦ .

ما يكفي لاستمرار الحضارة وازدهارها .

المدن والعشائر :

هناك ظاهرتان اجتماعيتان يمكن أن نستدل بهما على مبلغ استفحال المد البدوي في العهد العثماني : احداهما قلة السكان في العراق ، والثانية كثرة العشائر بالنسبة الى أهل المدن فيه .

كان مجموع سكان العراق في منتصف القرن التاسع عشر يناهز المليون وربع المليون ، وهذا عدد قليل جداً بالنظر الى ما كان عليه سكان العراق في العهد العباسي إذ يقال أن سكان بغداد وحدها آنذاك كان يزيد على سكان العراق كله في العهد العثماني .

كانت العشائر في العهد العثماني تنوف نسبتها على ثلاثة أرباع سكان العراق ، وكانوا فئتين بدواً وزراعاً[1] ، ولكنهم جميعاً يخضعون للعصبية القبلية ولا يعرفون غيرها . فهم كانوا ينظرون الى كل حكومة نظرة عداء لا فرق عندهم بين أن تكون الحكومة تركية أو ايرانية ، وربما عمد بعض العشائر الى معاونة الجيوش المنتصرة ، والى نهب فلول الجيوش المنكسرة ، بغض النظر عن عقيدة هذه الجيوش أو تلك .

أما اهل المدن فكانوا يختلفون بعض الاختلاف عن العشائر في هذا الشأن ، فلقد كانت لديهم ثلاثة مستويات من العصبية أو الانتماء الجماعي ، بينما كان للعشائر مستوى واحد من العصبية هي العصبية القبلية . فالفرد الحضري يتعصب قبل كل شيء لمحلته ازاء المحلات الاخرى من بلدته، حيث تكون المحلة بالنسبة له كالعشيرة بالنسبة للبدو والريفيين ، بيد أن عصبيته المحلية هذه قد تتحول الى عصبية أوسع نطاقاً وهي التي نسميها بالعصبية البلدية ، ويحدث ذلك حين يهدد البلدة خطر عام ، وبذا تتّحد جميع

---

(١) محمد سلمان حسن (التطور الاقتصادي في العراق) ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص٥١ ـ ٥٨ .

المحلات في سبيل الدفاع عن البلدة وتقف صفاً واحداً تجاه العدو المشترك .

أما المستوى الثالث من العصبية عند أهل المدن فهو المستوى الطائفي ، وهو يظهر عندما تثار قضية طائفية أو تأتي لغزو البلاد دولة تنتمي الى إحدى الطائفتين . وحينئذ ينسى أهل المدن عداواتهم المحلية والبلدية ويركزون اهتمامهم نحو القضية الجديدة ، وهنا يظهر مصداق المثل البدوي المشهور : « أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب » .

يتضح من هذا ان الطائفية ليست سوى نمط معين من العصبية ، أي أنها تقوم على أساس من الانتماء الاجتماعي اكثر مما تقوم على أساس من الدين والحرص على سلامة تعاليمه .

فالملاحظ أن العراقيين في نزاعهم الطائفي كانوا ينسبون كل فريق منهم الى الرجل الذي يعتبرونه رمز عصبيتهم الطائفية فيقال إن هؤلاء « ربع علي » وأولئك « ربع عمر » [1] ، وكل فريق منهم يتصور نفسه كأنه عشيرة الرجل ، وهم يتحمسون له كما تتحمس القبائل عند القتال تحت راية شيخها الكبير .

إن هذا يشبه من بعض الوجوه ما يحدث أثناء النزاع بين بلدتين من طائفة واحدة ، كمثل ما يقع أحياناً بين النجف والكاظمية فأهل الكاظمية يطلقون على أنفسهم لقب « أولاد موسى » نسبة الى الامام موسى الكاظم المدفون في بلدتهم ، وكذلك يطلق أهل النجف على أنفسهم لقب « أولاد علي » . فالقضية هنا خرجت من إطارها الديني وأصبحت كأنها نخوة قبلية ، وحين يتقاتل « أولاد علي » و « أولاد موسى » ينسون أن علياً

---

(١) ان لفظة « ربع » في اللهجة العراقية تعني الجماعة أو الحزب أو الكتلة ، والظاهر أن لها أصلا في اللغة العربية الفصحى فالمعروف تاريخياً ان المحاربين في صدر الاسلام كانوا يقسمون الى « أرباع » أي فرق .

وموسى من شرعة واحدة ومبدأ واحد •

ظاهرة الشقاوة :

إن من أهم الظواهر الاجتماعية التي تدل على مبلغ سيطرة المد البدوي على العراق في العهد العثماني هي ظاهرة « الشقاوة » ولابد لنا في هذه المناسبة من دراسة هذه الظاهرة على شيء من التفصيل إذ هي تعطينا صورة واضحة لما كان عليه المجتمع العراقي آنذاك من تركيب وقيم •

إن « الشقي » من الناحية القانونية يعتبر مجرماً ، غير أنه من الناحية الاجتماعية يعد من الأبطال الذين تفتخر بهم المحلة ويشار اليهم بالبنان • إنه كان في الغالب يمتهن اللصوصية والسطو على البيوت وفرض « الخاوة » ـ أي الاتاوة ـ على الاغنياء ، ولكنه في الوقت نفسه لا يخالف القيم المحلية السائدة فهو في محلته شهم مغوار يحمي جاره ويحافظ على حق « الزاد والملح » ويراعى تقاليد العصبية والدخالة والنجدة وما أشبه • أما سلوكه الاجرامي فهو موجّه ضد الحكومة من ناحية ، وضد الافراد الذين لا ينتمون الى عصبيته من الناحية الأخرى •

كثيراً ما كانت تجري المعارك الدامية بين الشقي و « الجندرمة » ليلاً ، وترتفع منزلة الشقي في نظر الناس بمقدار ما تكثر معاركه الجريئة ويزداد عدد ضحاياه • واذا ألقي القبض عليه ودخل السجن كان ذلك بمثابة وسام له استناداً على المبدأ القائل « السجن للرجال » • أما اذا قُتل خرج أهل محلته لتشييع جنازته وهم يتأسّفون على موت مثل هذا الرجل « العظيم » •

في أواخر العهد العثماني قُتل أحد الاشقياء المشهورين في بغداد ـ واسمه « عباس السبع » ـ مع زميل له ، فربط « الجندرمة » جثة كل منهما بذيل حصان وسحبوهما في الطرقات • وقد ذكر شاهد عيان أنه

رأى الناس يبكون لهذا الحادث ، ووجد جماعة « تهوّس » خلف الجثة الاولى قائلة « عباس السبع يا مطيّع التجار » ، وكانت النســاء يلطمن ويندبن حول الجثة الثانية قائلات : « يا أهل الزود اطلعوا ، ثــارت الچيلات »[1] .

إن هذا يدل على مبلغ تقدير الناس للشقي ، فهم يمـدحونه بأنـــه « مطيّع التجار » أي أنه يجبى الأتاوة من الاغنياء ويفرض عليهم الطاعة لأمره . والظاهر أن الحكومة حين سمحت بسحب الجثة وراء حصـان أرادت أن تجعل من صاحبها عبرة لغيره من الاشقياء ، غير أن عملها هذا جعل الشقي شخصاً مشهوراً يندبه الناس ويتأسفون لموته .

كان عدد الاشقياء في العهد العثماني قليلاً جداً بالنسـبة لمجموع السكان في المحلة أو البلدة ، انما هم كانوا على الرغم من قـــلة عـددهم يمثلون القيم الاجتماعية السائدة أوضح تمثيل . إن السبب في قلة عددهم ناشيء من كون الشقاوة تستلزم في صاحبها صـفات نـادرة كالشــجاعة ، والقوة البدنية ، والحذق في استعمال السلاح ، وغلاظة القلب ، والجرأة ، وهذه صفات قلما تجتمع في شخص واحد ، وان هي اجتمعت في احـد الاشخاص وجب أن تتاح له ظروف مســاعدة ــ كأن يشـتبك في معركـة دامية مع خصوم له أو مع قوات الحكومة ويخرج منها منتصراً ــ وعند هذا تبدأ سمعته بالذيوع وترتفع مكانته بين أبناء محلته ، وكلما توالت انتصاراته بعدئذ ازدادت معنويته ودخل في عداد الاشقياء المرموقين .

واذا نبغ في إحدى المحلات شقي مشهور ــ على النحو الذي ذكرناه ــ اعتزت المحلة به إذ هو سيكون حاميها من اللصوص ليلاً ، وبطلها المغوار عندما تنشب معركة بينها وبين محـلة اخرى . والشقي له في زيّه عـلامة

---

(١) عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص١٣٥ .

يتميز بها ، كالطريقة التي يلف بها الكوفية حول رأسه ، أو سرواله الطويل ، واذا مشى كانت له مشيته الخاصة ونظراته الشزرة ، والويل لمن يقصّر في احترامه أو لا يرد له التحية بأحسن منها .

إن أكثر الصبيان في المحلة يجعلون الشقي المشهور قدوة لهم ويطمحون أن يكونوا مثله في يوم من الأيام ، فهم عندما يستمعون الى آبائهم وأقاربهم يتحدثون عن مناقب الشقي ومغامراته البطولية يحسون بالرغبة نحو الاقتداء به لكي ينالوا السمعة التي نالها . ومشكلة هؤلاء الصبيان أنهم حين يكبرون قد يشعرون بخيبة الأمل إذ أن اكثرهم لا يستطيعون أن يصلوا الى الهدف الذي يطمحون اليه ، وقد يصاب بعضهم من جراء ذلك بالعقدة النفسية الطاحنة على منوال ما اصيب بها خلف بن أمين .

خلف بن امين :

الواقع أن شخصية خلف بن أمين تمثل لنا نموذجاً لعدد غير قليل من العراقيين في العهد العثماني ، ولا يزال لها نظائر في أيامنا هذه بيد أنها في تضاءل وتقلص على أي حال .

عاش خلف بن أمين في بغداد في أواخر العهد العثماني ولا يزال أهل بغداد يتناقلون نوادره ويتفكهون بها ، وخلاصة أمره أنه كان قميئاً جباناً وليس لديه من المؤهلات ما يجعل منه شقياً مشهوراً لكنه كان يطمح أن يكون شقياً يشار اليه بالبنان ، فكان يملك مسدسين كبيرين يشدّهما الى جنبيه ليتباهى بهما انما هو لا يستعملها الا حين يطمئن من زوال الخطر ، فاذا سمع في محلته أثناء الليل صراخاً يدل على وجود لص فيها ، ظل هو في بيته لا يحرك ساكناً ، حتى اذا هرب اللص أو ألقي القبض عليه خرج هو من بيته وقد شهر المسدسين بكلتا يديه يطلق منهما الرصاص ويصرخ : اين هو ؟ دلّوني عليه !

وكانت أحاديثه مع الناس لا تخلو من قصص القتل والسلب والسطو على البيوت و « البسط » ، وهو يعزو الكثير منها الى نفسه طبعاً ، واذا وقعت حادثة قتل أو سرقة كبيرة ذهب الى « القلّغ » ـ أي مركز الشرطة ـ يسأل الناس هل ورد اسمه بين المتهمين ، ومن هنا جاء المثل البغدادي المعروف « ما جابوا اسم خالكم ؟! » •

وكثيراً ما يحشر نفسه بين المتهمين أو يعمد الى الاعتراف أمام الحاكم بجريمة لم يقترفها بغية دخول السجن ، ولكن الحاكم كان معانداً له فكان يطلق سراحه في كل قضية ، ويخرج هو من المحكمة متألماً يذم الحاكم ويعتبره ظالماً لأنه يطلق سراح « المجرمين » ويحكم على « الابرياء » •

يمكن القول إن معظم الناس كانوا مثل خلف بن أمين يحبون التفاخر المصطنع بالشقاوة ، وانما اشتهر ابن أمين وحده بهذا لانه أفرط في تفاخره حتى صار أضحوكة الناس • إن الكثيرين في الواقع يملكون في أعماق قلوبهم مثل تلك النزعة في التفاخر المصطنع غير أنهم يتكتّمون فيها ويدارونها مخافة أن يضحك عليهم الناس ، ولو كُشف الغطاء عن أعماق قلوبهم لرأينا فيهم كثيراً من طراز خلف بن أمين •

الفرق بين العيارين والاشقياء :

يُرجع الدكتور مصطفى جواد تقاليد الأشقياء الى أخلاق العيارين والشطار وأهل الفتوة الذين ظهروا واستفحل أمرهم في بغداد في العهد العباسي(١) • والواقع أن هناك تشابهاً غير قليل بين تقاليد هؤلاء واولئك ولكننا مع ذلك نلاحظ فرقاً بينهما هو أن الشقاوة يغلب عليها الطابع الفردي بينما كان العيارون وأضرابهم يخضعون لتنظيم جماعي يشبه تنظيم الجنود أحياناً ويشبه تنظيم « الاصناف » المهنية ـ أي النقابات ـ أحياناً اخرى •

---

(١) ابن المعمار (كتاب الفتوة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ٩٨ ـ ٩٩ •

يخيل لي أن العيارين وأضرابهم انما نشأوا في محيط متحضـــر ويمثلون ثورة الفقراء على الاغنيـاء ، أي أنهم ظهروا من جراء التمـايز الطبقي الذي كان المجتمع البغدادي يزخر به في ذلك الحين حيث يعيش الأمراء والاغنياء في أقصى درجـات الترف ويعيش الفقراء والكسبة في أقصى درجات الحرمان .

لقد كانت بغداد في العصر العباسي عاصـمة امبراطورية متراميـة الاطراف تأتي اليها أموال الخراج والجزية والغنـائم مـن كل مكان ، فنشأت فيها طبقة مترفة غاية الترف من جهة ، وهـاجر اليها آلاف الفقراء ليعيشوا على فضلات موائد المترفين من الجهة الاخرى[1] . ولهذا ظهرت في بغداد قصور باذخة تحتوى على أعظم ما وصلت الحضارة آنذاك من وسائل اللذة والعيش الرغيد ، كما ظهرت فيها تجمعات بشرية يســودها الفقر والقذارة وتعشعش فيها عصابات اللصوص والعيارين والشطار ومن لف لفهم .

يحدثنـا المؤرخون عن العيارين واللصوص أنهم كانوا حين يقطعون الطرق على القوافل وينهبونها يحتجّون بأنهم أنما يأخذون حقهم في الزكاة التي امتنع التجار عن دفعها لهم طوعاً ، فهم يزعمون أنهم فقراء يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كرهوا لان الزكاة صدقة تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرّق في فقرائهم[2] .

إن هذا الوضع الاجتماعي يختلف طبعاً عن الوضع الذي كان عليه

(١) ان كتاب ألف ليلة وليلة يعد من خير المراجع في تصوير تلك الحالة الاجتماعية التي كانت تعيشها بغداد ، فالقارىء يستطيع أن يستشف من وراء سطور الكتاب البون الشاسع في مســتوى المعيشـة بين المترفين والكادحين .

(٢) جرجى زيدان (تاريخ التمدن الاسلامي) ـ القاهرة ١٩٢٧ ـ ج٤ ص١٨٤ .

العراق في العهد العثماني ، فقد كان همّ الوالي العثماني في الغالب أن يحصل على أقصى ما يستطيع الحصول عليه من أموال الجباية لكي يرسل حصة الأسد منها الى اسطنبول ويستحوذ هو على الباقي منها ، أما اذا أراد الوالي العمران فأقصى ما يفعله هو أن يكثر من تعمير المساجد والمعاهد الدينية إذ هو كسائر الناس يؤمن بمبدأ « الشفاعة » وكلما ازداد عدد ما يبني من المساجد في هذه الدنيا ازداد عدد القصور التي تبنى له في جنة الفردوس •

يقول المستر ريج القنصل البريطاني المعروف الذي ساح في المنطقة الشمالية من العراق في عام ١٨٢٠ : إن من محاذير السفر مع جماعة كبيرة هو أن القرويين يخفون كل بضاعة جيدة لديهم مخافة أن تسلب منهم وعلى الأخص اذا علموا أن بين الجماعة من هم من موظفي الحكومة[١] • إن ما لاحظه المستر ريج قد لاحظه الكثير من السياح الأجانب في العراق أيامئذ ، ولهذا اعتاد الناس أن يتشاءموا من أي مظهر للنعمة يظهر عليهم ويتكتموا في أمر ثرواتهم لكي لا يعلم بها أحد فتصبح عرضة للمصادرة من قبل الحكام ، أو للسرقة من قبل اللصوص • وهذا هو الذي جعل التمايز الطبقي بين الناس غير واضح المعالم أي أنه لم يكن مثل ما كان عليه في العهد العباسي •

الوعي الجماعي :

لا بد لنا في هذه المناسبة من أن نشير الى أن الوعي الجماعي كان في العهد العثماني اكثر شيوعاً من الوعي الطبقي ، ونقصد بذلك أن الناس كانوا يتعصّبون لعشائرهم أو محلاتهم أكثر مما كانوا يتعصبون لأبناء طبقتهم ، فقد كان أبناء المحلة الواحدة في المدن يتضامنون ويتعاونون فيما

(١) كلوديوس جيمس ريج (رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠) ـ ترجمة بهاءالدين نوري ـ بغداد ١٩٥١ ـ ص٧ •

بينهم بغض النظر عن اختلاف مستواهم الاقتصادي ، وكان الغني منهم يحرص أن يفتح ديوانه لأبناء المحلة جميعاً من غير تفريق بينهم ، ويكثر من الولائم لهم واغداق الهدايا عليهم في المناسبات المختلفة ، وكانوا هم من جانبهم يسرعون الى نجدته في الملمات ويتعصبّون له في المعارك والخصومات .

ويتضح هذا في المجتمع الريفي والبدوي أكثر مما يتضح في المدن ، حيث نجد شيخ العشيرة لا يتكبر على أبناء عشيرته ولا يتميز عنهم في لباس أو طعام أو مسكن الا قليلاً ، وهو يحرص أن يكون في خدمتهم دائماً ينظر في قضاياهم ويحل مشكلاتهم ويسد عوزهم ، ولذا نجدهم يفتخرون به ويتعصبون له ، وقد يغضبون اذا شُتم شيخهم أمامهم ، واذا رفع الشيخ رايته واطلق « هوسة » القتال التفوا حوله وقاتلوا معه من غير تردد أو اعتذار .

يجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن الوعي الجماعي هو من مظاهر سيطرة المد البدوي على العراق في العهد العثماني ، فالناس عادة لا يتركون الوعي الجماعي ويأخذون بالوعي الطبقي الا بعدما يظهر عليهم التحضّر وهم عندئذ يشعرون بأن المال هو عصب الحياة وأنه هو الذي يرفع مكانة الانسان أو يخفضها . أما في البداوة ــ أو في المجتمع الذي يسيطر عليه المد البدوي ــ فالناس لا يقدّرون المال الا بمقدار ما يدعم عصبيتهم الجماعية ويرفع من مكانتهم فيها ، وليست له فيما سوى ذلك قيمة كبيرة . ومعنى هذا أنهم يطلبون المال لا من أجل أن يتنعّموا به بل من أجل أن يتكرّموا به .

وتظهر هذه النظرة الى المال عند الاشقياء بجلاء ، فالمال لديهم وسيلة لا غاية ، وكثيراً ما كانوا يعدّون السلب والسطو على البيوت من مظاهر الشجاعة والرجولية ولهذا كان الرجل المقدام يلقب « رجل ليل » باعتبار

أن الخروج للسرقة ليلاً عمل يحتاج الى الكثير من الشجاعة والثقة بالنفس وعدم الخوف . ومن هنا صار بعض وجهاء المدن يخرجون ليلاً للسطو على البيوت لكي يدعموا بذلك وجاهتهم ويرفعوا مكانتهم الاجتماعية .

وفي العراق الان قصص كثيرة لا يزال يتناقلها المسنون يستدلون بها على ما كان في أيامهم الماضية من أخلاق « عالية » ، وهي في مجملها تدور حول مناقب الاشقياء من حيث حرصهم على تقاليد المروءة أكثر من حرصهم على السرقة واستلاب الاموال . ومن هذه القصص واحدة طالما سمعت أبناء الجيل الماضي يلهجون بها ، وخلاصتها أن جماعة من الاشقياء سطوا ذات ليلة على بيت وأخذوا يجمعون منه الأواني وبعض الاثاث بغية جعلها في حمل واحد ليسهل نقلها ـ على طريقة اللصوص في تلك الايام ـ فأحسّت بهم أم البيت وهي خائفة فأيقظت ولدها قائلة له : « قم ساعد أخوالك » ، والظاهر أنها قالت ذلك على سبيل التهكم ولكن اللصوص أخذوا قولها مأخذ الجد وتركوا السرقة من بيتها اذ أن المرأة صارت بمثابة « اخت » لهم وليس من الجائز في عرفهم أن ينهب الرجل اخته وابناء اخته ، إنه يجب أن يحميهم لا أن ينهبهم !

إن هذه القصة قد يصح أن نتخذها معياراً لاخلاق الناس في ذلك العهد . ونحن هنا لا يهمنا أن تكون القصة قد حدثت فعلاً أو لم تحدث ، يكفي فيها أن الناس كانوا يتناقلونها كثيراً وأنهم كانوا حين يتحدثون بها معجبين بما تحتوي عليه من خصال المروءة والرجولية ، وهي اذن تدل على ما كان لديهم من قيم اجتماعية .

قصة حسن كبريت :

إن قصة حسن كبريت قد تصلح أن تكون من بعض الوجوه نموذجاً للقيم الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الايام . فقد كان هذا الرجل من

٣ أشقياء الكاظمية ، عاش في أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال البريطاني ، وتدل الروايات الكثيرة التي يتناقلها الناس حوله أنه كان سفاكاً للدماء من طراز ذلك الرجل الذي يقتل القتيل ويمشي في جنازته • وتشير بعض القرائن الى أنه كان مصابا بمرض « الصادية » اذ كان يتلذذ بالقتل وسفك الدماء ، قيل إنه عندما اشترك مع « المجاهدين » في واقعة الشعيبة أثناء الحرب العالمية الاولى كان لا يكتفي بقتل جنود الأعداء بل كان يقطع رؤوسهم ويأتي بها الى رجال الدين الذين كانوا مع «المجاهدين» وكان رجال الدين يتقززون من عمله هذا ويمنعونه عنه دون جدوى •

سأله سائل[1] في أواخر عمره عن عدد ضحاياه وكيف سيواجه ربه يوم القيامة ، فكان جوابه أنه قتل من الناس عدداً كبيراً ولكن له أملاً في أن الله سيغفر له ذنوبه بشفاعة فاطمة الزهراء بنت النبي ، ثم قص قصته التي يأمل بها الشفاعة وهي أنه ذهب ذات ليلة مع رفاق له من اشقياء بغداد للسطو على بيت أحد الأغنياء هناك ، ولما أتم السرقة عاد الى الكاظمية عن طريق مقبرة الشيخ معروف ، وكانت المقبرة يومذاك بعيدة عن العمران ، فسمع من بين القبور صوت فتاة تستغيث وتتوسل بفاطمة الزهراء ، وأدرك ان رجلاً فظاً كان يريد اغتصابها وهي عذراء غير مكترث لتوسلاتها • وعند هذا قرر حسن كبريت أن يضيف الى قائمة ضحاياه واحداً « من أجل فاطمة الزهراء » ، فأسرع الى الرجل من ورائه وأغمد الخنجر في خصره فقتله فوراً وأخذ الفتاة الى أهلها سالمة •••

أرجح الظن أن حسن كبريت مات وهو واثق من أنه سينال الشفاعة المنشودة ويدخل الجنة • ولا يزال في العراق كثير من أمثاله إذ هم ينجرفون فيما اعتادوا عليه من أخلاق الجاهلية، فينهبون ويعتدون ويقتلون،

---

(١) حدثني بهذا رجل أثق به كان قد أدرك حسن كبريت في شيخوخته عندما ترك الشقاوة عن عجز •

ثم يقومون بعمل يرجون منه شفاعة أحد المقربين الى الله في زعمهم ، فيغفر الله ذنوبهم جميعاً - « ان الله غفور رحيم ! » •

لا لوم عليهم في ذلك ، إذ هم مضطرون اليه بحكم ظروفهم القاهرة • فهم من جهة قد نشأوا على أخلاق الجاهلية واعتادوا عليها فلا يستطيعون أن يحيدوا عنها ، وهم من الجهة الأخرى يخشون الله وعذاب الجحيم ، ولابد لهم اذن من وسيلة تنجيهم من هذه الورطة الكبرى • ان مبدأ الشفاعة - كما أشرنا اليه من قبل - يشبع حاجة نفسية فيهم ولولاه لشعروا بالضياع !

الفصل الأول

نشأة الدولة العثمانية وفتح العراق

تأسست الدولة العثمانية في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، الموافق للقرن السابع الهجري ، وهي لم تفتح العراق الا في عهد السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٤م ـ أي بعد مرور أكثر من قرنين على تأسيسها ـ وفي خلال هذه الفترة الطويلة كانت الدولة قد مرت بأحداث وتجارب دينية وغير دينية جعلتها ذات طابع خاص بها يميزها عن غيرها من الدول القديمة أو الحديثة • وساحاول في هذا الفصل دراسة ما جرى في تلك الفترة من بعض الجوانب التي تتصل بموضوع هذا الكتاب ، وأبدأ بدراسة تكوين الجيش الانكشاري الذي يعد من أشهر ما تميزت به الدولة العثمانية •

تكوين الجيش الانكشاري :

كانت الدولة العثمانية في أول أمرها عبارة عن قبيلة تركمانية تعيش على الساحل الشرقي لبحر مرمرة الى الجنوب من القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وقد انتهزت القبيلة ضعف الدولة البيزنطية فأخذت تشن عليها الغارات باسم الاسلام والجهاد في سبيل الله ، فكان ذلك بداية نمو الدولة العثمانية وتوسعها نحو اقطار أوربا الشرقية •

وفي عام ١٣٢٦م تولى أمر الدولة السلطان أورخان الذي تأسس الجيش الانكشاري في عهده ، ويقوم هذا الجيش على أساس اختطاف الأطفال من البلاد المسيحية المجاورة باعتبار أنها من بلاد الكفر التي يجوز نهب أي شيء منها بشراً كان أم متاعاً ، فكان العثمانيون يقومون بين كل

حين وآخر بغارات في المناطق الاوربية ويعودون في كل مرة بعدد كبير من الأطفال يسمونهم « ديوشرمه » ـ أي المقطوفين ـ فيودعونهم في مؤسسات خاصة بهم تشبه المدارس الداخلية من أجل تنشئتهم نشأة اسلامية عسكرية .

إن الطفل « المقطوف » الذي ينشأ مثل هذه النشأة تنقطع صلته بأهله وأبويه فلا يعرف من دنياه سوى الاخلاص للدين والدولة والقتال في سبيلهما ، فهو يتشبع منذ نعومة أظفاره بفكرة الجهاد ، وحين يذهب الى الحرب يؤمن في قرارة نفسه أنه سيكون إما غازياً أو شهيداً ـ أي أنه لا بد له من أن ينال في الحرب إحدى الحسنيين ـ الانتصار أو الذهاب الى الجنة[1] .

وقد صادف في بداية تأسيس الجيش الانكشاري أن جاء الى تركيا من خراسان رجل صوفي علوي النسب اسمه الحاج محمد بكتاش ولي ، فسكن في القرية التي تسمى باسمه اليوم على بعد ١٨٠ كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من أنقرة . وقد حصل هذا الرجل على سمعة عالية جداً في المناطق المجاورة وقصده الناس من أجل التبرك به . وحين علم السلطان أورخان بأمره أراد أن ينتفع من بركته ليشمل بها جيشه الجديد ، فقصده بنفسه ومعه أفراد من الجيش ، وقام الحاج بكتاش بما ينبغي في هذا الشأن حيث وضع يده على رأس أحد الجنود ، وقطع شيئاً من قبائه فجعله على رأس الجندي ، ثم قدم لهم علماً أحمر يتوسطه هلال وسيف ذي الفقار ، وأخذ يدعو الله أن يبيض وجوههم وأن تكون سيوفهم بتارة وأن يفوزوا بكل غزوة بالظفر[2] . وأطلق الحاج بكتاش على الجيش اسم «يني جرى»

---

(١) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) ـ بيروت ١٩٦٠ ـ ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) أحمد سري دده بابا (الرسالة الأحمدية في تاريخ الطريقة البكتاشية) ـ القاهرة ١٩٥٩ ـ ص١٥ .

أي الجيش الجديد ، وهو الاسم الذي صار فيما بعد علما على الجيش ثم حرّف في اللغة العربية فأصبح « الانكشاري »[1] •

ومنذ ذلك الحين صار الجيش الانكشاري مرتبطا بالطريقة البكتاشية ارتباطا وثيقا حيث اتخذ الجنود الحاج بكتاش شفيعا لهم ورمزا ، وأخذ الناس يطلقون عليهم اسم « أولاد الحاج بكتاش »[2] • ونُصب في كل كتيبة من الجيش شيخ بكتاشي يسمىّ « بابا » وهو يقيم مع الجنود لارشادهم وتعليمهم آداب الطريقة وطقوسها ، والمفروض أن يتقدم هذا الشيخ الكتيبة عند الذهاب الى الحرب شاهرا سيفه[3] • ومن هنا اعتقد الجنود ان كل نصر ينالونه على الكفار لابد أن يكون من بركة الحاج بكتاش •

ومما يلفت النظر في الطقوس البكتاشية التي تمسك بها الجيش الانكشاري أنهم يعطون أهمية كبيرة للطبخ وتقديم الطعام ، فهم مثلا يقدسون قدور الطبخ ولا يفارقونها حتى في أوقات الحرب ويدافعون عنها دفاعا مستميتا اذ هم يعتبرون ضياعها أثناء الحرب أكبر اهانة تلحق بهم ، وهم اذا أرادوا ابداء عدم الرضا من أوامر رؤسائهم قلبوا القدور أمام بيوتهم • ومن مظاهر اهتمامهم بالطبخ أن قائدهم الاعلى يسمونه « جوربجي باشي » ـ أي طباخ الحساء ـ ويسمون الضباط الذين يلونه في الرتبة « آشجي باشي » و « عشى باشي » و « سقا باشي » و « أوده باشي » • وقيل ان السبب في ذلك هو أن الانكشاريين يعتبرون أنفسهم عائشين على مائدة السلطان وفي فضل نعمته وأنهم أولاده • وفي بغداد اليوم أسرة معروفة تلقب بـ « آل الجوربجي » وهي من بقاياهم •

---

(١) محمد فريد (تاريخ الدولة العلية العثمانية) ـ القاهرة ١٩١٢ ـ ص٤٢ •

(٢) John K. Birge (The Bektashi Order of Dervishes) — Bristol 1937 — P. 74 .

(٣) أحمد سري دده بابا (المصدر السابق) ص١٥ •

العقائد البكتاشية :

يبدو أن الطريقة البكتاشية هي مزيج من التصوف والتشيع ، فهم يؤمنون بالائمة الاثنى عشر ايمانا شديدا لا يخلو من غلو ، والملاحظ أن محور التقديس لديهم هو علي بن أبي طالب فهم يعدّونه النموذج الاعلى للانسان الذي تظهر فيه الحقيقة الالهية ، وهم كذلك يؤمنون بغيبة الامام الثاني عشر ويترقبون ظهوره ، ومن أدعيتهم المعروفة دعاء « ناد علياً مظهر العجائب » وهم يدعون به في النوائب اعتقادا منهم أن علياً سينجدهم كما أنجد النبي في معركة أحد ، ففي عقيدتهم أن النبي عندما جرح في تلك المعركة قرأ الدعاء بأمر من جبرائيل فشفي[1] .

والبكتاشيون يتمسكون بمبدأ « التولّي والتبرّي » المعروف عند الشيعة ـ أي ولاية أهل البيت والبراءة من أعدائهم ـ ولكن السؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد : هل هم يعترفون بالخلفاء الثلاثة الذين تولوا الامر قبل علي أم يتبرأون منهم ؟ الواقع أن هذه ناحية غامضة في العقيدة البكتاشية ومن الصعب التثبت منها .

يرى الدكتور بيرج الذي اختص بدراسة الطريقة البكتاشية أنهم يعتبرون الخلفاء الثلاثة من أعداء أهل البيت ولهذا فهم يتبرأون منهم[2] . ولكنه يعود فيذكر قصة نقلا عن أحد كتب البكتاشية تدل على خلاف رأيه هذا ، وخلاصة القصة أن علياً أراد في حياة النبي أن يسأله عن الخلفاء من بعده ولكنه استحى من السؤال فطلب من معاوية أن يسأل النبي بدلا عنه ، ولما سأل معاوية النبي كان جوابه أن الخلفاء من بعده هم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، وحين وصل النبي الى ذكر الخليفة الرابع لم يفصح عن اسمه ، بل قال انه الذي سأل السؤال وذلك لان النبي كان يعلم بأن علياً هو صاحب

---

(1) John Birge (op. cit.) p. 132—140.

(2) Ibid, p. 159 & 270.

السؤال ، ولكن معاوية ادعى أنه الخليفة الرابع بحجة أنه هو الذي قام بالسؤال فعلاً[1] .

ان هذه القصة تدل على أن عقيدة البكتاشيين في الخلافة تقرب من عقيدة أهل السنة . وقد جاء في كتاب « الرسالة الاحمدية » الذي ألفه أحمد سري دده بابا ـ شيخ مشايخ البكتاشية في الوقت الحاضر ـ قوله : إن المريد البكتاشي يجب أن يكون من أهل السنة والجماعة[2] . وهذا يعني أن البكتاشيين يعترفون بالخلفاء الثلاثة ويقدسونهم ، ولا ندري هل قال الشيخ ذلك عن ايمان أم قاله تقية ؟!

فاصلة السلطنة :

الواقع أن الجيش الانكشاري كان له دور كبير جدا في توسع الدولة العثمانية وازدياد قوتها ، فقد صارت الدولة بفضل هذا الجيش تنتقل من نصر الى نصر في داخل القارة الاوربية . ومن الممكن القول انها كانت كلما توسعت في فتوحها توسع أمامها مجال الغارات من أجل اختطاف الاطفال المسيحيين ، وبهذا يزداد عدد جيشها الجديد الذي يؤدي بدوره الى زيادة توسع الدولة[3] . أضف الى ذلك أن انتصارات الدولة العثمانية في بلاد « الكفر » ـ حسب تعبير ذلك الزمان ـ لفتت اليها أنظار المسلمين في مختلف أقطارهم فأخذ المتطوعون منهم ينضمون اليها . ان كل فتح من فتوحاتها كان من شأنه أن يرفع مكانتها في نظر المسلمين ويقوي من تيار المتطوعين في خدمتها[4] .

لم تتوقف الفتوح العثمانية الا فترة قصيرة من الزمن ـ هي التي

(1) Ibid, P. 140.

(٢) أحمد سرى دده بابا (المصدر السابق) ـ ص ١٥ .
(٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص ١٨ .
(٤) المصدر السابق ، ص١٦ .

سماها المؤرخون العثمانيون بـ « فاصلة السلطنة » ودامت عشـــر سنوات تقريبا ـ وقد حدثت من جراء اجتياح التتر بقيادة تيمورلنك للبلاد العثمانية عام ١٤٠٢م •

كان السلطان العثماني يومئذ بايزيد الاول ، والواقع أنه كان ملكـاً قوياً وقد قاتل تيمورلنك ببسالة بيد أن الحظ خانه فانكسر في المعركة أمام تيمورلنك وأسر ، ثم مات في الاسر • وتجزأت الدولة العثمانية من جـراء ذلك الى عدة امارات صغيرة •

وبعد موت تيمورلنك وانهيار دولته استطاع أحـد أبنـــاء بايزيد أن يستعيد للدولة العثمانية تماسكها القديم ـ بعد حروب داخلية عديدة ضـد اخوته وغيرهم ـ وقد اشتهر هذا الرجل في التاريخ العثماني باسم السلطان محمد جلبي الغازي • ومما يلفت النظر أنه في عهد هذا السلطان ظهـرت حركة اجتماعية عجيبة اذ هي كانت تجمع بين التصوف وعقيدة المهـــدي والاشتراكية •

كان زعيم الحركة رجل معروف من رجال الدين اســمه بدرالدين محمود ، وقد أخذ يدعو الى الاشتراك في الاموال والى المساواة بين المسلمين والمسيحيين فتابعه خلق كثير من الفلاحين الذين كانوا يعانون من قســـوة الاقطاع • وانتشر أتباعه بقيادة الدراويش يصولون ويجولون في أنحـــاء البلاد[١] ، واستطاعوا أن يهزموا الجيش الذي وجهه عليهم السلطان وأن يقتلوا قائده مما اضطر السلطان أن يوجه اليهم جيشا أكبر بقيـادة وزيره الاول ، فحاربهم في موقع قريب من أزمير وكسرهم[٢] ••• وبذا تفرق شمل الحركة ثم نسيها الناس بعد حين •

---

(1) Carl Brockelmann (History of the Islamic Peoples) — Translated by Perlmann — Cornwall 1947 — P. 274.

(٢) محمد فريد (المصدر السابق) ص٥٣ •

فتح القسطنطينية :

كانت مدينة القسطنطينية من أكبر مدن العالم في العصور الوسطى وأجملها حتى يجوز أن يقال انها كانت باريس العصور الوسطى • وقد ظلت زهاء ألف عام عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، وحاول المسلمون في العهد الاموي فتحها عدة مرات وكذلك حاول العثمانيون دون جدوى • فهي في وضع جغرافي يصعب اقتحامه اذ تحيط بها المياه من جوانب ثلاثة تقريبا ، أما الجانب الرابع منها وهو الجانب الغربي المتصل بالبر الاوربي فكان محاطا بسور منيع •

كان السلاطين العثمانيون يولون أهمية بالغة لفتح القسطنطينية ولا سيما بعد أن توسعت فتوحهم في البر الاوربي ، فقد أصبحت القسطنطينية اذ ذاك بمثابة الاسفين يشق ما بين الجزء الشرقي والجزء الغربي من الدولة العثمانية • وعندما انتقلت عاصمة الدولة الى أدرنه الواقعة الى الغرب من القسطنطينية اشتد حرص السلاطين على فتحها ، وكان أشدهم حرصاً على ذلك هو السلطان محمد الثاني الذي تولى الحكم في عام ١٤٥١ ، وهو الذي لقب بـ « الفاتح » لانه استطاع أن يفتح القسطنطينية أخيرا •

الواقع أن ما أبداه السلطان محمد في فتح القسطنطينية من حزم وبعد نظر كان أمرا عظيما ، فقد حشد تجاه سورها الغربي ما يقارب ربع المليون من الجنود ، وحشد في المياه المحيطة بها مائة وثمانين سفينة • واستخدم رجلا مجرياً خبيرا بصنع المدافع ، فصنع له مدافع جسيمة قادرة على قذف كرات من الحجر زنة كل واحدة منها أثنا عشر قنطارا الى مسافة ميل • وقد أخذت هذه المدافع تمطر القسطنطينية بمقذوفاتها الهائلة فتحدث فيها تخريبا ورعبا •

ومن الأعمال الباهرة التي قام بها السلطان محمد آنذاك هو أنه استطاع أن ينقل سفنه من مياه البوسفور الى داخل الخليج المعروف

بـ « القرن الذهبي » عن طريق البر ، وذلك لكي يتجنب المرور بالسلاسل الضخمة التي وضعها البيزنطيون في فم الخليج ، فقد أمر بتمهيد الارض في المكان المنوي نقل السفن فيه وكان لا يقل طوله عن الخمسة أميال ، ثـم وضعت على الارض ألواح خشبية عريضة وصب عليها الشحم الكثيف ليسهل انزلاق السفن عليها • وفي ليلة واحدة أمكن نقل نحو سبعين سفينة ، ولما وصلت السفن الى مياه الخليج أخذت تمطر المدينة بوابل من قنابلها فجأة فذعر أهل المدينة ذعرا شديدا لانهم لم يكونوا يتوقعون أن تأتيهم القنابل من تلك الجهة ، وكان ذلك من العوامل الفعالة في انخذالهم وكسر معنويتهم •

وكان في الجيش العثماني عدد كبير من الدراويش والسادة ورجال الدين يبثون الحماس في أفراده • وأرسل السلطان منادياً ينادي بين الجنود: أن المدينة ستترك لهم بعد فتحها ثلاثة أيام يستبيحونها كما يشاؤون ، وأن رجالها ونساءها وأطفالها وكنوزها ستكون تحت تصرفهم في تلك الفترة • وأقسم السلطان بالله أنه سيبر بوعده هذا • وقبل أن يأمر السلطان بالهجوم على أسوار المدينة جمع القواد وخطب فيهم يذكرهم بالثواب الذي سينالونه وبالنساء الجميلات اللواتي لم تقع عين انسان على مثلهن[١] •

وفي فجر ٢٩ أيار ١٤٥٣ هجم الجيش على أسوار المدينة ، مع أصوات التهليل والتكبير يصاحبها دق الطبول ونفخ الابواق ، وأبدى الانكشاريين الذين كان عددهم يبلغ الخمسة عشر ألفا بسالة منقطعة النظير ، فقد كانوا يؤلفون قلب الجيش العثماني باعتبارهم الحرس السلطاني المكوّن من نخبة الجنود ، وقد تولوا الهجوم على السور من جهة باب القديس رومانوس ، وقد وصفهم معاصروهم من الافرنج بأنهم كانوا لا يبالون بالموت ويرمون

---

(١) محمد مصطفى صفوت (السلطان محمد الفاتح) ـ القاهرة ١٩٤٨ ـ ص ٩٨ ، ١٠١ •

بأنفسهم الى ساحة القتال كالاسود الكاسرة . وصاروا يتقدمون وهم يكبرون بأصوات مدوية حتى صعدوا على السور ثم دخلوا الى المدينة[1] .

وعم الفزع المدينة حين دخلها الجنود العثمانيون ، وانتشر القتل في كل مكان منها ، وكثر النهب واغتصاب النساء ومن الممكن القول ان البسالة التي أبداها الجنود في الهجوم انقلبت الآن الى تلذذ وحشي واستباحة مطلقة. وليس هذا بالامر الغريب فمعظم الحروب القديمة يقع فيها مثل ذلك . ان الجندي ليس ملاكاً ، بل هو بشر يريد أن ينال جزاء تضحيته في الدنيا والآخرة معاً .

من ذيول الفتح :

دخل السلطان القسطنطينية بموكب فخم من باب القديس رومانوس ولما وصل قريبا من كنيسة سانت صوفيا ترجل عن فرسه وانحنى ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعا لله وشكرا ، ثم دخل الكنيسة فاستقبله رجالها الذين كانوا خائفين ، فأمنهم وأكد حمايته لهم ، وطلب من المسيحيين الذين كانوا لاجئين في الكنيسة أن يعودوا الى بيوتهم آمنين ، وأصدر أمره الى الجنود بالكف عن النهب والاعتداء . حوّلت كنيسة أيا صوفيا الى جامع وبدّل اسم «القسطنطينية» الى « اسلامبول » ـ أي مستودع الاسلام ـ ولكن هذا الاسم لم ينتشر استعماله كثيرا ، بل راج محله اسم « الاستانة » و « اسطنبول »[2] .

وأرسل السلطان الرسائل الى ملوك المسلمين يبشرهم بفتح

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٩ ، ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٢) الاستانة لفظة فارسية تعني « العتبة المقدسة » ، اما اسطنبول فهي لفظة اغريقية كان اليونانيون يطلقونها على القسطنطينية ومعناها « الى المدينة » وسنستعمل هذا الاسم بعد الآن في هذا الكتاب لأنه الاسم الشائع في العراق كما انه الشائع في الأطالس العالمية .

القسطنطينية ، منها رسالة بعثها الى اينال شاه ملك مصر ، وهي طويلة نقتطف منها ما يلي لما فيه من دلالة اجتماعية :

« ••• ان من أحسن سنن أسلافنا أنهم مجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم • ونحن على السنة قائمون ••• فهممنا هذا العام ••• الى أداء فرض الغزاء في الاسلام ••• وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورا وكفرا والتي بقيت في وسط الممالك الاسلامية تباهي بكفرها فخرا ••• وهي قلعة عظيمة مشتهرة في ألسنة أهل الارض باسم القسطنطينية • ولا يبعد أن تكون هي التي نطق بها صحاح الاحاديث والاخبار المصطفوية ••• ومتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادي الاولى ، هجمنا مثال النجوم رجوما لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ، ببركة العدل الفاروقي ، بالضرب الحيدري لآل عثمان ••• فلما ظهرنا على هؤلاء الارجاس الانجاس الحلوس ، طهّرنا القوس من القسوس ، وأخرجنا منه الصليب والناقوس ، وصيّرنا معابد عبدة الاصنام مساجد أهل الاسلام ••• »[1] •

ذكر المؤرخ المصري ابن أياس في كتابه « بدائع الزهور » أنه عندما وصل خبز الفتح الى مصر دقت البشائر بالقلعة ونودي في القاهرة بالزينة وأرسل الملك رسولا الى ابن عثمان يهنئه بالنصر[2] •

ظهور الدولة الصفوية :

في الوقت الذي كانت فيه قوة الدولة العثمانية تتعاظم على أثر فتح القسطنطينية كانت منطقة أذربيجان الايرانية تتمخض عن حركة صوفية قدّر لها فيما بعد أن تكون خطرا جسيما على الدولة العثمانية ـ هي الحركة الصفوية •

---

(١) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص ٢٥ ـ ٢٦ •
(٢) محمد مصطفى صفوت (المصدر السابق) ص ١١٠ •

ومما يجدر ذكره أن الطريقة الصفوية لم تكن في بداية أمرهـــا تختلف كثيرا عن الطريقــة البكتاشية من حيث كونهـا مزيجا من التصوف والتشيع الاثني عشري، وكان أتباعها يعرفون باسم « القزلباش »ـ أي ذوي الرؤوس الحمر ـ وذلك لانهم كانوا يضعون على رؤوسهم قلنسوات حمراء فيها اثنتا عشر طية اشارة الى الائمة الاثنى عشر •

وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي ـ الموافق للقرن العاشـــر الهجري ـ تولى قيادة الحركة الصفوية شاب يبلغ الثالثة عشرة من عمره اسمه اسماعيل ، فاستطاع هذا الفتى خلال سنوات معدودة أن يؤسس دولة قوية في ايران وأن يوسع حدود تلك الدولة حيث ضم اليها العراق وما وراء النهر وجزءا كبيرا من قفقاسيا •

سوف نأتي الى دراسة الشاه اسماعيل وسيرته في الفصل القادم ، يكفي أن نذكر هنا أن هذا الرجل عمد الى فرض التشيع على الايرانيين بالقـــوة وجعل شعاره سب الخلفاء الثلاثة ، وكان شـــديد الحماس في ذلـــك سفاكا لا يتردد أن يأمر بذبح كل من يخالف أمره أو لا يجاريه ، قيل أن عدد قتلاه ناف على ألف ألف نفس(١) •

وفي عام ١٥٠٨ استطاع الشاه اسماعيل أن يفتح بغداد ، وتشير أكثر المصادر التاريخية الى أنه فعل بأهل بغداد مثل ما فعل بالايرانيين من قبـــل فأعلن سب الخلفاء وقتل الكثير من أهل السنة ونبش قبر أبي حنيفة • ومن المناسب أن أنقل هنا ما قاله الشيخ محمد جواد مغنية في هذا الموضوع اذ هو يمثل وجهة نظر أخرى فيه ، انه قال ما نصه :

« وأمر الشاه اسماعيل أن يؤذن بحي على خير العمل في جميع بـــلاد ايران ، ونقش على النقود اسم علي وآله ، ونشر في الاقطار المجاورة لايران

(١) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ـ ج١ ص٣١٣ (الحاشية) •

الدعاة لمذهب التشيع ، وحين دخل الى بغداد ، وذلك في ٢٥ جمادي الثانية سنة ٩١٤ ، فرح الناس بقدومه ، والتجأوا الى عدله ، وكانوا ينتظرونه بفارغ الصبر ، وأخذوا يقدمون القرابين والذبائح اكراما له ، وفي اليوم التالي بلا فاصل توجه الى كربلا ، وأدى مراسيم الزيارة ، وبات ليلته معتكفا في الحائر ، منكباً على قبر الحسين الشهيد (ع) ، وأمر بصنع الصندوق المذهب للقبر الشريف ، وعلّق بالحضرة ١٢ قنديلا من الذهب ، وفرشها بأنواع السجاد الثمين ، كما أمر بصنع صناديق أخرى للنجف الاشرف والكاظمية وسامراء بدلا من صناديقها القديمة .

« ثم سافر الى النجف الاشرف ، وتشرف بزيارة المشهد العلوي وقدم القناديل من الذهب والفضة ، والمفروشات الثمينة ، وفي هذه السنة شرع ببناء حرم الكاظمين والمسجد الكبير المعروف بمسجد الصفويين . وأمر بحفر النهر الذي كان قد حفره عطا ملك ، ثم اندثر بمرور الزمن ، فجدده الشاه اسماعيل ، ووقف ريعه على خدام المشهدين : العلوي والحسيني . هذا ، الى حبه وتعظيمه العلماء والعلويين ، وانعامه عليهم بالاموال والمناصب والاستعانة بأهل الكفاءة والمقدرة على نشر المذهب ، واعلان أسماء الائمة الاثنى عشر على المنابر وفي المحافل ، وبشتى المناسبات »[1] .

يجد القاريء في هذا مصداق ما ذكرناه في مقدمة الكتاب من أن الانسان حين ينظر الى الحقيقة انما يركز نظره على جانب واحد منها ويبالغ فيه ، من حيث يغضّ النظر عن الجوانب الاخرى ، وهو اذ يفعل ذلك يعتقد جازماً بأن الحق كله معه . وسنرى في هذا الكتاب نماذج كثيرة من ذلك ـ انها طبيعة الانسان في كل مكان وزمان !

---

(١) محمد جواد مغنية (دول الشيعة في التاريخ) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

السلطان سليم ياوز :

لم يمض على احتلال الشاه اسماعيل لبغداد سوى أربع سنوات حتى تولى عرش السلطنة العثمانية في اسطنبول رجل شديد المراس لا يقل عن الشاه اسماعيل في تعصبه المذهبي وتعطشه للدماء ـ هو السلطان سليم الذي اشتهر بلقب « ياوز » ومعناه الصارم الذي لا يعرف اللين ٠

يقول لونكريك : ان السلطان سليم كان لـه من المواهب المتناقضة ما يستدعي العجب ، كالثقافة والشراسة ، وبسالة الذكي مع جمود الغبي ، وقد أتاحت له فترة السلم التي كانت سائدة أيام نشأته أن يدرس العالم وأن يرثي للاسلام من الزندقة التي كانت تنال منه ، وأثرت مذبحة العجم للسنيين في بغداد تأثيرا أليماً في نفسه ٠٠٠[1]

مهما يكن الحال فقد أعلن السلطان سليم نفسه حاميا لأهل السنة وزعيما لهم ، واستحصل من بعض رجال الدين فتوى تجيز له قتل الشيعة باعتبارهم مارقين عن الاسلام[2] ، ثم وضع خطة للقضاء على جميع الشيعة الساكنين في داخل حدوده ٠

نظم السلطان نمطاً من الشرطة السرية وأرسل أفرادها في شتى أرجاء البلاد العثمانية ـ الآسيوية والاوربية ـ بغية احصاء عدد الشيعة فيها ، وقد تبين له أن عددهم يناهز السبعين ألفا بين رجل وامرأة وطفل ٠ وبعد أن تأكد السلطان من عددهم ومبلغ تركزهم في الاماكن المختلفة أرسل جنودا الى تلك الاماكن بنسبة عددهم ، ثم أوعز الى أولئك الجنود أن يلقي كل واحد منهم القبض على من يقربه من الشيعة في وقت معين ٠ وتم عندئذ قتل

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ترجمة جعفر خياط ـ ص١٩ ٠

(٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٤٠ ٠

أربعين ألف من الشيعة بينما أودع الباقون في السجن المؤبد(١) .

يشبّه المؤرخون هذه المذبحة بتلك التي قام بها الكاثوليك في فرنسا للانتقام من البروتستانت وهي المذبحة المعروفة باسم « سان برثلميو »(٢) . ومما يلفت النظر أن هذه المذبحة وقعت بعد مذبحة الشيعة بستين سنة تقريبا ، فهل كان هناك ترابط سببي بين المذبحتين ؟ ان هذا موضوع جدير بأن يبحث فيه .

بين السلطان والشاه :

يروي الدكتور بيرج عن أحد مشايخ البكتاشية قصة غريبة خلاصتها أن السلطان سليم العثماني والشاه اسماعيل الصفوي كانا كلاهما من أتباع الطريقة البكتاشية ، وقد حدث مرة في شبابهما أنهما كانا جالسين معاً بحضور « بالم سلطان » الشيخ البكتاشي المشهور فاتفقا فيما بينهما على أنهما حين يصلان الى الحكم يسعيان نحو توحيد المسلمين في عقيدة واحدة ــ والمفروض أنها عقيدة البكتاشية ــ فلما وصلا الى الحكم فعلاً كتب اسماعيل الى سليم يذكّره بوعده فأجابه سليم معتذراً بأن وزراءه سنيون وأنه مضطر الى التباطؤ في تحقيق وعده ، فكان هذا الاعتذار سببا لغضب اسماعيل عليه حيث وصفه بأنه كذّاب وأنه لا يلتزم بكلمته . ومن هنا اشتد العداء بينهما(٣) .

لا ندري مبلغ صحة هذه القصة ، انما هي على أي حال قد تعطينا وجهة نظر البكتاشيين في تعليل العداء بين السلطان والشاه . وتشير بعض القرائن التاريخية الى أن السلطان عندما عزم على محاربة الشاه كان مرتابا

(1) Edward S. Creasy (History of The Ottoman Turks) — Beirut 1961 — p. 131—132.

(٢) محمد فريد (المصدر السابق) ص٧٤ .

(3) John Birge (op. cit.) p. 67.

من ولاء الانكشاريين له وكان يخشى أن ينقلبوا عليه أثناء المعركة وينضموا الى صف الشاه لما بينه وبينهم من تشابه في العقيدة •

في عام ١٥١٤ وقعت معركة طاحنة بين جيوش السلطان والشاه وهي المعركة التي عرفت في التاريخ باسم « چالدران » نسبة الى الموضع الذي حدثت فيه على مقربة من تبريز • وكان النصر فيها حليف الجيش العثماني، وقد أمر السلطان بذبح جميع الاسرى ، وأن يصنع من جماجم القتلى هرم لينصب في ساحة المعركة ـ كما هيّ عادة المنتصرين في ذلك الزمان •

مما يلفت النظر أن السلطان لم يستغل النصر الذي ناله تمام الاستغلال اذ رأيناه يتوقف عن مطاردة عدوه المهزوم ويرجع الى اسطنبول • وقيل ان الانكشاريين هم الذين كانوا السبب في ذلك فقد امتنعوا عن الاستمرار في التقدم الى داخل ايران بحجة اشتداد البرد وقلة الملابس والمؤون اللازمة لهـــم •

مهما يكن الحال فان السلطان عندما وصـــل الى اسطنبول أمر بقتل عدد كبير من الضباط الانكشاريين الذين كـانوا السبب في توقف الزحف نحو ايران ، وأمر كذلك بقتـــل جعفر جلبي ـ قاضي العســكر البكتاشي ـ الذي كان من أكبر الداعين الى التوقف • ثم استن الســلطان للجيشـ الانكشاري سنة جديدة هي تعيين قائدهم من غيرهم وبأمر منه وذلك لكي يضمن السيطرة عليهم فلا يعودون يعصون أمره في المستقبل[1] •

فتح مصـر :

يبدو أن هناك سببا آخر علاوة على الذي ذكرناه هو أن السلطان سليم خشي أن يتوغل بجيوشه في ايران فينتهز الفرصة المملوك قانصو الغوري ـ ملك مصر والشام ـ ويهاجمه من الخلف • ومما يجدر ذكره في هـذا

(١) محمد فريد (المصدر السابق) ص٧٤ ـ ٧٥ •

الصدد ان الشاه كان على صلة وثيقة بالغوري وقد عقد معه معاهدة مما جعل الغوري يقطع علاقاته الدبلوماسية مع السلطان سليم[1] ، ولهذا نجد السلطان يعد العدة لحرب الغوري على اثر انتهائه من حرب الشاه .

وفي ٢٤ آب ١٥١٦ تقابل الجيشان ـ العثماني والمملوكي ـ لاول مرة في واد قرب حلب يسمى « مرج دابق » ولم تدم المعركة بينهما سوى ساعات قليلة ـ من شروق الشمس حتى العصر ـ وكان النصر فيها حليف الجيش العثماني ، وكان أهم سبب في انتصاره قوة مدافعه وهو نفس السبب الذي ساعد الجيش العثماني على الانتصار في معركة چالدران وغيرها من المعارك السابقة[2] .

كان النصر في مرج دابق حاسما ، وقد قُتل قانصو الغوري في ساحة المعركة ، ولم يجد السلطان سليم في تقدمه بعدئذ مقاومة ذات أهمية فأتم فتح البلاد الشامية كلها خلال أسابيع معدودة . ثم توجه نحو مصر فعبر صحراء سيناء ، وصادف أن هطلت على الصحراء حينذاك أمطار غزيرة سهلت على جيشه اجتيازها . وفي ١٣ نيسان ١٥١٧ تم له فتح القاهرة بعد معركة طاحنة في شوارع المدينة . وقد أبدى المماليك في تلك المعركة مقاومة ضارية اذ كانوا يقاتلون من شارع الى شارع ، ومن دار الى دار ، حتى قتل منهم ومن سكان القاهرة آنذاك ما يبلغ خمسين ألفاً . ووقع طومان باي رئيس المماليك في أيدي العثمانيين فأمر السلطان سليم بشنقه بباب زويله[3] .

---

(١) زين نور الدين زين (نشوء القومية العربية) بيروت ١٩٦٨ ـ ص ١٩ .

(٢) كانت المدافع يومذاك من الأسلحة الحديثة ، وقد أدرك سلاطين آل عثمان أهميتها في الحروب فحرصوا على استجلاب الخبراء من أوربا لصنعها وتحسينها ، والظاهر أنهم تفوقوا في ذلك على الدول الأوربية إذ كان خبراء المدافع الأوربيين يجدون من التقدير والمكافأة في الدولة العثمانية اكثر مما يجدونه في دولهم .

(٣) محمد فريد (المصدر السابق) ص٧٦ .

انتقال الخلافة الى العثمانيين :

كان في القاهرة حينئذ رجل من سلالة الاسرة العباسية هو محمد المتوكل على الله ، وقد ذكر المؤرخون أن هذا الرجل تنازل للسلطان سليم عن حقه في الخلافة الاسلامية وسلّمه المخلفات النبوية المقدسة وهي البيرق والسيف والبردة ، وسلمه كذلك مفاتيح الحرمين الشريفين • ومنذ ذلك الحين صار كل سلطان عثماني يلقب بـ « أمير المؤمنين » و « خليفة رسول رب العالمين » •

كان انتقال الخلافة الى العثمانيين موضع خلاف وجدل بين الفقهاء ، وقد اعترض بعضهم على هذا الانتقال استنادا على ما ورد عن النبي من أنه قال : « الائمة من قريش » • والشائع أن السبب الذي جعل الدولة العثمانية شديدة التمسك بالمذهب الحنفي هو أن أبا حنيفة كان لا يأخذ بهذا الحديث ويرى من الجائز أن تكون الخلافة في غير قريش •

وفي الآونة الاخيرة جاء ساطع الحصري برأي حاول فيه نفي أمر انتقال الخلافة الى العثمانيين من أساسه على الرغم من اجماع المؤرخين عليه • فهو يقول : ان الابحاث التاريخية لا تؤيد وقوع ذلك على الرغم من تواتر الاقوال فيه ، وأن تلك الابحاث لا تترك مجالا للشك في أنه اسطورة تكونت بعد فتح مصر وبعد وفاة السلطان سليم بمدة غير يسيرة • ويأتي الحصري بالقرائن التاريخية التي تؤيده في رأيه ، ثم يقول ما نصه : « كل شيء يدل على أن سلاطين آل عثمان لم يعيروا ــ في بادىء الامر ــ أمر الخلافة أي اهتمام • وعندما اهتموا بها فيما بعد ــ وأرادوا أن يستفيدوا منها ــ بصورة تدريجية ، اختلق ساستهم ومؤرخوهم اسطورة التنازل والانتقال »[1] •

(١) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٤٢ــ٤٥ •

الواقع على أي حال أن العثمانيين استفادوا من فكرة الخلافة ـ كما يقول الحصري ـ فائدة كبيرة ، ذلك أن اعتقاد المسلمين بتلك الفكرة قوّى نفوذ الدولة العثمانية وسهّل حكمها تسهيلا عظيما . وسوف نرى في هذا الجزء من الكتاب وفي الاجزاء التالية له مبلغ تأثير تلك الفكرة في المجتمع العراقي ولاسيما في عهد السلطان عبدالحميد .

السلطان سليمان القانوني :

في عام ١٥٢٠ توفى السلطان سليم بمرض السرطان ولم يكن قد تجاوز الحادية والخمسين من عمره ، فتولى العرش مكانه ابنه سليمان . وكان هذا على النقيض من أبيه رحيماً يحب العدل ، ودام حكمه ستة واربعين سنة ، ووصلت الدولة في عهده الى أوج اتساعها ومجدها . وقد أطلق الأوربيون عليه لقب « العظيم » كما أطلق عليه الاتراك لقب « القانوني » و « سيد عصره » .

الملاحظ ان السلطان سليمان عاش في عصر كثر فيه مشاهير الملوك في الشرق والغرب من أمثال أكبر شاه في الهند ، واسماعيل شاه في ايران ، وايفان الرهيب في روسيا ، وهنري الثامن في بريطانيا ، والبابا ليو العاشر في روما ، والامبراطور شارلكان في اسبانيا والمانيا . ويقول المؤرخ كريسي تعليقاً على ذلك : لم يحصل أي واحد من هؤلاء الملوك العظام على مجد يناهز مجد السلطان سليمان[1] .

الواقع أن الجيوش العثمانية كانت في عهد السلطان سليمان ذات مزايا عالية من حيث كثرة عددها وكفاءة مدفعيتها وبراعة المهندسين العسكريين فيها ، وكانت العناية براحة الجنود ونظافتهم كبيرة حتى أن مجموعات من السقائين كانوا يتجولون بين الجنود أثناء السير لسقاية المرضى

(1) Edward Creasy (op. cit.) P. 158—159.

والمنهوكين • أضف الى ذلك أن الجنود كانت لهم ثقة لا حد لها بالسلطان سليمان وكانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً أنه مؤيد من الله وأنه مذكـور في القرآن ولابد أن يقودهم نحو النصر ، وكانوا يطلقون عليه لقب « متمـم العدد التام » ويقصدون بالعدد التام رقم عشرة وذلك لان حكم السـلطان سليمان اقترن بامور عديدة فيها هذا الرقم ، فهو عاشر سلاطين آل عثمان وقد اعتلى العرش في مستهل القرن العاشر الهجري وغير ذلك ، وهذا في نظرهم يحتوي على اليمن وحسن الفال[١] •

أخذ السلطان سليمان ينتقل من نصر الى نصـر دون أن يقف في وجهه شيء • وقد بدأت انتصاراته في السنة الثانية من حكمه عندمـا فتح بلغراد وقلعتها الحصينة ، وبذا انفتح امامه الطريق نحو أوربا الوسـطى فيما وراء نهر الدانوب • وفي ١٥٢٦ نال النصر الحاسم في معركة موهاج واحتل بودابست ، ثم تقدم نحو مدينة فينا العظيمة فضرب الحصار حولها في ١٥٢٩ وسلّط عليها مدافعه الضخمة ، لـكنه تراجع عنها عنـد حلول البرد وسقوط الثلوج •

الفزع في أوربا :

في ١٦ نيسان ١٥٢٣ بعث الامبراطور شارلكان الى سفيره في بريطانيا يقول له : « ••• وعليك أن توضح للملك وللكاردينال مبلغ الخطر الذي يتعرض له العالم المسيحي ••• ونكاد نعتقد أن الاتراك سينوون مهاجمـة العالم المسيحي هذه السنة ، وستكون أرض المعركـة أما في ايطاليـا أو هنغاريا أو في البلدين معاً وفي الوقت ذاته ••• ولكن أينما هاجم الاتراك في العالم المسيحي فان ذلك من شأنه أن يعرض كرامتنا ، بصفتنا امبراطوراً وحامياً للكنيسة ، الى الامتهان ، كما أنـه يعرض كرامـة أخينا حامـي الايمان ، اذا نحن تغاضينا عن مثل هذا التعدي في حياتنا • واذا سـمحنا

(1) Ibid, p. 160—161 & 202.

للعدو بأن يقوم بمثل هذا العمل العدائي فانه سيكون بمثابة وصمة عـار تلحق بنا الى الأبد ، هذا فضلا عما سنتعرض اليه من بؤس وشقاء »[1] .

تدل هذه الرسالة على مبلغ الفزع الذي انتاب أوربا من جراء التوسع العثماني ، وتشير بعض القرائن الى أن الأوربيين أخذوا ينظرون الى الدولة الصفوية في ايران كوسيلة لتحويل الخطر عنهم ، فقد كتب السفير النمساوي في اسطنبول يومذاك يقـــول : « ان الايرانيين وحدهم يقفون بيننا وبين الدمار »[2] . ويقول المؤرخ هارولد لامب : إن الرســـل الموفدين من البندقية ذهبوا الى الشاه في ايران ليحثوه على حرب الدولة العثمانية إذ أن هذه الحرب اذا ما أمكن اشعالها ستخفف الضغط عن مدينة فينا وعن البحر الابيض المتوسط[3] .

فتح بغداد :

كان السلطان سليمان منذ توليه الحكم يواجه ضغطاً من قبل حاشيته ومستشاريه يحثونه على « انقاذ » بغداد من أيدي الايرانيين وعلى اعـادة تعمير مرقد « الامام الاعظم » ابي حنيفة ، وكان الشعراء يستثيرون نخوته في هذا السبيل ، و « الاغوات » يذكرونه دائما بوجوب اكتساح الايرانيين « المارقين » بالنار والسيف على طريقة أبيه السلطان سليم[4] .

في عام ١٥٢٤ توفي الشاه اسماعيل فخلفه على العرش ابنـه الأكبر طهماسب الذي لم يكن عمره آنذاك يزيد على العشر سنوات ، وقد أرسل

---

(١) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ص ١٤ ـ ١٥ .

(2) Edward Browne (A Literary History of Persia) — Cambridge 1953 — vol 4, p. 93—94.

(٣) هارولد لامب (سليمان القانوني) ـ بغداد ١٩٦١ ـ ترجمـة شكري محمود نديم ـ ص ٢٣٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

السلطان سليمان يهنيء الشاه الجديد ولكنه استعمل عبارات الوعيد في أخريات رسائله . وفي السنة التالية ذعر البلاط الايراني عند سماعه بالاستعدادات العسكرية الواسعة النطاق التي كانت تجرى في اسطنبول ، فاتصل بملك هنغاريا ليعاونه على العدو المشترك ، ولما سمع السلطان سليمان بذلك أمر باعدام الأسرى الايرانيين الذين كانوا معتقلين في غاليبولي[١] .

وأخيراً في سنة ١٥٣٤ تحرك السلطان سليمان بجيشه نحو تبريز ثم انحدر منها نحو الجنوب في المناطق الغربية من ايران ، وكانت الجيوش الايرانية تنسحب من أمامه مرحلة بعد أخرى ، حتى وصل الى همدان ومنها اتجه غرباً نحو بغداد . والواقع ان هذا الزحف الطويل لم يكن موفقاً كل التوفيق ، فقد عانى الجيش العثماني فيه من شدة البرد وكثرة الامطار والوحول أمراً عظيماً ، وفقد الكثير من مدافعه وحيواناته ، ولم يصل الى مقربة من بغداد الا وهو في أشد حالات الوهن .

يبدو أن وصول السلطان سليمان على رأس جيشه – ومعه المدافع – الى مقربة من بغداد بعث الرهبة في قلوب الحامية الايرانية ، فقد كانت تلك أول مرة يسمع أهل بغداد فيها عن المدافع ، وربما انتشرت المبالغات بينهم عن هذا الاختراع العجيب وما يمكن أن يأتي به من أفاعيل في التدمير . وعلى أي حال فقد دخل السلطان بغداد فاتحاً دون مقاومة ، وكانت الحامية الايرانية قد انسحبت منها قبل ذلك .

كان دخول السلطان الى بغداد في اليوم الاخير من عام ١٥٣٤ ، والمعروف عنه أنه لم يسمح بالنهب أو ايذاء أحد من السكان . وقد تقدم اذ ذاك الشاعر المشهور فضولي البغدادي فألقى بين يدي السلطان قصيدة في مدحه كان مطلعها :

---

(١) لونكريك (المصدر السابق) ص٢١ .

أيّد اللهم في الآفاق أمن المسلمين   بادوام دولت باينده سلطان دين[1]

وكانت أبيات القصيدة كلها من هذا الطراز حيث يكون الشطر الاول منها باللغة العربية والثاني بالفارسية • ومما يجدر ذكره أن كلاً من الممدوح والمادح كان من أتباع الطريقة البكتاشية •

وبعد أن استراح السلطان في بغداد أربعة أيام ذهب لزيارة الائمة في الكاظمية وكربلا والنجف ، ويحكى أنه حين صار على بعد أربعة فراسخ من النجف ، ولمح قبة القبر المقدس فيها ، ترجل عن فرسه وأخذ يمشي على قدميه قائلا ان أعضاءه اهتزت لمرأى القبة • وتُروى عنه أبيات من الشعر في تمجيد الامام نطق بها وهو يمشي نحو النجف •

وقد أمر السلطان باتمام البناية التي بدأ بتشييدها الشاه اسماعيل في الكاظمية على قبر الامامين موسى والجواد ، وكذلك أمر بدفع مرتبات لخدم القبر من خزانة بغداد[2] • ثم أشرف على تعميق مجرى نهر الحسينية وتوسيعه بحيث صارت مياه الفرات تصل الى كربلا بانتظام ، وقد عدّ الناس ذلك كرامة للامام الحسين تمت على يد السلطان[3] •

قصة قبر أبي حنيفة :

عند عودة السلطان سليمان من زيارة كربلا والنجف زار قبر الامام أبي حنيفة ، وكان الايرانيون قد هدموه ونبشوه كما أشرنا اليه من قبل ، فأمر بتشييد قبة وجامع عليه • والظاهر أنه لم يكن حول القبر سكان آنذاك فأمر السلطان بتعمير دار ضيافة وحمام وخان ونحو أربعين أو

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٤٩ ـ ج٤ ص ٢٩ •

(٢) المصدر السابق ، ج٤ ص ٢٩ ، ٣٤ •

(٣) لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٥ •

خمسين دكاناً ، ثم أمر بتعمير قلعة لحراستها ووضع فيها جنوداً يبلغ عددهم مائة وخمسين ومعهم المعدات الحربية والمدافع .

وفي تلك الآونة شاعت حول القبر قصة اعتبرت كرامة لأبي حنيفة ، خلاصتها أن أبا حنيفة ـ قبل أن ينبش الايرانيون قبره ـ ظهر في المنام للسادن وقال له : « ضع الصندوق الذي على قبري على الضريح الذي هو في المحل الفلاني لان هناك كافراً مستحقاً للعقاب » ، فاستيقظ السادن وفعل ما أمر به أبو حنيفة دون أن يعرف السبب فيه . ولم يمض على ذلك مدة طويلة حتى استولى الايرانيون على بغداد ، وحينذاك كسروا الصندوق وفتحوا القبر فوجدوا فيه جسداً ملوثاً حسبوه جسد أبي حنيفة فألقوه في النار . ولما استعاد السلطان سليمان بغداد ظهر أبو حنيفة في المنام لأحد عرفاء الجيش يخبره بمكان القبر الحقيقي ، وعندما حفروا فيه وجدوا صخرة كبيرة تفوح من تحتها رائحة طيبة انعشت الحاضرين ، فترك السلطان الصخرة في موضعها وأهال عليها التراب وأمر بتشييد القبة فوقها[١] . وقد اعتقد الجيش أن في ذلك علامة تدل على أن السلطان موجه من الله[٢] .

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٤ ص٣٠ ـ ٣١ .
(٢) هارولد لامب (المصدر السابق) ص ٢٤٠ .

الفصل الثاني

الدولـــة الصفوية والتشيع

كان لظهور الدولة الصفوية في ايران تأثير كبير جداً من النواحـــي السياسية والاجتماعية والدينية ، ولم يقتصر أثرها على ايران وحدهـا بل تعداها الى العراق وتركيا وافغانستان والهند • والواقع أننا لا نستطيع أن نفهم تاريخ العراق وطبيعة مجتمعه فهماً عميقاً ما لم ندرس الدولة الصفوية على شيء من الاسهاب • وسأحاول في هذا الفصل دراسة جانب من الدولة الصفوية أعتبره ذا صلة وثيقة بالمجتمع العراقي هو الجانب المذهبي • ومما يؤسف له أن هذا الجانب لم يلق عناية كافية من الباحثين على الرغم من أهميته التاريخية والاجتماعية •

مؤسس الدولة :

مؤسس الدولة الصفوية هو الشاه اسماعيل ـ كما أشـــرنا اليه في الفصل الماضي ـ وهو الذي فرض التشيع الاثنا عشـري على الايرانيين قسراً وجعـله المذهب الرسمي للحكومـة الايرانيـة • ويعطينا الاسـتاذ برون وصفاً رائعاً لشخصية هذا الرجل نقلاً عن بعض الرحالة والتجار الأوربيين الذين شاهدوه ، فهو كان كما يبدو من أقوال هؤلاء يجمـــع النقائض إذ هو من جهة كان قاسياً متعطشاً للدماء الى حد يكاد لا يصدق بينما كان من الجهة الأخرى وسيماً ، ذا أخلاق رقيقة ، محبوباً من قبل جنوده الى درجة العبادة حتى أنهم كانوا يرمون بأنفسهم الى ساحة الحرب

من غير دروع مؤمنين بأنه يحميهم من الخطر عند القتال[1] •

يخيل لي أن الشاه اسماعيل كان من اولئك الرجال الـذين يملكون مواهب نادرة ـ سلبية وايجابية معاً ـ وهم مؤمنون أن القـدر هيأهم للقيام بمهمة ما • والظاهر أنه حين قام بفرض التشيع على الايرانيين كان واثقاً بأنه مكلف بذلك من قبل قوة روحية عليا • انـه على أي حال كان معتقداً بأن هاتفاً غيبياً يدفعه ويرشده في أعماله • ولا ننسى أنه كان رجلاً صوفياً ومن شأن المتصوفة بوجه عام أنهم يؤمنون بـ « الكشـف » ـ أي الالهام الغيبي ـ والمعروف عنه أنه كان يعلن لمريديه أنه لا يتحـرك الا بمقتضى أوامر الأئمة الاثنى عشر وأنه لذلك معصوم وليس بينه وبين المهدي فاصل[2] • ولعلني لا أعدو الصواب اذا قلت ان جميـع الامـور المستحدثة التي أدخلها اسماعيل في التشيع الايراني قد انبعثت من هـذه النزعة الصوفية فيه اذ لم يكن في مقدور أحد أن يفرض مثل تلك الامور على الناس دفعة واحدة دون أن يستند فيها على « الكشف » ودعوى الالهام الروحـي •

يروى عنه أنه عندما فتح تبريز في بداية أمره وأراد فرض التشيع على أهلها بالقوة نصحه بعض مستشاريه من رجال الدين أن لا يفعل ذلك بحجة أن ثلثي سكان المدينة من أهل السنة ، وأنهم لا يصبرون على سب الخلفاء الثلاثة من على المنابر ، ولكنه أجابهم قائلاً : « أنا مكلّف بـذلك وأن الله والائمة المعصومين معي ، وأني لا أخاف أحداً ، فاذا وجدت من الناس كلمة اعتراض شهرت سيفي بعون الله فيهم فلا أبقي منهم أحـداً

---

(1) Edward Browne (A Literary History of Persia) — Cambridge 1953 — vol. 4, p. 22—23.

(٢) كامل مصطفى الشيبي (الفكر الشـيعي والنزعات الصـوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري) ـ بغداد ١٩٦٦ ـ ص ٤١٣ •

حيـــاً »[1] •

يمكن القول على أي حال ان الشاه اسماعيل أسـاء الى التشيع من حيث أراد نفعه ، أو لعله أساء الى التشيع ونفعه في آن واحد • فهو من ناحية قد زاد من تعداد الشيعة اذ أدخل فيهم الكثير من الايرانيين ، ولكنه من الناحية الأخرى أدخل في التشيع أموراً أضرت به وشوهت سمعته ، أضف الى ذلك أنه جعل التشيع مذهباً حكومياً وبذا أضعف فيه نزعتـــه الشعبية القديمة •

وسائل نشر المذهب :

اتخذ الشاه اسماعيل سب الخلفاء الثلاثة وسيلة لامتحان الايرانيين ، فمن يسمع السب منهم يجب عليه أن يهتف قائلاً « بيش باد ، كم ما باد »، وهذه العبارة تعني في اللغة الآذربيجانية أن السامع يوافق على الســـب ويطلب المزيد منه ، أما اذا امتنع السامع عن النطق بهـذه العبارة قُطعت رقبته حالاً • وقد أمر الشاه بأن يعلن السب في الشوارع والأسواق وعلى المنابر منذراً المعاندين بقطع رقابهم •

تروى في هذا الصدد قصة طريفة تشبه من بعض الوجوه قصة غاليلو الذي سيق للمحاكمة في ايطاليا لأنه قال بدوران الارض حـول الشمس ولم ينج من العقوبة الا بانكاره هذا القول ، فقد فعل مثل هذا أحد علماء السنة المعروفين هو شمس الدين الخفري اذ كان في شـيراز عند مجيء الشاه اسماعيل اليها ، وحين تقدم بين يدي الشاه من أجل امتحانه في سب الخلفاء الثلاثة انبرى يلعنهم لعناً شنيعاً فنجا بذلك من الذبح ، ولما خرج من عند الشاه عاتبه أصحابه وقالوا له : « كيف ارتددت عن دينك ولعنت ائمتك الثلاثة ؟! » فأجابهم : « ••• لأجل هؤلاء الأعـراب الثلاثة •••

(1) Edward Browne (op. cit.) vol 4, p. 53—54.

أقتل أنا مع ما أنا عليه من الفضل والكمال ؟! »[١] .

ولم يكتف الشاه اسماعيل بالارهاب وحده في سبيل نشر التشيع بل عمد كذلك الى اتخاذ وسيلة أخرى هي وسيلة الدعاية والاقناع النفسي ، فقد أمر بتنظيم الاحتفال بذكرى مقتل الحسين على النحو الذي يُتبع الان[٢] . وهذا الاحتفال كان قد بدأ به البويهيون في بغداد في القرن الرابع الهجري ، ولكنه أهمل وتضاءل شأنه من بعدهم . ثم جاء الشاه اسماعيل أخيراً فطوّره وأضاف اليه « مجالس التعزية »[٣] بحيث جعله قوي الأثر في القلوب . وقد يصح القول انه كان من أهم العوامل في نشر التشيع في ايران لان ما فيه من مظاهر الحزن والبكاء وما يصاحبه من كثرة الاعلام ودق الطبول وغيرهما يؤدي الى تغلغل العقيدة في أعماق النفس والضرب على أوتارها الكامنة[٤] .

وأمر الشاه اسماعيل كذلك بادخال « الشهادة الثالثة » في الاذان أي عبارة « أشهد أن علياً ولي الله » - وكانت هذه الشهادة قد أدخلها بعض الغلاة في الاذان منذ القرن الثالث الهجري غير أن الشيعة المعتدلين استنكروا ذلك في حينه ولم يقبلوا به ، أما اسماعيل فقد فرض الشهادة الثالثة فرضاً ولم يكترث بأحد ، ولا تزال هذه الشهادة موضع أخذ ورد عند الشيعة حتى الآن ...

---

(١) كامل مصطفى الشيبي (التقية) - مجلة الايمان في عدديها الخامس والسادس من السنة الثانية - ١٩٦٥ - ص ٦٠ .

(٢) كامل مصطفى الشيبي (الفكر الشيعي) ص ٤١٥ .

(٣) المظنون أن تمثيل مأساة كربلا ، وهو المعروف الآن باسم « الشبيه » ، لم ينشأ في العهد الصفوي ، بل هو نشأ بعدئذٍ في العهد القاجاري .

(٤) انظر حول هذا الموضوع فيما يخص العراق كتاب « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » للمؤلف - بغداد ١٩٦٥ - الفصل التاسع .

الشيخ علي الكركي :

توفي الشاه اسماعيل في عام ١٥٢٤ ولم يكن قد تجاوز الثامنة والثلاثين من عمره ، فخلفه على العرش ابنه الشاه طهماسب وكان هذا يختلف في تكوين شخصيته عن أبيه اختلافاً واضحاً . فهو قد ورث الملك وحصل عليه جاهزا ، أما أبوه فكان مؤسس الملك وقائد الجيوش وكان بالاضافة الى ذلك واثقاً من أنه رئيس الدين والدولة معاً فلا يحتاج الى من يرشده في دينه أو دنياه .

لم يكد طهماسب يتولى الحكم حتى أدرك أنه لا يستطيع أن يكون مثل أبيه رئيساً للدين والدولة في آن واحد . يقول الدكتور كامل الشيبي : ان الشاه طهماسب رأى أن الحكمة تقضي أن يترك أمر بث التشيع بيد الاخصائيين من الفقهاء ، فاستدعى اليه الشيخ علي بن عبدالعالى الكركي لينهض بأعباء هذه المهمة[١] .

ينتسب الشيخ علي الكركي الى قرية « كرك نوح » من قرى بعلبك ، وكان عند استدعاء الشاه له يسكن النجف ، ولما وصل الى ايران استقبله الشاه استقبالاً منقطع النظير ثم أصدر « فرماناً » الى جميع انحاء المملكة ذكر فيه أن الشيخ علي هو صاحب الدولة الحقيقي باعتباره نائب الامام الغائب « صاحب الزمان » وأن على الجميع امتثال أوامره ، « فمعزول الشيخ لا يستخدم ومنصوبه لا يعزل » . ورتب الشاه له مرتبات ضخمة ومنحه قرى زراعية ليأخذ خراجها .

أصبح الشيخ علي الكركي هو الحاكم الفعلي في عهد الشاه طهماسب – فيما يخص الشؤون الدينية على الاقل – وقد وصفه أحد المؤرخين الايرانيين قائلاً : « ولم يسع أحد بعد الخواجه نصير الدين الطوسي مثل ما سعى الشيخ علي الكركي ، في اعلاء أعلام المذهب الجعفري ،

(١) كامل مصطفى الشيبي (المصدر السابق) ص ٤١٦ .

وترويج دين الحق الاثني عشري ، وكان له في منع الفجرة والفسقة وزجرهم ، وقلع قوانين المبتدعة بأسرهم ، وفي ازالة الفجور والمنكرات ، واراقة الخمور والمسكرات ، واجراء الحدود والتعزيرات ، واقامة الفرائض والواجبات ، والمحافظة على أوقات الجمعة والجماعات ، وبيان مسائل الصلوات والعبادات ، وتعاهد أحوال الائمة والمؤذنين ، ودفع شرور الظللين والمفسدين ، وزجر المرتكبين للفسوق والعصيان ، وردع المتبعين لخطوات الشيطان ، مساع بليغة ومراقبة شديدة . وكان يرغب عامة الناس في تعلم شرائع الدين ومراسم الاسلام ، ويحثهم على ذلك بطريق الالتزام ... » . وكان الشيخ علي لا يركب الا ويمشي رجل في ركابه يجاهر بشعار التشيع ، وقد أصدر الى أنحاء ايران أوامر تتضمن قوانين العدل وكيفية سلوك الولاة مع الرعية في أخذ الخراج وكميته ومقدار مدته . وأمر أن يقرر في كل بلد وقرية امام يصلي بالناس ويعلمهم شرائع الدين ...[1]

النزاع بين الكركي والقطيفي :

ان هذا المسلك الذي سلكه الشيخ علي الكركي في دخوله في خدمة الدولة الصفوية ، وتوليه المنصب الكبير فيها ، أثار عليه نقمة الكثيرين من علماء الشيعة المعاصرين . فهؤلاء كانوا يعتقدون على طريقة أسلافهم القدامى أن أية حكومة لا يتولاها الامام هي ظالمة يحرم الدخول في خدمتها وأن الخراج الذي تجبيه تلك الحكومة من الناس يعتبر غصباً لا يجوز للفقيه أن يأخذ منه شيئاً استناداً على ما جاء في القرآن : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » .

---

(١) محسن الأمين (أعيان الشيعة) - بيروت ١٩٥٨ - ج٤١ ص ١٧٦ - ١٧٨ .

وكان على رأس المعارضين للكركي فقيه يوازيه في العلم والمكانة هو الشيخ ابراهيم القطيفي ، وكان من سكنة النجف أيضاً . وقد بدأ النزاع بينهما منذ وصول رسول الشاه الى النجف لاستدعاء الشيخ الكركي، اذ كان مع الرسول هدية لكل منهما فقبل الكركي هدية الشاه بينما رفضها القطيفي . وقد انتقد الكركي عمل زميله في رفض الهدية قائلاً له « أخطأت في ردها ، وارتكبت إما حراماً أو مكروهاً بتركك التأسّي بالامام الحسن السبط في قبوله جوائز معاوية مع أنك لست أعلى مرتبة من الامام ولا السلطان اسوأ حالاً من معاوية »[1] .

وقد اشتد النزاع بين الرجلين بعد قبول الكركي دعوة الشاه ودخوله في خدمة الدولة ، ومما زاد في حدة النزاع أن الكركي وافق على جميع الأمور التي استحدثتها الدولة الصفوية وكتب فيها الرسائل المؤيدة ، فرد عليه القطيفي برسائل مضادة .

أهم الرسائل التي كتبها الشيخ علي الكركي هي تلك الرسالة التي تدور حول موضوع الخراج وكان عنوانها : « قاطعة اللجاج في حل الخراج » ، وقد رد عليها القطيفي برسالة عنوانها : « السراج الوهاج لدفع عجاج قاطعة اللجاج » . وجاء في مقدمة رسالة القطيفي خمس نقاط : الاولى في حرمة كتمان العلم والفقه ، والثانية في ذم اتباع السلطان من العلماء ، والثالثة في مدح من أعان طالب العلم وذم من آذاه ، والرابعة في مدح العالم العامل وذم التارك للعمل ، والخامسة في الحيل الشرعية . والظاهر أن هذه النقاط الخمسة كلها موجهة نحو انتقاد الكركي وما ينسب اليه من أعمال في خدمة الدولة . وقد أخذ القطيفي في رسالته يشجب الخراج ويعدّه ظلماً وغصباً ، وأشار الى أن الشاه كان قد طلب منه مثلما طلب من

---

(١) محسن الامين (المصدر السابق) دمشق ١٩٣٦ — ج٥ ص٢٠٣

الكركي في العمل على ترويج الدين واظهار فضل التشيع ولكنه رفض ذلك لأن من رأيه أنه اذا أخذ الحرام وترك أمر الدين فكيف يكون أهلاً لترويج الدين[1] .

يبدو أن الشيخ علي الكركي أفرط في تأييد مستحدثات الدولة الصفوية بحيث وافق على أمور لا يجوز في الشرع الموافقة عليها ـ كلها أو بعضها ـ ولعل هذا هو الذي جعل الخصوم يطلقون على الكركي لقب « مخترع الشيعة » . وكانت من جملة رسائله رسالة في تجويز السب عنوانها « نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت » ، وأخرى في تجويز السجود للعبد ، وثالثة في تجويز السجود على التربة الحسينية[2] . وقد كتب الكركي رسائل في مواضيع أخرى ، فكتب القطيفي في كل واحد من تلك المواضيع يرد عليه . ومما يلفت النظر أن الكركي كتب رسالة في وجوب صلاة الجمعة مع العلم أن الشيعة كانوا قد أبطلوها منذ زمن بعيد حيث اشترطوا لها وجود السلطان العادل[3] ، والمظنون أن الكركي انما افتى بوجوبها لاعتقاده بتوافر العدالة في حكومة الشاه .

ان هذا الجدال الشديد الذي نشب بين الكركي والقطيفي أدى الى انقسام علماء الشيعة في حينه الى فريقين متنازعين ، ولكن هذا الانقسام لم يدم طويلاً حيث انتهى أخيراً بانتصار الكركي واتباعه . وليس من الصعب اكتشاف السبب الذي أدى الى هذا الانتصار اذ هو متوقع ومنسجم مع طبيعة الحياة الاجتماعية ، فالدولة بما لديها من أموال ومناصب مغرية قادرة أن تقوى جانب العلماء الذين يؤيدونها وتضعف جانب الذين يعارضونها . وقد رأينا الدول القديمة ـ على مختلف عقائدها ومنازعها ـ تفعل مثل ما فعلته الدولة الصفوية وتنجح فيه نجاحاً لا يستهان به .

---

(١) المصدر السابق ، ج٤١ ص١٨٦ .
(٢) كامل مصطفى (المصدر السابق) ص ٤١٤ ـ ٤١٦ .
(٣) محسن الأمين (المصدر السابق) ج٥ ص٢٠٣ .

الهجرة من جبل عامل :

في الوقت الذي ظهرت الدولة الصفوية في ايران كان جبل عامل يزخر بنهضة علمية نادرة المثال ، وكان فيه على ضيق رقعته وفقره عدد من المجتهدين يزيد على ما كان في أية منطقة شيعية أخرى[1] . وكانت هذه النهضة قد بدأت منذ القرن الرابع عشـــر الميلادي – أي القرن الثامن الهجري – وأخذت تنمو بمرور الايام[2] .

من الممكن القول إن دخول جبل عامل في حوزة الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم ياوز قد أدى الى وقوع شيء من الاضطهاد – قليل أو كثير – على الشيعة فيه ، وقد جرى ذلك في نفس الوقت الذي كانت فيـه الدولة الصفوية تجتذب علمـاء الشيعة وتغـدق عليهم الامـوال والمناصب المغرية ، وهذا لابد أن يؤدي الى هجرة العلماء العامليين الى ايران عـلى نطاق واسع . يقول الدكتور كامل الشيبي : ان موجة العامليين انصبت في ايران على صورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ التشيع[3] .

كان من أشهر العامليين الذين وفدوا الى ايران بعد الكركي هـــو الشيخ حسين بن عبدالصمد ، وقد حل محل الكركي في منصب « شـيخ الاسلام » . وسيرة هذا الرجل تدل على أنه كان ذا مزاج يختلف عن مزاج سلفه ، فهو لم يستسغ الترف والجاه كما استساغهما الكركي وأخذ يتذكر ما كان عليه أساتذته في جبل عامل من شظف العيش والكدح فـي

---

(١) الواقع ان ظهور مثل تلك النهضة العلمية في بقعة منعزلة كجبل عامل أمر يلفت النظر ويدعو الى التساؤل ، فما هي العوامل التي ساعدت على ذلك ؟ ان هذا موضوع اجتماعي جدير بأن يبحث فيه .

(٢) محمد كاظم مكي (الحركة الفكرية والأدبيـة في جبل عامل) – بيروت ١٩٦٣ – ص ٦٨ .

(٣) كامل مصطفى الشيبي (المصدر السابق) ص ٤١٧ .

سبيل الرزق ، وربما صار من جراء ذلك يعاني صراعاً نفسياً ، ولذا نراه في أواخر أيامه يتجه نحو التصوف والزهد ويعتزل المنصب الكبير الذي عهد به اليه • ذهب الى الحج ومن هناك آثر السكنى في البحرين ثم كتب الى ابنه الشيخ محمد « البهائي » يحرضه على ترك ايران وصحبة السلطان، وكان من جملة ما قاله له : « اذا كنت تريد الدنيا فاذهب الى الهند واذا كنت تريد الآخرة فاذهب الى البحرين وان كنت لا تريد الدنيا ولا الآخرة فتوطن في بلاد العجم » • وقد توفي الشيخ حسين أخيراً في البحرين ، وقبره لا يزال معروفاً في قرية المصلى[1] يزوره الناس ويتبركون به •

الشاه عباس الكبير :

وصلت الدولة الصفوية قمة مجدها في عهد الشاه عباس الذي يلقب بـ « الكبير » • وفي عصر هذا الشاه لم تبق ايران في حاجة الى استجلاب العلماء من جبل عامل أو غيره اذ هي أصبحت قادرة على انتاج من تحتاج اليه من العلماء •

تولى الشاه عباس الحكم في عام ١٥٨٨م وهو لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وتروى نادرة طريفة بمناسبة تسنمه العرش تدل على العقلية السائدة في ذلك الحين خلاصتها أن المنجمين نصحوا الشاه بأنه يجب أن يتخلى عن العرش لمدة قصيرة لأن النجوم تشير الى أن خطراً شديداً سيحيق بصاحب العرش خلال تلك المدة ، فاستجاب الشاه لنصحهم وتنازل عن العرش موقتاً حيث نصب مكانه رجلاً غير مسلم اسمه يوسف ، وقد بقي هذا المسكين على العرش ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أوعز الشاه بقتله واستعاد العرش منه • وعند هذا قال المنجمون للشاه انه سيحظى

---

(١) محسن الامين (المصدر السابق) ـ دمشق ١٩٤٨ ـ ج٢٦ ص ٢٢٦ ـ ٢٤٧ •

بمجد طويل عظيم[1] .

يبدو أن هذه النبوءة التنجيمية على الرغم من طبيعتها الخرافية كان لها أثر غير قليل في تكوين شخصية الشاه إذ هي أنتجت فيه ايحاءاً نفسياً قوياً بجملته واثقا من نفسه ومن أنه سينال مجداً عظيماً حسب ما تنبأ بـه المنجمون . يجب أن لا ننسى في هذا الصـدد أن كثيرا من الأمور التي نعدّها من الخرافات ، ونستهين بها ، قد يكون لها تأثير بالغ الاهمية ـ في الفرد أو المجتمع .

الواقع أن الدولة الصـفوية كانت ـ عندما تسلم الشاه عباس زمـام الأمور فيها ـ مهددة بالخطر الماحق من الحـدود الشـرقية والغربية معـاً . فبالاضافة الى الخطر الآتي اليها من جهة الدولة العثمانية كان هناك خطرا آخر آتياً من جهة دولة الأزبك الواقعة على الحدود الشـرقية ، وقـد استطاع الأزبك اذ ذاك أن يفتحوا بلدة هرات بعد حصار دام تسعة أشهر ، ثم فتحوا طوس ـ وهي البلدة التي تضم مرقد الامام علي بن موسى الرضا ـ فذبحوا الكثير من سكانها ونهبوا كنوز المرقد الرضوي وكان من جملـة ما نهبوه قطعة من الماس بقدر بيضة الدجاجة ، ثم استمروا في الفتح حتى احتلوا نيسابور وسبزوار واسفرايين وطبس وغيرها من بلدان خراسان .

أدرك الشاه عباس أنه غير قادر أن يحارب في جبهتين في وقت واحد، فآثر أن يصالح العثمانيين لكي يتفرغ لمجابهة الأزبك ، وقد تم له ما أراد في عام ١٥٩٠حيث عقد معاهدة مع الدولة العثمانية تعهد فيها أن يسلـّم لها مناطق آذربيجان وجورجيا وقسماً من لورستان ، وأن يمنع رعاياه من سب الخلفاء الثلاثة[2] .

---

(1) Percy Sykes (A History of Persia) — London 1958 — Vol 2, P. 174—175.

(2) Carl Brockelmann (History of jslamic Peoples) — Cornwall 1947 — p. 325.

ثم توجه الشاه نحو الازبك ، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة كبيرة في عام ١٥٩٧ ، وتمكن بعدئذ من استرجاع المناطق المفقودة ولا سيما بلدة طوس المقدسة . ومنذ ذلك الحين بدأ عصر جديد في ايران هو الذي يعده الايرانيون « العصر الذهبي » من تاريخهم الحديث .

جهود عباس العمرانية :

أولع الشاه عباس بالعمران ولعاً عظيماً ، وليس هنا مجال التبسط في ذكر جهوده العمرانية إنما نذكر منها أمرين لأهميتهما الاجتماعية : أحدهما أنه نقل العاصمة من قزوين الى أصفهان وأخذ يبني فيها العمارات الفخمة والمساجد الرائعة التي هي اليوم من أعظم ما يقصده السواح في ايران ، وقد أصبحت أصفهان من جراء ذلك مضرب المثل في الازدهار العمراني والحضاري حتى قيل « اصفهان نصف جهان » أي أن أصفهان نصف الدنيا .

أما الأمر الثاني فهو اهتمام الشاه عباس بتعمير مرقد الرضا في طوس وطلاء قبته بالذهب . وقد بدأ ذلك منذ عام ١٥٩٨ ، وفي عام ١٦٠١ استطاع أن يسترجع قطعة الماس المنهوبة فأرسلها بفتوى من العلماء الى الروم من أجل بيعها ، ثم اشترى بثمنها أراض واملاكاً وقفها على المرقد . وفي السنة التالية مشى الشاه على قدميه من أصفهان حتى طوس — وهي مسافة تبلغ ثمانمائة ميل — بغية التبرك بزيارة المرقد . وعند وصوله أخذ يقص بيده فتائل الشموع الكثيرة التي تنير المرقد ، ويروى أن الشيخ « البهائي » كان حاضراً فأنشد أبياتاً من الشعر قال فيها ما معناه : إن الملائكة نزلوا من السماء وأخذوا يتهافتون حول الشموع فيا أيها الرجل الذي يقص بمقصه فتائل الشموع إحذر أن تقص جناح جبرائيل[1] .

---

(1) Percy Sykes (Op. Cit.) Vol. 2, p. 181.

وأخذ الشاه عباس بعدئذ يشجع الايرانيين على زيارة الرضا بكل وسيلة ممكنة ، ومما قام به في هذا الشأن أنه عبّد الطرق في مختلف أنحاء ايران وبنى فيها القناطر والخانات بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ ايران. قيل إن عدد الخانات التي بناها بلغ ألف خان يتسع الواحد منها لمئات المسافرين مع دوابهم وحمولتهم ، ولم يكن يؤخذ أجر على ايوائهم فيها ، وما زالت آثارها باقية حتى اليوم[1] .

يعزو بعض الكتاب اهتمام الشاه عباس بزيارة الرضا الى أنه كان يريد أن يجعلها بديلاً عن الحج لدى الايرانيين ، ومن هؤلاء الكتاب الرحالة المصري محمد ثابت إذ قال عن الشاه عباس : إنه « صرف قومه عن زيارة مكة لكراهيتهم للعرب ولكي يوفر على قومه ما كانوا ينفقون من أموال طائلة في بلاد يكرهونها ... »[2] . إن هذا في نظري رأي لا يخلو من خطأ في التفسير ، فالشاه عباس في الواقع لم يكن راغباً في تحويل الايرانيين عن الحج ، وهو بالأحرى لم يكن قادراً على ذلك ، بل كان همه منصباً على تحويلهم عن زيارة العتبات المقدسة الموجودة في العراق تحت سيطرة أعدائه العثمانيين . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الزوار الايرانيين الذين كانوا يذهبون لزيارة العتبات المقدسة في العهد العثماني كانوا يعانون الشيء الكثير من الأذى ، على أيدي الاطفال في أزقة بغداد ، وعلى أيدي الموظفين في المخافر والدوائر ، وكانوا كثيراً ما يتقدمون عند عودتهم بالشكوى الى الشاه مما نابهم من الأذى في العراق .

مهما يكن الحال فقد صار مرقد الرضا في طوس ــ منذ عهد الشاه عباس ــ من أهم معالم المجتمع الايراني ، وقد توالت عليه التعميرات

(١) محمد جواد مغنية (دول الشيعة في التاريخ) ــ النجف ١٩٦٥ ــ ص ١٣٢ ــ ١٣٣ .

(٢) محمد ثابت (جولة في ربوع الشرق الأدنى) ــ القاهرة ١٩٥٢ ــ ص ١٦١ .

والاضافات من غير انقطاع حتى يومنا هذا ، وليس في مقدورنا اعطاء صورة وافية عما فيه الآن من أبنية وزخارف فنية وكنوز وذهب ، وماله من أملاك وأوقاف ، فذلك أمر يجل عن الوصف • ويعتبر المرقد اليوم أغنى جميع العتبات المقدسة على الاطلاق وأزخرها بالفن من حيث العمارة والزينة والعلائق الثمينة[1] •

ويزور المشهد سنوياً عدد كبير من الزوار وهم الآن يقدرون بمليون زائر يقصدونه من أنحاء ايران ـ ومن العراق ومختلف بلاد الشيعة • وفي ايران يطلق على من أتم زيارة الرضا لقب « مشتي » ـ نسبة الى مشهد ـ ويضاف هذا اللقب الى اسمه فيقال « مشتي فلان » كمثل ما يضاف لقب « كبلي » ـ أي كربلائي ـ على اسم من أتم زيارة الحسين •

فتح بغداد :

في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر جاء الى ايران من بريطانيا السر انطوني شيرلي واخوه السر روبرت ، وكان في حاشيتهما رجل خبير بصب المدافع ، فانتهز الشاه عباس الفرصة واستعان بالرجل لتجهيز جيشه بالمدافع القادرة على مجابهة المدافع العثمانية التي كانت تعد في ذلك القرن أعظم مدافع العالم على الاطلاق •

وفي عام ١٦٠٢ بدأ الشاه يشن غاراته على التخوم العثمانية ، وبعد سنتين استرجع مدينة تبريز بقوة مدافعه الجديدة ، ثم صار من بعد ذلك يكسب النصر تلو النصر ، حتى تمكن في عام ١٦٢٣ من فتح بغداد ـ بعد حصار دام ثلاثة أشهر أكل الناس فيه الأطفال وبلغت قيمة الحمار ألف

---

(١) جعفر الخليلي (موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم خراسان) ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ص ٢٥٨ •

آقجة[1] .

والظاهر أن الشاه عباس فعل ببغداد عند فتحها مثلما فعله الشاه اسماعيل قبله ، وربما زاد عليه ، فقد هدم مرقدي أبي حنيفة والشيخ عبدالقادر ثم وزع دفاتر لتسجيل اسماء أهل السنة من سكان بغداد بقصد القضاء عليهم جميعاً ، ولو لم يتدخل السيد دراج كليدار الحسين لنفذ الشاه ما أراد . فقد كان هذا السيد ذا جاه لدى الشاه واستطاع أن يشفع للكثيرين من أهل السنة وسجل أسماءهم في دفتره باعتبارهم من « محبي أهل العبا » ــ أي من الشيعة ــ فأنقذهم من القتل[2] .

زار الشاه عباس ــ بعد فتح بغداد ــ المراقد المقدسة في الكاظمية وسامراء وكربلاء والنجف ، وبذل فيها الأموال تعميراً وهدايا ، وقد ركز جهوده العمرانية على النجف بوجه خاص ، فبنى فيها الأواوين والخانات لراحة الزوار ، وأمر بفتح قناة تحت الأرض لجلب الماء الى البلدة ، وانضم عسكره الى العمال في الحفر ، حتى أوصلوا الماء الى مكان قريب من البلدة، وبنى هناك « بركة » في سرداب ينزل اليها الناس على درجات ليستقوا منها[3] .

ان هذا الذي فعله الشاه عباس ــ من حيث كونه يهدم ويبني ، ويقسو ويرحم ، في آن واحد ــ ليس بالأمر العجيب إذ هو ما يفعله عادة اكثر الناس على اختلاف طبقاتهم لا فرق فيه بين رجل الشارع والملك ، ولكن أعمال الملك قد تكون مشهورة يعرفها الجمهور ويبالغون فيها بينما أعمال رجل الشارع لا يعرفها سوى نفر معدود من الناس وهي قد تنسى بعد

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ــ بغداد ١٩٤٩ ــ ج٤ ص ١٧٧ .
(٢) المصدر السابق ، ج٤ ص ١٨٠ .
(٣) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضره) ــ النجف ١٩٥٨ ــ ج١ ص ١٩٣ .

حين • ان الذي يحب أن يحسن الى الناس جميعاً من غير تفريق ليس سوى انسان شاذ •

يصف السنيون الشاه عباس كأنه غول لا يصدر منه غير الشـــر والأذى ، بينما يصفه الشيعة كأنه قديس دأبه العمران والعدل وطلب الحق • مشكلة هذين الفريقين تشبه من بعض الوجوه مشـــكلة المرأتين اللتين ذكرنا قصة الشجار بينهما في مقدمة الكتاب إذ كانت كل واحـدة منهما تركز نظرها على الأذى الذي أصاب ولدها ، وتبالغ فيه ، من غير أن تلتفت الى مبلغ الاذي الذي أصاب ولد الأخرى •

يحكى أن فارسين من فرسان القرون الوسطى التقيا في طريق عند نصب قديم فاختلفا في لونه : أحدهما يرى أنه أصفر والآخر يرى أنـه أزرق ، والواقع أن النصب كان أصفر وازرق في آن واحد حيث كان مصبوغاً في أحد وجهيه بلون يخالف لون الوجه الآخر • وأخذ الفارسان يتنازعان قبل أن يتحققا من حقيقة النصب وكان كل منهمـا يتعجب من مخالفة الآخر لرأيه ويعتقد أنه مغالط أو معاند • إن النزاع بينهما أذهلهما عن اكتشاف الحقيقة وكلما اشتد النزاع بينهما ازداد كل منهما في تعصبه لرأيه وفي عدائه لرأي خصمه •

الشيخ البهائي :

نبغ في عهد الدولة الصفوية عدد من فطـاحل العلمـاء والمفكرين أشهرهم اثنان همــا : الشيخ محمد بن الشيخ حسـين العـاملي الملقب بـ « البهائي » ، والملا محمد باقر بن الملا محمد تقي الملقب بـ « المجلسي » •

عاش البهائي في عصر الشاه عباس الكبير وتولى مشيخة الاسلام ونال لدى الشاه حظوة لم ينلها أحد غيره ، والظاهر أن نفسه لم تكن مطمئنة الى إقبال الدنيا عليه وكأنه ورث شيئاً من نزعة الزهد والتصوف من أبيـه

الشيخ حسين بن عبدالصمد العاملي الذي أشرنا الى بعض سيرته آنفاً . فقد كتب في بعض كتبه يقول إنه لو لم يأت والده الى بلاد العجم لما ابتلي هو بصحبة السلطان[1] . وكتب مرة أخرى يصف نفسه قائلاً : « إنه لو لم يأت والدي قدس الله روحه من بلاد العرب ويختلط بالملوك لكنت من أتقى الناس وأعبدهم وأزهدهم لكنه طاب ثراه أخرجني من تلك البلاد وأقام في هذه الديار فاختلطت بأهل الدنيا واكتسبت أخلاقهم الرديئة واتصفت بصفاتهم ثم لم يحصل لي من الاختلاط بأهل الدنيا الا القيل والقال ، والنزاع والجدال ، وآل الأمر أن تصدى لمعارضتي كل جاهل وجسر على مباراتي كل خامل »[2] .

كان البهائي موسوعياً كابن سينا وأمثاله من مشاهير المفكرين القدامى الذين كانوا مطلعين على معظم العلوم والفنون الموجودة في زمانهم ـ وهذا أمر كان ممكنا في الازمنة القديمة بخلاف زماننا هذا ـ ولكن البهائي يختلف عن ابن سينا بكونه اشتهر بالرياضيات والهندسة بينما كان ابن سينا مشهوراً بالطب والفلسفة ، وقد رويت عن البهائي أساطير حول براعته الرياضية والهندسية تشبه الاساطير التي رويت عن ابن سينا في الطب ، ولا يزال العامة في أيران يتناقلون عن البهائي قصصاً لا تخلو من مبالغة أو خرافة .

سئم البهائي منصب « شيخ الاسلام » لما كان يحف به من مكايدات ومؤامرات لا يتحملها المفكرون الكبار ، وحنّت نفسه الى حياة التصوف والرحلة في سبيل العلم على طريقة المسلمين الأوائل ، فلبس لباس الدراويش وأخذ يتجول في مختلف الاقطار الاسلامية كتركيا وبلاد الشام ومصر والحجاز ، وسكن القدس حيناً من الزمن كما سكن دمشق

---

(١) محسن الأمين (المصدر السابق) ج٢٦ ص ٢٣٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٤٤ ص ٢٣١ .

والقاهرة ، وقيل إن رحلته استغرقت زهاء ثلاثين سنة ، ونال اعجاب العلماء وثقتهم في كل بلد حل فيه لأنه كان مخلصاً في طلب العلم ، حر التفكير لا يماري أو يكابر .

ألّف البهائي خلال رحلته كتابه المشهور « الكشكول » ، وقد استمد هذا الاسم من الكشكول الذي يحمله الدراويش يضعون فيه ما يعطى اليهم من صدقات ، وهو كتاب فريد من نوعه وقد يشبه كشكول الدراويش من حيث كونه جامعاً للمعلومات من شتى الانواع ، ففيه يجد القاريء شذرات فلسفية وصوفية وأدبية وفقهية ورياضية وغيرها . وقد حاول بعض المؤلفين فيما بعد تقليد البهائي فألفوا كتبا عديدة على نمط « الكشكول » ولكنهم لم يصلوا الى مستواه — وشتان ما بين المبدع والمقلد !

ومما يلفت النظر في أمر البهائي أن أهل السنة يعتبرونه سنياً والشيعة يعتبرونه شيعياً ، وقد راج كتابه « الكشكول » في مصر وايران معاً ، ثم طبع فيهما أخيراً ، والملاحظ أن هناك فرقاً بين نسختيه الايرانية والمصرية إذ توجد في النسخة الايرانية إضافات تلائم مزاج الدولة الصفوية والعقائد التي استحدثتها ، ولا ندري هل كان ذلك من فعل المؤلف أم أنه من فعل النساخ ؟!

نظرية البهائي في المعرفة :

لعل من المناسب — ونحن في صدد سيرة البهائي — أن نشير باختصار الى نظرية له في المعرفة تدل على حرية تفكيره وتسامحه الديني . وخلاصة النظرية حسبما رويت عنه في كتب ناقديه هي : « أن المكلف اذا بذل جهده في تحصيل الدليل فليس عليه شيء اذا كان مخطئاً في اعتقاده ، ولا يخلد في النار وان كان بخلاف الحق »[١] .

---

(١) عبدالله نعمة (فلاسفة الشيعة) بيروت بدون تاريخ — ص ٤٠٦ .

إن هذه النظرية ذات أهمية علمية غير قليلة وان كانت تبدو للناظر السطحي بسيطة ، والواقع أنها تنسجم مع أحدث ما توصلت اليه الابحاث النفسية والاجتماعية . والمظنون أن البهائي استمدها من تجواله الواسع بين الناس ومخالطته لأصحاب العقائد المختلفة . ومن الممكن القول إن كل مفكر صادق النظر اذا اطلع على العقائد المختلفة يستطيع أن يكتشف فيها حقيقة واضحة هي أن كل ذي عقيدة يؤمن بصحة عقيدته ايماناً قاطعاً لا شك فيه وأنه مهما تأمل وفكر فلا يقدر أن يخرج بتفكيره عن الأدلة والقوالب المنطقية الملائمة لعقيدته ، ومعنى هذا أن الانسان لا يلام على أية عقيدة اكتسبها من محيطه الاجتماعي فنشأ عليها ، إذ أن تلك العقيدة صحيحة في نظره كمثل ما تكون عقيدتنا صحيحة في نظرنا ، فلو أننا نشأنا في محيطه لاعتقدنا بمثل عقيدته ، وكذلك لو نشأ هو في محيطنا لاعتقد بمثل عقيدتنا . خلاصة القول ان الانسان في اكثر الاحيان لا يختار عقيدته بارادته وتفكيره بل يتلقاها من محيطه الاجتماعي جاهزة ثم يتصور أنها خير عقيدة أنزلت للناس ـ وهذه هي طبيعة الملايين من البشر !

مما يجدر ذكره أن الجاحظ كان قد جاء بما يشبه هذه النظرية التي جاء بها البهائي[1] ، ولكنها حوربت ثم ضاعت ولم يبق منها الا مقتطفات جزئية مما رواه المنتقدون لها . كان من رأي الجاحظ أن الشخص الأمي الذي يعيش في قرية نائية ، أو محيط اجتماعي منعزل ، نراه لا يعرف من العقائد غير العقيدة التي نشأ عليها ، وهو اذن لا يستطيع أن يفكر الا في نطاق تلك العقيدة ، إنه غير ملوم في ذلك ولا يعاقبه الله عليه ، فالله لا يكلف نفساً الا وسعها . ويستخلص الجاحظ من هذا ان الله لا يعاقب من الكفار الا أولئك المعاندين الذين يدركون الحق ويحيدون

---

(١) انظر حول نظرية الجاحظ هذه كتاب « منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته » للمؤلف ـ القاهرة ١٩٦٢ ـ ص ٤٩ ـ ٥٢ .

عنه حرصاً على جاه أو رئاسة أو نحو ذلك من الأسباب ، أما الباقون منهم – وهم الذين يمثلون سواد الناس وأكثريتهم – فان من الظلم عقابهم لأنهم لا يفهمون الحق الا من خلال العادات والعقائد التي نشأوا عليها ، والله ليس بظلام للعبيد[1] !

لا حاجة بنا الى القول إن هذه النظرية التي جاء بها الجاحظ والبهائي لا يمكن أن تلقى قبولاً من المتعصبين الذين اعتادوا أن ينظروا الى كل من يخالفهم في العقيدة نظرة عداء شديد ويعتبرونه مخلداً في النار لا شفاعة تنفعه ولا يقبل الله منه عذراً . طبيعة المتعصبين أنهم يتصورون ان الحق واضح ومن السهل الوصول اليه عن طريق الدليل العقلي ، وهم يتصورون كذلك ان المخالف لهم انما انحرف عن الحق عناداً إذ هو في أعماق نفسه يعرف الحق ثم يحيد عنه عمداً . وهذا هو الذي جعل المتعصبين من أصحاب العقائد المختلفة لا يترددون أن يعذبوا مخالفيهم أو يذبحوهم ، ويسبوا نساءهم وأطفالهم ، دون أن يرق لهم قلب أو يؤنبهم ضمير .

ردّ على البهائي غير واحد من رجال الدين في عصره وبعد عصره . ومن الطريف أن أحدهم حاول الدفاع عن البهائي فقال ما نصه : « إن المخالفين لم يبذلوا الجهد في تحصيل الدليل ولو بذلوه لوصلوا الى الحق غالباً[2]» . يبدو أن هذا الرجل هو كأمثاله من المتعصبين نشأ على عقيدة معينة وتصور أن الحق فيها واضح ، وما درى أن المخالفين الذين نشأوا على عقيدة أخرى يتصورون مثله أن الحق واضح فيها – « وكل حزب بما لديهم فرحون » .

---

(١) أحمد أمين (ضحى الإسلام) – القاهرة ١٩٤٣ – ج٣ ص١٣٤ .

(٢) محسن الأمين (المصدر السابق) ج٤٤ ص ٢٣٨ .

محمد باقر المجلسي :

عاش الملا محمد باقر المجلسي في المرحلة الاخيرة من الدولة الصفوية إذ توفى في عام ١٦٩٩ أي قبل سقوط الدولة الصفوية بثلاث وعشرين سنة ، وهو يختلف عن الشيخ البهائي من عدة وجوه نخص بالذكر منها اثنين هما :

أولاً : عاش المجلسي عيشة الترف والأبهة وكان مطمئناً الى تلك العيشة راضياً بها ، وذلك على العكس مما كان عليه البهائي . وقد تولى المجلسي منصب « شيخ الاسلام » في عهد الشاه سليمان ، ثم أضيف اليه في عهد الشاه حسين آخر ملوك الدولة الصفوية منصب « الملا باشي » – أي رئيس العلماء – تعظيماً له .

ثانياً : كان المجلسي شديد التعصب لعقيدته ولا يتسامح مع أية عقيدة مخالفة مهما كانت ، وقد أغرى الدولة باضطهاد جميع المخالفين الذين كانوا موجودين في داخل الحدود الايرانية كالسنيين والمتصوفة والمجوس واليهود والنصارى ، ولم يسلم منه حتى الفلسفيين إذ اعتبرهم من اتباع الاغريق الكفار[1] .

اشتهر المجلسي بكثرة مؤلفاته وخاصة بكتابه « بحار الأنوار » الذي يتكون من خمسة وعشرين مجلداً ضخماً ، وقد بولغ في غزارة كتابات المجلسي حتى قيل انه كان يكتب ما مقداره خمسون ألف كلمة كل يوم[2] . والمظنون أنه لم يكتب كل ذلك بيده بل كان لديه كتاب كثيرون فهو يرشدهم الى ما يريد نقله من المراجع ، ومما أعانه على تأليف كتابه

---

(1) Laurence Lockhart (The Fall of The Safavi Dynasty) — Cambridge 1958 — p. 70—71.

(2) Edward Browne (Op. Cit.) Vol 2, p. 404.

« بحار الأنوار » أنه كان جماعاً للكتب مولعاً باقتنائها وكانت الدولة تساعده على ذلك ، فقد بلغه ذات مرة أن أحد الكتب التي كان محتاجاً اليها موجود في اليمن ، فأخبر الشاه بذلك ، فأرسل الشاه سفيراً الى ملك اليمن مع هدايا كثيرة بغية الحصول على الكتاب[1] .

كتب المجلسي « بحار الأنوار » باللغة العربية بينما كانت مؤلفاته الأخرى باللغة الفارسية ، وقد اتخذ في مؤلفاته الفارسية اسلوباً مبسطاً مفهوماً مما جعلها ذات تأثير بالغ في الشعب الايراني ، قيل أن كتابه « حق اليقين » كان سبباً في تشيع سبعين ألف سني من الايرانيين[2] .

أما كتاب « بحار الانوار » فله شأن آخر ، إنه أضخم كتاب لدى الشيعة ويعد موسوعة كبرى إذ هو جمع معظم أحاديث الشيعة وأخبارهم وعلومهم . وفي رأي بعض الباحثين أن المجلسي أساء الى التشيع بهذا الكتاب أكثر مما نفعه ، فهو قد جمع فيه كل ما عثر عليه من الأخبار والقصص والأساطير — لا فرق بين الغث والسمين منها — ثم وضعها في متناول كل من يريد الاغتراف منها ، وجاء بعدئذ قرّاء « التعزية » وخطباء المنابر فصاروا يأخذون منه ما يروق لهم وبذا ملأوا أذهان العامة بالغلو والخرافة وجعلوهم يحلّقون في عالم من الأوهام لا صلة له بعالم الواقع الذين يعيشون فيه .

عندما تم تأليف كتاب « بحار الانوار » أوقف الشاه بعض أملاكه الخاصة في سبيل نسخ الكتاب وتوفيره للطلبة[3] . وحين أدخلت المطبعة

---

(١) محسن الأمين (المصدر السابق) ج٤٤ ص ٩٧ — ١٠٠ .

(٢) دوايت دونلدسن (عقيدة الشيعة) — تعريب ع.م — القاهرة ١٩٤٦ — ص ٣٠٢ .

(٣) محسن الأمين (المصدر السابق) ج٤٤ ص ٩٨ .

الحجرية في ايران في العهد القاجاري كان هذا الكتاب من اوائل المؤلفات التي طبعت فيها على نطاق واسع ، وقد وردت الى العراق منه نسخ كثيرة مما أدى الى انتشار معلوماته « الغثة » في أوساط الشعب العراقي على منوال ما حدث في ايران .

الفصل الثالث

العهد العثماني في طوره الثاني

كانت الدولة العثمانية قد وصلت الى أوج اتساعها وقوتها في عهد السلطان سليمان القانوني ، في أواخر القرن السادس عشر ، ثم أخذت من بعد ذلك تسير نحو التفكك والانحطاط . وقد بدأ اختلال أمور الدولة باختلال نظام الجيش الانكشاري ، ومما يلفت النظر ان هذا الجيش الذي كان في أول الأمر من أهم العوامل في نمو الدولة العثمانية وازدهارها أمسى أخيراً من أهم العوامل في تدهورها .

يقول ساطع الحصري : إن الجيش الانكشاري فقد بالتدريج كل ما كان له من مزايا وتحول في آخر الأمر الى آلة فساد وفوضى ، فقد تضاءل ارتباط الانكشاريين بثكناتهم وأخذ الكثير منهم يشتغلون بمهن مختلفة بعد أن يبيعوا تذاكر « علوفاتهم » — أي مرتباتهم — الى الراغبين من الناس كما تباع الأسهم والسندات وهم لا يجتمعون الا لرفع صوت العصيان أو بطلب عزل وزير أو شنق جماعة من الوزراء ، وعندما تقرر الدولة تسفيرهم الى الحرب قلما كانوا يصمدون أمام هجمات الاعداء غير أنهم يحاولون أن يستروا « عار فرارهم » بنشر شتى الاشاعات بين الناس مدعين أن القواد أرادوا أن يبيعوهم الى الاعداء الكفار ، ولهذا صارت الحروب التي كانت الدول العثمانية تخوض غمارها كثيراً ما تنتهي بهزائم شنيعة وأخذت حدود الدولة تتراجع وتتقلص شيئاً فشيئاً[1] .

---

(١) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) — بيروت ١٩٦٠ — ص ٤٧ — ٤٨ .

والغريب أنه في الوقت الذي كان فيه الشاه عباس الصفوي يتأهب لفتح بغداد كان الانكشاريون في اسطنبول لاهين باستهتارهم وشغبهم ، وقد وصل بهم الحال الى درجة أنهم هجموا على السلطان عثمان الثاني وهو في قصره ـ بين زوجاته وجواريه ـ فأخرجوه مهاناً ثم قتلوه ، وحينئذ صارت الحكومة ألعوبة في ايديهم ينصبون الوزراء ويعزلونهم حسب أهوائهم ، وشرعوا يمنحون المناصب لمن يجزل لهم العطايا ، فكانت وظائف الدولة تباع جهراً[1] . وفي عام ١٦٢٣ ـ وقبل أيام معدودة من سقوط بغداد بيد الشاه عباس الصفوي ـ نصب الانكشاريون السلطان مراد الرابع على العرش وكان صبياً دون الثانية عشرة من عمره ظناً منهم أنه سوف يكون طوع أمرهم وألعوبة في أيديهم .

السلطان مراد الرابع :

خاب ظن الانكشاريين في السلطان مراد الرابع ، فهو بدلاً من أن يكون ألعوبة في أيديهم تمكن من أن يجعلهم ألعوبة في يده . ونستطيع أن نعدّ عهد هذا السلطان الشاب فترة انتعاش في جسم الدولة المريض ولكن هذه الفترة لم تدم الا قليلاً إذ هو مات في الثامنة والعشرين من عمره ففقدت الدولة العثمانية بذلك رجلاً جباراً كان في مقدوره أن يستعيد لها بعض قوتها المنهارة .

كان السلطان مراد كأمثاله من الجبارين القدامى سفاكاً للدماء قاسياً الى أقصى حد ، والظاهر أن هذه صفة كانت في الأزمنة القديمة ضرورية لمن يريد أن يحرك التاريخ ويستغل طاقة الجماهير فاذا فقدها استهان الناس به وتجرأوا على عصيان أمره . والواقع ان السلطان مراد لم يكن يقل عن سلفه السلطان سليم ياوز في شدة البطش حتى صار اسمه يضرب

(١) محمد فريد (تاريخ الدولة العلية العثمانية) ـ القاهرة ١٩١٢ ـ ص ١٢٥ .

به المثل في القسوة ، وقد اشتهر عنه أنه كان لا يأبه بحياة الآخرين ، وقيل في مدحه إنه « لا يصفح عن جرم غير جرمه »[1] .

لم يكد السلطان مراد يتسلم زمام الحكم حتى بدأ يعد العدة لاسترجاع بغداد من أيدي الصفويين ، ثم وجه اليها قوات كبيرة مرتين أولاهما في عام ١٦٢٤ والاخرى في عام ١٦٣٠ ، وقد حوصرت بغداد في كلتا المرتين وضيق عليها الخناق ولكن الجيش العثماني اضطر في كل مرة أن يرفع الحصار وأن يعود من حيث أتى .

يبدو ان شغب الانكشاريين كان من العوامل الرئيسة في هذا الاخفاق الذي مني به الجيش العثماني ، وقد أدرك السلطان مراد أنه لا يستطيع أن يقوم بعمل عسكري جبار ما لم يكسر شوكة الانكشاريين ويقضي على عناصر الشغب بين صفوفهم ، وقد تم له ما أراد في عام ١٦٣٢ حيث أمر بقتل كل من ثبت عليه أي ضلع في حوادث الشغب الأخيرة[2] .

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان مراد مشغولاً بمحاولاته الفاشلة لاسترجاع بغداد كان الرأي العام السني شديد الامتعاض من استمرار بقاء بغداد في أيدي العجم . يحكى أن أحد الدراويش قصد اسطنبول من بغداد بغية مقابلة السلطان ولومه على تأخره في « انقاذ » بغداد ، وفي يوم جمعة دخل الدرويش المسجد الذي يصلي فيه السلطان ولم يكد يلمحه قادماً حتى صاح في وجهه وهو يرتعش من شدة التأثر قائلا : أنت تخفي نفسك بين حرسك وحريمك لاهياً بالأنس والطرب ... أما علمت أن الروافض هدموا قبر الشيخ عبدالقادر ؟! وقيل إن السلطان تأثر كل التأثر من كلام هذا الدرويش وأقسم بأغلظ الايمان أنه سينقذ بغداد من أيدي

---

(١) سيتون لويد (الرافدان) ـ ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس ـ بغداد بدون تاريخ ـ ص ٢٤٤ .

(٢) محمد فريد (المصدر السابق) ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

العجم ويعمّر من جديد قبراً للشيخ عبدالقادر يليق بمقامه[1] .

استرجاع بغداد :

في عام ١٦٣٧ فرغ صبر السلطان مراد فأخرج « الطوغ الهمايوني »، وهو العلم الخاص الذي لا يخرج الا في الضرورة القصوى ، وأصدر « الفرمان » بالتأهب لفتح بغداد على أن يكون هو على رأس جيوشه على منوال ما كان يفعله أسلافه العظام كسليم ياوز وسليمان القانوني . وعندما تحركت الجيوش من اسطنبول لبس السلطان زيّ العرب تشبهاً بأصحاب الرسول عندما كانوا يتأهبون للجهاد . وكان يحمل معه خمسة مدافع ضخمة : اثنان منها بمعيار عشرين أوقية من البارود ، وثلاثة بمعيارثماني عشرة أوقية[2] .

وعندما وصل السلطان بجيوشه الى مقربة من بغداد ، وفرض الحصار عليها ، أمر أن تنصب خيمته الخاصة « الأوطاغ » على شاطيء دجلة أمام قبر أبي حنيفة دون أن يذهب لزيارته إذ قال : « انني اخجل من زيارته قبل أن تفتح بغداد » . والمعروف عنه أنه كان يعمل بنفسه في أعمال الحصار الشاقة تنشيطاً للجنود ، ويوزع بيده الاسلحة المختلفة والاعتدة عليهم ، وكان يمر كل يوم بالمحاربين في المتاريس ويشجعهم قائلاً : « ابذلوا جهودكم في سبيل الدين والغيرة الاسلامية ولا تقصروا ، هذا يوم السعي وبذل ما في الوسع ... »[3] . وكان يصلي في كل صباح ومساء ويتمرغ في الأرض خاشعاً والدموع تغمر عينيه[4] .

(١) مدام ديولافوا (رحلة مدام ديولافوا) ـ ترجمة علي البصري ـ بغداد ١٩٥٨ ـ ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٤٩ ـ ج٤ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج٤ ص ٢٢٠ ـ ٢٣٠ .

(٤) سيتون لويد (المصدر السابق) ص ٢٤٥ .

استمر الحصار أربعين يوماً أبدى فيـــه الفريقان من الاستماتة في القتال أمراً عجيباً • وفي ٢٢ كانون الأول ١٦٣٨ أحدثت المدافع العثمانية ثغرة في سور بغداد من الجهة الشـــرقية طولها ثمانون ياردة ، فتقـدم العثمانيون نحوها واشتد القتال بينهم وبين الايرانيين في تلك الثغرة طوال يومين كاملين دون أن تبدو عليهم أية علامة تدل على النصـر مما جعل السلطان يتوفز غضباً ويوبّخ وزيره الاعظم « طيار محمد باشا » واصـفاً إياه بالجبن • وفي اليوم الثالث سلّ الوزير الأعظم سيفه فهاجم الثغرة على رأس قوة من الجنود وهم يهتفون « الله •• الله » ، فصرعت الوزير قنبلة ولكن الجنود تقدموا فدخلوا السور وانكشفت المدينة أمامهم •••

عقابيل الفتح :

لم يكد الجنود العثمانيون يشقون طريقهم عبر سور بغداد حتـى أرسل بكتاش خان قائد الحامية الايراني الى السلطان مراد يعلن استسلامه هو وحاميته ، وجاء القائد بنفسه الى « الأوطاغ » السلطاني فاقتيد بين صفين من الحرس الاشداء ، ولما مثل بين يدي السلطان عفى عنه السلطان وأنعم عليه بالهدايا الثمينة •

وفي تلك الساعة خيل للناس أن القتال قد انتهى وأن بغداد سترفرف عليها راية السلام ، هذا ولكن حادثاً حدث لا يعرف كنهه على وجه الدقة حوّل بغداد فجأة من طور التفاؤل الى نقيضه، وشهدت بغداد اذ ذاك مذبحة لا تقل في بشاعتها عن أفظع مذابح التاريخ •

اختلف المؤرخون في تعيين سبب المذبحة ، فالأتراك منهم يعزونـه الى اخلال الحامية الايرانية بشروط الاستسلام ، والايرانيون يعزونه الى روح الانتقـام العنيف الذي سـيطر عـلى الجنود العثمانيين عند دخولهم بغداد • ومهما كان السبب فقد انثال العثمانيون على أفراد الحامية الايرانية

فامعنوا فيها ذبحاً وتقتيلاً بحيث لم يسلم منها سوى ثلاثمائة جندي مع العلم أنها كانت تبلغ عند الاستسلام زهاء عشرين ألفاً[1] •

والغريب أن مذبحة أخرى وقعت بعد تلك بأيام قليلة ، وكان سببها انفجار مخزن للبارود في بغداد حيث قتل به ثمانمائة من الانكشاريين ، وعند ذاك أمر السلطان بالذبح العام انتقاماً • وقد اختلف المؤرخون — هنا أيضاً — فيمن شملهم الذبح • فالمؤرخ كريسي يذكر أن الذبح شمل سكان بغداد — وربما قصد الشيعة منهم — ونقل عن المؤرخين الأتراك أن عدد القتلى في هذه المرة بلغ ثلاثين ألفاً[2] • أما المؤرخ لونكريك فيرى أن السلطان أمر بذبح الايرانيين فقط من غير تفريق بين من التجأ منهم الى المعسكر العثماني وغيرهم • ويضيف لونكريك الى ذلك : أن السلطان أمر بقتل ثلاثمائة زائر ايراني كانوا قد جاءوا في تلك الفترة لزيارة الكاظمية ، وكذلك أمر بقتل ألف أسير جيء بهم بين يديه فقطعت رقابهم حالاً[3] •

وبعد انتهاء المذبحة تقدم الباقون من سكان بغداد صفوفاً بأطفالهم ونسائهم وهم يصرخون « الداد — أمان » ، فأصدر السلطان أمره بالأمان لهم ومنع منعاً باتاً أن يتعرض أفراد الجيش لأموال الأهلين وأولادهم ، وأعلن أن كل من وجدت في خيمته أموال لأحد يعاقب بالاعدام •

وذهب السلطان بعدئذ لزيارة أبي حنيفة في الاعظمية وقال « الآن حقت الزيارة » ، فقرىء هناك الختم الشريف وتليت الأدعية وذبحت

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٤ ص ٢٢٩ •

(2) Edward Creasy (History of the Ottoman Turks) — Beirut 1961 — P. 256.

(٣) ستيفن همسلي لونكريك (اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) — ترجمة جعفر الخياط — بغداد ١٩٦٢ — ص ٧٤ •

القرابين وبذلت الصدقات . ونظم القاضي تاج الدين المالكي أبياتاً من الشعر يؤرخ فيها الفتح جاء فيها :

خليفة الله مراد غزا
قلعة بغداد فأرداها

فلنشرحن فعل مراد بها
مؤرخاً قد ذبح الشاها[1]

وفي ١٧ شباط من عام ١٦٣٩ غادر السلطان مراد بغداد ، فخرج بجيوشه من باب السور التي كانت تسمى يومذاك « آق قابو » أي الباب الابيض – ثم سميت بعدئذ بـ « باب الطلسم » – وأمر بأن تسد الباب سداً نهائياً فبنيت فتحتها بالآجر . وعند وصول السلطان الى اسطنبول استقبل فيها استقبالاً منقطع النظير حيث امتلأت شرفات البيوت وسطوحها بالناس وهم يهتفون مرحبين به ، وكان الناس في الشوارع ينحنون تعظيماً عند مرور موكبه بهم ويقولون « بارك الله » !

لم يهنأ السلطان بالنصر طويلاً إذ لم يمض على وصوله العاصمة سوى مدة قصيرة حتى أصيب بحمّى دامت خمسة عشر يوماً . وقد اشتد تأثير الحمى فيه من جراء ادمانه الخمرة ، ثم صادف أن كسفت الشمس أثناء مرضه فانتابه الرعب مما زاد في وطأة المرض عليه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

« طوب أبو خزامة » :

كان السلطان مراد عند مغادرته بغداد قد ترك فيها أحد مدافعه الثقيلة ليوضع عند باب « القلعة » ، وقد صار هذا المدفع في نظر العامة من أهل

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٤ ص ٢٣٠ – ٢٣٢ .

بغداد – لا سيما السنين منهم – شبه قديس تنسب اليه الكرامات وتنسج حوله الأساطير .

أطلق أهل بغداد على المدفع اسم « طوب أبو خزامة » ، ويعزى سبب هذه التسمية الى وجود خرق صغير في فوهة المدفع كأنه منخر له ، وتقول الأساطير الشعبية في تعليل الخرق إن المدفع كان في السماء عند حصار بغداد وأن الله أمر جبرائيل أن ينزل به الى الأرض لمساعدة السلطان مراد على فتح بغداد فنزل به جبرائيل يقوده من منخره . وهناك أساطير أخرى يتناقلها أهل بغداد حول هذا المدفع ، منها أن الاسماك التسع المنقوشة على جانبيه كانت قد لصقت به عند اجتيازه « بحر القدرة » أثناء نزوله من السماء ، ومنها أن المدفع عند استقراره في الارض أخذ يلتقف التراب ويحوّله بقدرة الله الى قنابل يقذف بها العدو(١) .

ومن الاساطير الشعبية أن السلطان مراد غضب ذات يوم على المدفع فضربه بقبضة يده ولا يزال أثر الضربة باقياً فيه يدل على مبلغ قوة السلطان ، ويحكى أيضاً أن المدفع نفسه انتابه الغضب – ربما من جراء ضربة السلطان له – فرمى بنفسه الى نهر دجلة مما اضطر السلطان الى أن يسحبه من « منخره » ويعود به الى الشاطيء .

وصلت الاساطير حول كرامات « طوب أبو خزامة » الى حد صارت فيه النساء يتبركن به وينذرن له النذور ويربطن به الخيوط على منوال ما يصنعن في المراقد المقدسة ، وجرت العادة في بغداد أن يؤتى بالمولود الجديد في يومه السابع فيطاف به حول المدفع ويُدخل رأسه في فوهته ثلاث مرات، وظلت هذه العادة جارية حتى عهد متأخر مما اضطر السيد محمود شكري الألوسي في أواخر العهد العثماني أن يكتب رسالة في شجبها عنوانها :

---

(١) عزيز جاسم الحجية (بغداديات) – بغداد ١٩٦٨ – ج ٢ ص ١٣٩ – ١٤٠ .

« القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع » • وننقل فيما يلي تعليق محمد بهجت الأثري على تلك الرسالة :

« القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع : رسالة في مقاومة بعض مظاهر الوثنية التي راجت عند العوام ، والمدفع المذكور هو من مدافع السلطان مراد العثماني التي استخدمها في قتـال الفرس لاخراجهم من بغداد ، ووضع في مدخل الثكنة العسكرية ببغداد رمزاً للقوة ، واشتهر باسم « طوب أبو خزامة » • وقد نسجت حوله الأساطير وحكيت الغرائب من أمره في فتح بغداد ، كأن ما استشعره البغداديون من ذل الاحتلال الفارسي قد دفع عامتهم الى هذه الاقاصيص ، وكان شأنهم في أول الأمر معه شأن المعجب ، ثم استحال الاعجاب مع الايام الى التبرك به وتقديسه ، فاذا هـم ينذرون له النذور ويعلقون عليه التمائم ويقبلونه • وعظم ذلك في نفوسهم حتى استعصى اقلاعهم عنه ولم تغن معه المواعظ فكتب الألوسي هذه الرسالة باحثاً فيها في تاريخ هذا المدفع والمفاسد الناجمة منه ، وقدمها الى المشـير هدايت باشا ليردع العوام عن زيارته وتقديم النذور اليه ، وقد ترجمت الرسالة الى اللغة التركية »[1] •

لم يترك العوام التبرك بالمدفع الا بعد نقله الى المتحف الحربي في « الباب الوسطاني » قبيل الحرب العالمية الثانية ــ فيما أتذكر ــ فنسيه الناس اذ ذاك ونسوا كراماته • ومنذ عهد قريب أعيد المدفع الى ساحة الميـدان قريباً من موضـعه الاول وصنعت له قاعدة متينة • وهو اليوم يعتبر أثراً قديماً لا قدسية فيه •

---

(١) مهحمد بهجـــة الاثري (محمود شـــكري الألوســـي وآراؤه اللغوية) ــ القاهرة ١٩٥٨ ــ ص ١١٣ •

كنج عثمان :

لم يحتكر « طوب أبو خزامة » القدسية له وحده بعد فتح بغداد بل شاركه فيها رجل اسمه « كنج عثمان » ، وكان هذا الرجل من قادة الجيش العثماني وقد جاء الى العراق قبل مجيء السلطان مراد ، تصحبه قوة من الجيش ، فاحتل الحلة والرماحية وكربلا والنجف ولكنه مات قبل فتح بغداد فنقلت جنازته بعد الفتح الى بغداد ودفنت قرب السراي . وظن أهل بغداد أنه من الذين استشهدوا في المعركة وانتشرت بينهم الاساطير عنه وعن كراماته ، فقيل إنه كان عند فتح بغداد يحمل راية أمام السلطان مراد فقطعت يداه ولكن الراية ظلت تمشي وحدها من غير أن يكون له أحد يحملها ، ولم تسقط الراية الا بعد أن شاهدها أحد الناس ودهش لمنظرها العجيب .

وقد صار قبر « كنج عثمان » مزاراً ، فبُنيت عليه قبة واتخذت له سقاية للماء . وفي عام ١٧٢٠ جدد بناء القبر الوالي المشهور حسن باشا ، وكُتب على شباك قبره المطل على الطريق ما نصه : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . رئيس الشهداء كنج عثمان . قد عمر هذا المكان صاحب الخيرات حسن باشا سنة ١١٣٣هـ » .

وعند الاحتلال البريطاني لبغداد عام ١٩١٧ استحصلت الفتوى من العلماء لنقل رفاته الى مقبرة الشهداء في العيواضية من أجل توسيع الطريق، ويبدو أن المأمور المكلف بالنقل لم يهن عليه ذلك فترك العظام التي عثر عليها في مكانها لم ينقل منها شيئاً ، واكتفى بنقل الشباك الذي كان منصوباً فوقها فوضعه على أحد القبور في مقبرة الشهداء[1] .

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) — بغداد ١٩٥٣ — ج ٥ ص ١٧ — ٢٠ .

الصلح بين الدولتين :

بعد مضي سنة واحدة على فتح بغداد بيد السلطان مراد عقد صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية حيث تم الاتفاق فيه على أن تبقى بغداد في حوزه الدولة العثمانية وتأخذ الدولة الصفوية عوضاً عنها بلدة ايروان في أرمينيا • وقد قدّر لهذا الصلح أن يدوم طويلا اذ استمر على ما ينوف على التسعين عاماً دون أن يعكّره أي قتال أو نزاع جدي بين الدولتين •

في عام ١٦٧٤ ظهرت اشاعات في بغداد تشير الى أن الدولة الصفوية عازمة على غزو العراق ، فانتشرت الأراجيف بين الناس من جراء ذلك وأصيبت الاسواق بالركود وقلت حركة القوافل ، ثم تبين أخيراً ان تلك الاشاعات لا صحة لها فعادت الطمأنينة الى الناس(١) •

يعزى سبب هذا الصلح الطويل الى أن الدولة الصفوية كانت في حينه تعاني الانحطاط والوهن ولم يكن في مقدورها أن تحارب أو تنتصر في الحرب ، فالشاه صفي الذي تسنم العرش بعد وفاة جده الشاه عباس الكبير عام١٦٢٩ كان سكيراً منغمساً فيالملذات ولا يبالى بما يجرى فيالبلاد، وكذلك كان ابنه الشاه عباس الثاني ، وحفيده الشاه سليمان • والمعروف عن الشاه سليمان الذي تولى الحكم من عام ١٦٦٦ الى عام ١٦٩٤ أنه ترك أمور الدولة بأيدي خصيانه والملا محمد باقر المجلسي يتنافسون عليها وانغمس هو في الخمرة والنساء ، ولما قيل له ان العثمانيين قد يهاجمون بلاده أجابهم بمثل جواب المستعصم العباسي وهو : أنه لا يكترث لهجومهم على شرط أن يتركوا له أصفهان • وعندما أرسلت اليه بعض الدول الأوربية سفراءها ليحرضوه على استعادة بغداد ، أثناء انشغال الدولة العثمانية في حروبها الأوربية ، أجابهم أنه يحب أن يحافظ على المعاهدة المعقودة بينه وبين السلطان العثماني وأن يعيش معه فيسلام • ويعلق المؤرخ

(١) المصدر السابق ، ج ٥ ص ١١٠ •

لوكهارت على هذا الجواب بقوله : « لا يمكن أن يكون هناك شك ، بالنظر الى ضعف الجيش الايراني وانخفاض معنوياته في ذلك الوقت ، أن هذا القرار كان حكيماً ، ولكن المحتمل أن القرار جاء نتيجة اللامبالاة لا نتيجة الحكمة »[1] .

ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن الدولة العثمانية كانت هي أيضاً تعاني في تلك الفترة من الانحطاط والوهن ، وقد وصف ساطع الحصري أحد مظاهر انحطاطها وهو كثرة رجال الدين فيها وشدة سيطرتهم على شؤونها ، فقال : انهم كانوا على فئات شتى منهم القضاة والمفتون والائمة والخطباء والسادة والمشايخ والمدرسون والطلبة والدراويش وغيرهم ، وكان عددهم يزداد وتأثيرهم يشتد على مرور السنين ، ولكنهم في الوقت نفسه كان مستواهم العلمي يتردى بصورة سريعة فصارت تنتشر بينهم ضروب التعصب الأعمى وتنتقل منهم الى الناس وتستولي حتى على عقول الحكام والسلاطين ، وقد سجل التاريخ العثماني أمثلة كثيرة على ذلك : فأحد السلاطين مثلاً كان يطلب من شيخ الاسلام أن يقوم بـ « استخارة » لمعرفة أكفأ الرجال لمنصب الصدارة العظمى ، وأشار أحد رجال الدين على سلطان آخر أن لا يعين رجلاً في منصب لأن اسمه ليس من الاسماء التي تقترن بـ « اليمن » ، وامتنع أحد القواد عن الهجوم ليلاً في بعض الوقائع الحربية لأن رجال الدين الذين في جيشه كانوا يعتبرون الهجوم ليلاً من الأمور التي لا تتفق مع شعائر الاسلام . وكثيراً ما كان رجال الدين ينظمون المضابط من أجل نصب الولاة وعزلهم، فصار أصحاب المطامع يسعون لاغرائهم في سبيل أغراضهم الخاصة[2] .

---

(1) Laurence Lockhart (The Fall of The Safavi Dynasty) Cambridge 1958 — p. 29—30.

(٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص ٥١ ـ ٥٢ .

الانحطاط في العراق :

ان الانحطاط العام الذي أصيبت به الدولة العثمانية لابد أن ينال العراق نصيبه منه ، وقد يصح القول ان نصيب العراق من الانحطاط العام كان أكبر من نصيب بعض الأقطار العثمانية الأخرى على وجه من الوجوه، فالمعروف عن العراق أنه كان بمثابة المنفى للولاة والموظفين الأتراك اذ كان هؤلاء يمتعضون من العمل فيه كمثل ما يمتعض اليوم موظفونا من العمل في أهوار الجبايش مثلاً ، ولم يكن يقبل العمل فيه الا الموظف الذي لا يجد له عملاً في مكان آخر أو الذي يتوقع أن يبقى فيه مدة قصيرة ليجمع منه ثروة ينتفع منها في مستقبل أيامه • وهذا هو الذي جعل الجهاز الحكومي في العراق آنذاك في أوطأ دركات الضعف والتفسخ •

لا حاجة بنا الى القول ان تفسخ الجهاز الحكومي في بلد كالعراق لابد أن يؤدي الى ارتفاع « المد البدوي » فيه • ان الحكومة ـ كما اشرنا اليه من قبل ـ أهم دعائم الحضارة ، وحين تضعف الحكومة تضعف الحضارة معها فيختل نظام الري ويقل السكان وتتخرب المدن ، واذ ذاك تنتهز القبائل البدوية الفرصة فتأتي من الصحراء متغلغلة في انحاء البلاد حيث تحل محل الحكومة في السيطرة على الكثير من الطرق والمدن • وهذا هو ما وقع فعلاً في تلك الفترة « المظلمة » من تاريخ العراق •

مر السائح الفرنسي تافرنيه بالعراق في أواسط القرن السابع عشر ، وحين نقرأ مذكراته التي كتبها عن رحلته[1] نستطيع أن نستنتج منها أن الكثير من مناطق العراق كانت تحت سيطرة القبائل الرحالة وأن تلك القبائل كانت تعيش في مستوى من الترف غير مألوف عادة في الحياة البدوية مما يدل على وفرة ما كانت تفرضه على القوافل والمسافرين من أتاوات •

---

(١) جان بابتست تافرنيه (العراق في القرق السابع عشر) ـ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ـ بغداد ١٩٤٤ •

ويحدثنا السائح الالماني نيبور الذي جاء الى العراق عام ١٧٦٥ عن الطريقة التي كانت القبائل تجبى بها الاتاوات من القوافل فيقول : إن التجار يجب أن يدفعوا مبلغاً معيناً عن أموالهم المحمولة في القافلة الى رئيس القافلة « الكروان باشي » قبل الشروع بالحركة ، وهذا الرئيس لا يكاد يرى جماعة من الأعراب يعترضون طريق القافلة حتى يتقدم نحوهم مع نفر من رجاله على ظهور الخيل فيبدأ المفاوضة معهم حول المبلغ الذي ينبغي أن يدفعه لهم جزاء حمايتهم للقافلة أثناء مرورها بمنطقتهم ، وقد تطول المفاوضة بين الفريقين وقد يهدد كل منهما الآخر بقوة سلاحه ، حتى يتم الاتفاق بينهم في النهاية ، وتستأنف القافلة سيرها بسلام .

ويحدثنا نيبور أيضاً عن سير السفن في نهر الفرات بين البصرة والحلة ، وكيف كان بعض شيوخ القبائل يفرضون الضرائب عليها أحياناً بدلاً من الحكومة . وأشار الى حادثة نهب وقعت لسفينة صغيرة محملة بالتمر وقد قتل فيها بعض ركابها من جراء امتناعهم عن تسليم أموالهم طوعاً .

ويصف نيبور بعض المناطق التي مر بها في سفينته فيما بين البصرة والحلة فيقول ما نصه : « وهذه الأراضي الصالحة للزراعة تمتد الآن بعيدة عن النهر كالبادية تماماً بسبب خلوها من السكان والجداول . تقع القرى بعيدة عن النهر بعداً لا بأس به وهي مشيدة على أتعس طرز ويتجلى منها أن الشيوخ العرب لم يتركوا الشيء الكثير لسكانها المساكين ، فالبيوت وأسوارها كلها من القصب . والخلاصة أنني لم أصادف في أي مكان اكواخاً أردأ من أكواخ هذه المنطقة الخصبة بطبيعتها والمشهورة منذ أقدم الأزمنة حيث كانت منطقة غنية بالسكان ...[1] » .

---

(١) كارستن نيبور (رحلة نيبور الى بغداد) ـ ترجمة سعاد هادي العمري ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٦٧ ـ ٦٩ .

الاتحادات القبلية :

كان من أهم معالم « المد البدوي » في العراق آنذاك ظهور عـدة اتحادات قبلية كبيرة ، خاصة في المناطق الجنوبية ، كان أشهرها المنتفق والخزاعل وزبيد وبنو لام وقشعم •

وكل واحد من هذه الاتحادات يتكون حول رئيس قوي أو أسرة قوية ، فتنضم اليه العشائر الصغيرة القريبة منه تدريجاً ، وكلما ازدادت قوة الاتحاد ازداد عدد العشـائر المنضمة اليه ، حتى يصبح أخيراً شـبه امارة مستقلة لا يربطها مع الحكومة المركزية في بغداد سوى رباط ضعيف هو « التزام الضريبة » ، والحكومة لا تبالي بما يفعل شيخ الاتحاد ما دام يؤدي المبلغ الذي تعهد بدفعه كل عام ، وكثيرا ما يشعر الشيخ بقوته ازاء الحكومة فيمتنع عن دفع المبلغ ــ كله أو بعضه ــ واذ ذاك تنشـب المعارك بينه وبينها •

كل عشيرة صغيرة تدرك أنها غير قادرة على البقاء بقوة سلاحها وحده، ولابد لها من أن تنضم الى اتحاد ما لكي تتقوى به ، أما اذا بقيت مفردة فلابد أن يلتهمها جيرانها الأقوياء عاجلاً أو آجلاً • وقد يحدث مثل هذا لأهل المدن والقرى فهم لابد لهم من أن يتحالفوا مع احدى العشـائر القوية المجاورة لها • وهذا هو ما يعرف عندهم بـ « الكتبة » ــ ولا تزال بقاياه في بعض المدن حتى الآن ــ فالفرد في المدينة « يتكاتب » مع احـدى العشائر حيث تتعهد له أن تحميه من خصـومه وتأخذ بثأره اذا قُتل ، وهو يتعهد لها من جانبه أن يساهم معها في الديات والمغارم التي تقع عليها ويقاتل معها حين تطلب ذلك منه عند الضرورة • وكثيراً ما ينقسم سـكان المدينة الى فريقين متعاديين من جراء « مكاتبتهم » مع عشيرتين متنازعتين •

هجرة شمر وعنزة :

منذ عام ١٦٤٠ بدأت هجرة شمر ـ القبيلة البدوية المعروفة ـ من مكانها القديم في أواسط جزيرة العرب متجهة الى الشمال نحو بادية الشام، فوقعت من جراء ذلك معارك طاحنة بينهم وبين قبيلة الموالي التي كانت تسكن هناك ، وقد استمرت المعارك عشرين سنة انتهت بانتصار شمر وتراجع الموالي نحو الحدود السورية .

ولم تمض على ذلك سوى مدة غير طويلة حتى جاءت من أواسط جزيرة العرب موجة بدوية جديدة تحمل قبيلة عنزة ، فبدأ القتال بين عنزة وشمر على منوال ما حدث قبلئذ بين شمر والموالي . واستطاعت عنزة أن تدفع بشمر عبر الفرات ـ نحو منطقة « الجزيرة » في العراق ـ بعد معارك هائلة لا يزال الرواة في البادية يتحدثون عنها[1] .

ان هذه الاحداث أدت الى وقوع تغير كبير في ميزان القوى القبلية في العراق كما أدت الى ادخال دم جديد من البداوة فيه . فقبيلة شمر عند تغلغلها في منطقة « الجزيرة » كانت لا تزال تحافظ على خشونتها البدوية وما يتبع ذلك من شدة في البأس واندفاع عنيف نحو الغزو والقتال ، ولذا اضطرت العشائر التي كانت تسكن في تلك المنطقة أن تتحول الى مناطق أخرى نحو الجنوب أو نحو الشرق عبر دجلة ، فأدى ذلك بدوره الى تحول عشائر أخرى من مناطقها . ومعنى هذا أن التوزيع القبلي في العراق أصيب بما يشبه الموجة الشديدة التي تتلوها موجات أصغر منها .

الوالي الجبار :

في الوقت الذي كان فيه المد البدوي مسيطراً على العراق ـ على المنوال الذي ذكرناه ـ كان الولاة في بغداد يتعاقبون الواحد بعد الآخر

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٧٩ ـ ٨٠ .

دون أن يتمكن أحد منهم من القيام بعمل يردع العشائر أو يفرض طاعة الحكومة عليها .

تعاقب على بغداد ، منذ أن تم فتحها على يد السلطان مراد في عام ١٦٣٨ حتى نهاية القرن ، ما لا يقل عن الثلاثين واليا ، فكان كل واحد منهم كما قال سيتون لويد : لم يترك عند عزله عملاً يذكر به اللهم الا بناء قبة في جامع أو معالجة حدث مشؤوم من قبيل ثورة أو مجاعة[1] . ولكن بغداد شهدت في عام ١٧٠٤ مجيء وال ليس من طراز هؤلاء ويعد من أعظم الولاة العثمانيين قوة وحنكة هو حسن باشا[2] .

أدرك هذا الوالي « الجديد » أن المشكلة الكبرى في العراق هي مشكلة العشائر وسيطرتها على الطرق ، وتشير القرائن الى أنه استغل وجود المدافع لديه فأراد أن يرهب العشائر بها ويجلبهم الى الطاعة . وتشاء المصادفة أن تقع حادثة نهب فظيعة قام بها بعض العشائر بعد وصول حسن باشا الى بغداد بمدة قصيرة . ويصف الشيخ عبدالرحمن السويدي هذه الحادثة بما نصه :

« ففي أثناء هذه السنة قدم من الموصل الطوف الكثير المعبر عنه بالكلك ، ومعهم خير غزير من مأكول ومشروب وملبوس وغير ذلك من كل محبوب ، فبينما هو سائر في دجلة وسط الطريق اذ خرجوا على أهله آل شهوان وآل غريسر من فرق الاعراب العراقية وجملة الاحزاب المنافقية ، فنهبوا أكثر الأموال ، وقتلوا غالب الرجال ، وجاء الباقون الى بغداد ينادون بالويل والثبور ، ويبثون للوزير هاتيك الأمور ، وفي أثناء

---

(١) سيتون لويد (المصدر السابق) ص ٢٤٧ .

(٢) اشتهر هذا الوالي باسم « جديد حسن باشا » ، ولا تزال في بغداد محلة تعرف بهذا الاسم ، ويقال انه من أصل أموي ، وهو انما لقب ب « الجديد » لتمييزه عن سمي له كان قد حكم العراق من قبل .

هذه السنة أيضاً قطع أولئك الأعراب طريق كركوك ونهبوا قراها وقتلوا وصلبوا روح من تصدى لحماها »[١] .

يبدو أن حسن باشا أراد أن يجعل من تلك العشائر عبرة لغيرها ، فحشد عليها جيشاً قوياً تصحبه المدافع وسار بنفسه على رأس الجيش فحاصر جمعهم في موضع جنوب الموصل يقال له « الخانوقة » وأمطرهم بوابل من القنابل فقضى على الكثير منهم ، وألقى القبض على رئيسهم ، ونهب الجنود أموالهم ، ولكنه لم يسمح للجنود بالتعرض للنساء على خلاف ما اعتادت عليه الجيوش في تلك الايام[٢] .

وحين عاد حسن باشا الى بغداد منتصراً أوعز بكتابة كتاب شديد اللهجة وبنسخ متعددة ليرسلها الى مختلف العشائر العراقية يحذرها فيه وينذرها . وفيما يلي ننقل جزءاً من الكتاب لما فيه من دلالة على ما كان العراق فيه يومذاك من وضع اجتماعي عجيب :

« بعد حمد من خلق العباد في عالم الكون والفساد ، والصلاة والسلام على خير الأنام محمد المرسل لقمع أهل البغي والعناد والتمادي في الفساد وعلى آله وأصحابه الذين شيدوا الاحكام وسددوا أمور الأنام . فهذا كتابي وارد عليكم معاشر أهل البادية ... قد أُمرتم بطاعة السلطان منذ أزمان ، ونُهيتم عن الفساد والطغيان ، ففرّطتم في الفساد ونصرتم جيش أهل البغي والافساد ، واشتكت الناس من ضركم حيث أضرمت نار بغيكم وشركم ، فكأنما أمرتم بالعكس ، حتى نهبتم الأموال ، وأبحتم قتل النفس ، ولم ترعوا شعائر الاسلام ... ولا تغرنكم كثرتكم فسيفنا صقيل ولا يأمنكم شطوطكم ونبوتكم فرمحنا طويل ... وقد أفتى العلماء بهدر

(١) عبدالرحمن السويدي (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء) — تحقيق صفاء خلوصي — بغداد ١٩٦٢ — ج١ ص ١٨ .
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج ٥ ص ١٦٣ .

دمائكم وسبي نسائكم وامائكم • وان عزمتم على القتال فاعلموا أن قد دنت منكم الآجال ••• فان هربتم الى الأقطار القاصية ، وذهبتم الى الامصار النائية ، فالوصول اليكم غير بعيد وحصد رؤوسكم ليس علينا بأمر جديد »[1] •

يبدو أن العشائر لم تكترث لهذا التهديد ، ولعلها حسبته كغيره من تمشدقات الولاة السابقين ، اذ لم تمض عليه سوى مدة قصيرة حتى بدأ بنو لام يهاجمون نواحي بغداد حتى وصلوا بغاراتهم الى خان بني سعد • واذ ذاك توجه اليهم حسن باشا بجيشه ومدافعه وأخذ يطاردهم ، فالتجأوا الى جبال بشتكوه غير أنهم لم يتمكنوا من النجاة ، واستطاع حسن باشا أخيراً أن يضربهم ضربة قاصمة وينهب أموالهم[2] •

كانت هذه بداية معارك عديدة بين العشائر وجيوش الحكومة استمرت بضع عشرة سنة من غير توقف ، وكان حسن باشا أثناء ذلك يخرج من حرب مع احدى العشائر ليدخل في حرب مع أخرى • ولم تسلم من ضرباته سوى عشيرة قشعم التي كانت تسكن البادية غرب الفرات ، فقد كان رئيسها شبيب طائعاً للحكومة وموضع ثقة الوالي ولهذا أضمر العشائر له العداء وحاولوا اهانته ونهبوا بيته غير مرة[3] •

الحلف العظيم :

إن الشدة التي اتبعها حسن باشا في قمع العشائر دفعت مجموعة كبيرة منها في أواخر ١٧٠٨ الى التحالف ضده برئاسة مغامس المانع شيخ مشايخ المنتفق ، وقد احتل هذا الشيخ البصرة واجتمعت اليه نجدات من شتى العشائر كشمّر والخزاعل وزبيد والمياح وغزية وآل سراي وبني خالد ، حتى بلغ عدد من معه مائة ألف أو يزيدون •

(١) عبدالرحمن السويدي (المصدر السابق) ج١ ص٢٣ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص١٦٥ •
(٣) المصدر السابق ، ج٥ ص ١٨٤ •

والتقى هذا العدد الضخم بجيش حسن باشا في الصحراء على مقربة من البصرة ، فوقعت بينهما معركة طاحنة قيل إن عدد القتلى فيها بلغ عشرة آلاف فتكدست جثثهم في ساحة القتال • وانتهت المعركة بانتصار جيش الحكومة فأخذ حسن باشا يعطي الذهب والفضة لكل من يأتيه برأس أحد القتلى أو بقلبه •

اعتبرت تلك الواقعة من مفاخر حسن باشا ، وحين عاد الى بغداد بعد الانتصار فيها استقبل استقبال الفاتحين ونظم الشعراء في مدحه قصائد عديدة ـ باللغة الفصحى والعامية ـ ولقبه بعضهم « أخو فاطمة » •

يرى المؤرخ عباس العزاوي أن العشائر العراقية لو كانت قد انتصرت في تلك المعركة لنال العراق استقلاله منذ ذلك الحين[1] • وهذا رأي لا أعده من الناحية الاجتماعية مصيباً ، فليس في مقدور مجموعة من العشائر مهما كانت قوية أن تنال استقلالاً سياسياً لبلادها • من طبيعة العشائريين أن اتفاقهم موقت وتنازعهم دائم ، فاذا أتيح لهم أن يتفقوا على أمر ما ، وينالوا فيه انتصاراً ، فسرعان ما يختلفون فيه ويتنازعون بعد نيل الانتصار ، وهم بذلك لا يستطيعون أن يؤسسوا لأنفسهم كياناً سياسياً ثابتاً •

هناك تناقض طبيعي بين العصبية القبلية وتكوين الدولة • فلو أن رؤساء العشائر الذين اتفقوا على حرب حسن باشا كانوا قد انتصروا عليه لما كان انتصارهم هذا ذا جدوى لهم ، ولو فرضنا انهم استطاعوا آنذاك أن يطردوا الدولة العثمانية من العراق لما استقام أمرهم بعد ذلك الا قليلاً ، فان انقسامهم على أنفسهم لابد أن يغري دولة أخرى على غزو بلادهم ، وهم عندئذ سيكونون فريقين : فريق مع الدولة الغازية وفريق عليها • إن هذه هي عادة العشائر في كل زمان ومكان ولا يمكن أن يتخلوا عنها الا اذا تخلوا عن عصبيتهم القبلية •

(١) المصدر السابق ، ج٥ ص١٧٩ •

الفصل الرابع

انهيار الدولة الصفوية

وظهور نادر قلي

في الوقت الذي كان فيه حسن باشا يعمل على إخضاع العشائر ويثبت دعائم الدولة العثمانية في العراق ـ على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق ـ كانت الدولة الصفوية في ايران تسير نحو الموت بخطى سريعة حتى أصبحت على حد تعبير المؤرخ البريطاني السرجون مالكولم : « كأنها بناء ضخم على وشك الانهيار »[1] .

تم انهيار الدولة الصفوية أخيراً على يد احدى القبائل الافغانية ، ومن الجدير بالذكر هنا أن الدولة الصفوية كانت في أيام قوتها قد احتلت جزءاً كبيراً من بلاد الافغان ، واضطهدت السنيين فيها ، ولكنها لم تنجح في تحويلهم الى التشيع كما نجحت في ايران ، وظل الافغانيون ـ لا سيما القبائل منهم ـ يتحينون الفرصة للانتقاض على الدولة الصفوية والانتقام منهـــا .

مير ويس :

في عام ۱۷۰۷ ذهب مير ويس أحد رؤساء القبائل الافغانية الى الحج ،

(1) Percy Sykes (A History of Persia) — London 1958 — vol. 2, p. 237.

وهناك استفتى فقهاء المذهب الحنفي ـ وكان من اتباع هذا المذهب ـ في أمر قتال العجم ونهب أموالهم وسبي نسائهم وأطفالهم فأفتوه كلهم بذلك الا الفقيه عبدالكريم السندي فانه امتنع عن مثل هذه الفتوى • ولما قضى مير ويس حجه ذهب الى المدينة وبذل مالاً كثيراً من أجل أن يبيت داخل الشباك النبوي ، فبات فيه على نية قتال العجم وعندئذ رأى النبي في المنام وهو يقلّده سيفاً • ولما استيقظ مير ويس من النوم فرحاً حيث اعتقد أن النبي اذن له في قتال العجم وفي نهب أموالهم وسبي ذراريهم[1] •

كان لهذه الرؤيا التي رآها مير ويس داخل الشباك النبوي تأثير عظيم فيه ، فقد كان من العقائد الشائعة بين المسلمين في تلك الايام ـ ولا تزال شائعة عند الكثير منهم حتى يومنا هذا ـ أن من يرى النبي في منامه فهو قد رآه حقاً لأن الشيطان لا يتمثل به ، ولذا فان ما يقوله النبي لاحد المسلمين في المنام يعدّ أمراً مقدساً أو نبوءة صادقة[2] • ومن هنا وجدنا مير ويس يعود الى بلاده وهو مؤمن كل الايمان أنه يقوم بانجاز مهمة كلّفه النبي بها وهي ناجحة « باذن الله » •

التف حول مير ويس عدد كبير من الاتباع ، علاوة على اتباعه من ابناء قبيلته ، وأخذ يشن بهم الغارات على الدولة الصفوية • وقد نال أول انتصار مهم في عام ١٧٠٩ حيث فتح بلدة قندهار بعد أن قتل حاكمها ومعظم حاميتها الايرانية • ومنذ ذلك الحين صارت حركته تتسع شيئاً فشيئاً وتكسب النصر مرة بعد أخرى • وفي خلال بضع سنوات تمكن من تأسيس دولة افغانية ذات شوكة لا يستهان بها •

---

(١) عبدالرحمن السويدي (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء) ـ تحقيق صفاء خلوصي ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ج١ ص ٨٦ •

(٢) انظر في تفصيل ذلك كتاب « الاحلام بين العلم والعقيدة » للمؤلف ـ بغداد ١٩٥٩ ـ المقدمة والقسم الاول •

مير محمود :

توفي مير ويس في عام ١٧١٥ فخلفه على العرش ابنه مير محمود ، وكان هذا شجاعاً الى أبعد الحدود ولكنه كان من الناحية الأخرى قاسياً الى أبعد الحدود أيضاً ، ومن المحتمل أنه كان مصاباً بمرض « الصادية » الخبيث .

تغلغل مير محمود بجيوشه في ايران ، وفي عام ١٧٢٢ فتح العاصمة أصفهان بعد حصار شديد وأسر الشاه حسين آخر ملوك الدولة الصفوية . وفي ذات يوم من السنة التالية أقام في أصفهان وليمة كبرى دعا اليها زهاء ثلاثمائة من أعيان البلدة ، وعندما استقر المجلس بهم أمر بذبحهم جميعاً وبرمي جثثهم في الميدان الكبير ، ثم أرسل من يذبح نحو مائتين من أطفالهم . وأصدر بعدئذ قراراً بذبح جميع الجنود الايرانيين الذين انضموا اليه أثناء حصار أصفهان ، وكان عددهم ثلاثة الآف ، معللاً قتلهم بأنهم ما داموا قد خانوا ملكهم فلا خير يرجى منهم لأنهم سيخونونه ايضاً في الفرصة المناسبة . والظاهر أنه كان يزداد تعطشاً للدماء كلما أمعن في القتل ، فقد أصدر قراراً ثانياً بقتل كل شخص كان في خدمة الشاه السابق، واستمرت المذبحة في هؤلاء خمسة عشر يوماً ، دون أن تبدو منهم أية محاولة للمقاومة ، حتى كادت أصفهان تفرغ من سكانها .

وفي عام ١٧٢٥ قرّر مير محمود قتل جميع أفراد الاسرة الصفوية باستثناء الشاه ، فصفّوا بأمره في ساحة القصر وقد ربطت أيديهم الى ظهورهم ، وكان بينهم طفلان من أولاد الشاه ، وتقدم مير محمود بنفسه مع اثنين من جلاوزته فأخذوا يقتلونهم شدخاً بالسيف . وهنا شوهد منظر مفجع للغاية إذ صادف أن كان الشاه السابق قريباً من ساحة المذبحة فأسرع اليها على إثر سماعه صراخ القتلى ، واذ ذاك جرى نحوه طفلاه لائذين به وهما يحسبان أنه قادر على انقاذهما من القتل ، وفي تلك اللحظة

كان مير محمود شاهراً سيفه وراءهما قاصداً قتلهما ، فرفع الشاه يده لدرء السيف عنهما ولكنه لم يتمكن من انقاذهما إذ قتلهما مير محمود ، وأصيب الشاه من جراء ذلك بجراح ...

اتضح لمن شهدوا الحادثة أن مير محمود لابد أن يكون مصاباً بخلل في عقله لأن هذا أمر لا يمكن أن يقوم به ذو عقل سليم . ولم تمض على تلك الحادثة سوى أيام معدودة حتى أخذ الاختلال العقلي يظهر على مير محمود بوضوح ، فصار يقذف بالشتائم في وجه كل من يتقرب منه ويعض نفسه في هياج .

قرر قادة الافغان أخيراً أن يعزلوه عن الملك ،فأطلقوا سراح ابن عمه أشرف خان الذي كان مسجوناً ، واستطاع هذا أن يجمع حوله بضع مئات من الاتباع فيزحف بهم نحو القصر الملكي في أصفهان ويستولى عليه . وبعد ثلاثة أيام وجد مير محمود ميتاً ، ولم يعرف هل مات ميتة طبيعية أو مات مقتولاً ، وفي اليوم التالي نصب أشرف خان مكانه ملكاً[١] .

صدى الأحداث في بغداد

كان والي بغداد حسن باشا يرقب أحداث ايران بعين اليقظة والحذر ، وقد جاءته الأوامر من اسطنبول تأمره باعداد مراكز دفاعه إعداداً وافياً مخافة أن ينتهي الأفغان من احتلال ايران ثم يتوجهوا نحو فتح العراق ، فأخذ ينظف خندق بغداد ويرمم سورهاالمتداعي[٢] .

وكان حسن باشا في بداية الأمر أراد أن يسبر غور مير محمود فأرسل اليه كتاباً يسأله عن مقصده من الهجوم على ايران فكان جواب

---

(1) Laurence Lockhart (The Fall of The Safavi Dynasty) — Cambridge 1958 — p. 207 — 211.

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ــ ترجمة جعفر خياط ــ بغداد ١٩٦٢ ــ ص ١٢٨ .

مير محمود : « أنه رأى من واجبه الديني وحميته الاسلامية أن يطهر البلاد من الكفرة الفسقة الذين عاثوا في الأرض فساداً وأنه على الشريعة الاسلامية السمحاء وليست له أطماع وأغراض أخرى ، كما وأنه من الموالين للدولة العثمانية ويستمد منها العون لشد أزره في سبيل المحافظة على شعائر الدين الاسلامي وإزالة الكفر والفسوق من بين المسلمين » . وأرسل مير محمود هذا الجواب بيد سفيره الخاص محمد صادق خان ، ولما وصل هذا السفير الى بغداد أخذ يحث حسن باشا على مساعدة مير محمود وتقويته ليتمكن من الاستيلاء على البلاد الايرانية كلها ويكون حليفاً مخلصاً للدولة العثمانية[1] .

يبدو أن حسن باشا كان طامعاً في ايران[2] وقد هاله ما رأى من انهيار سريع للدولة الصفوية على أيدي القبائل الافغانية ، وربما تأسف لأن انهيار تلك الدولة لم يتم على يده ، ولهذا أخذ يشجع اسطنبول ويحرضها على انتهاز الفرصة السانحة ومهاجمة ايران بغية الاستحواذ على الاجزاء الباقية منها قبل فوات الأوان . وقد نجح هذا التحريض في اسطنبول ،فسرعان ما أصدر الشيخ عبدالله مفتي اسطنبول فتوى تدعو الى الجهاد في سبيل محاربة « الروافض » وشد أزر مير محمود . وكانت خلاصة الفتوى حسبما رواها صاحب كتاب « دوحة الوزراء » كما يلي :

« لما كان الروافض المقيمون في ايران منذ عهد اسماعيل الصفوي قد عاثوا في الارض الفساد وأعلنوا سب الصحابة الكرام أبا بكر وعمر وعثمان وكفروهم باستثناء علي ، وقذفوا الصديقة عائشة وابتعثوا مذاهب

(١) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٣ ـ ج ٥ ص ٢٠٢ .

الزنادقة ممن سبقوهم وتأولوا الآيات القرآنية بحسب ميولهم وقاموا بمقاتلة من ينتسب الى أهل السنة والجماعة وأباحوا نساءهم وفعلوا غير ذلك من الأعمال المنكرة فان بلادهم تعتبر ديار حرب وتطبق عليهم أحكام الشريعة فيما يختص بالمرتدين وتجب محاربتهم وتطهير البلاد منهم »[1] .

واستحصل شيخ الاسلام فتويين أخريين من علماء الدين بهذا الصدد ، والملاحظ أن أمثال هذه الفتاوى لم تكن تصدر خلال التسعين سنة الماضية ـ عندما كان الصلح قائماً بين الدولتين الصفوية والعثمانية ـ ثم رأيناها تصدر على حين غرة عندما أصبحت الدولة الصفوية في آخر رمق من حياتها • وقد علّق عباس العزاوي على ذلك حيث قال : « من هذا الوضع السياسي وتلك الفتوى يُعرف أن الغرض الاستيلاء فاتخذ الدين وسيلة لتهييج الرأي العام • وإن شيخ الاسلام لا يتخلف عن إصدار فتوى مثل هذه • وهكذا يفعل الايرانيون في حروبهم مع العثمانيين ••• »[2] .

وصدرت الأوامر الى حسن باشا بأن ينهض لغزو ايران • فجهز هذا جيشاً يضم الكثير من العشائر العراقية كالخزاعل وغيرهم ، ولما وصل الجيش الى مقربة من كرمانشاه ـ في عام ١٧٢٣ ـ خرج اليه حاكمها عبدالباقي خان مع أعيان البلدة وسلم له مفاتيح البلدة ، فعامل حسن باشا السكان معاملة طيبة •

قضى حسن باشا الشتاء في كرمنشاه والظاهر أن الحركات الاخيرة هدت قواه وكان قد بلغ السبعين من عمره فمات قبل حلول الربيع • وقد امتنع أصحابه من أن يدفنوه هناك خشية أن ينبش الاعداء رفاته فيما بعد ، فشُقت بطنه وغُسلت أمعاؤه وحُشيت بالمسك والعنبر والكافور ، ثم

(١) رسول الكوكولي (المصدر السابق) ص ١٧
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٠٦ .

نُقلت جثته الى بغداد فدُفنت في جوار أبي حنيفة في الأعظمية[1] . وكان يوم وصول جنازته الى بغداد يوماً مشهوداً ساد الحزن فيه على الناس وندبه الرجال والنساء ، وأقيمت المآتم العديدة له .

أحمد باشا :

صدر الفرمان السلطاني بأن يخلف حسن باشا على ولاية بغداد ابنه أحمد باشا وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي يخلف الابن أباه على ولاية بغداد في العهد العثماني . والواقع أن أحمد باشا لم يكن يقل عن أبيه في الحزم وقوة الشخصية ، ولم يكد يتسلم زمام الحكم حتى توجه على رأس جيش كبير نحو ايران . وفي ربيع ١٧٢٤ وصل الى همدان ففرض الحصار عليها ، وقد أبدت حامية البلدة بسالة في الدفاع عنها ولكن المدافع العثمانية المتفوقة استطاعت أن تحدث في السور فجوات ، فانتقل القتال الى شوارع البلدة واستمر ثلاثة أيام بلياليها . وحل عيد الاضحى في اليوم الثالث من المعركة فكانت ضحاياه من البشر . ثم انتهى القتال بهدنة كان من شروطها أن تكون همدان ولاية عثمانية وأن يُذكر اسم السلطان في الصلاة العامة . وعندما وصلت البشائر بفتح همدان الى اسطنبول لبست حلة قشيبة بالأفراح ، وكتب السلطان بيده كتاب شكر الى الوالي أحمد باشا[2] .

مما يجدر ذكره أنه في الوقت الذي كان فيه أحمد باشا مشغولاً في ايران اغتنمت العشائر العراقية فرصة غيابه فعمت الفوضى في أرجاء البلاد ـ من المدن المقدسة الى ديار بكر ـ فاضطر أحمد باشا أن يترك الجبهة ويعود الى بغداد على وجه السرعة[3] ، وأنزل بالعشائر المتمردة

---

(١) عبدالرحمن السويدي (المصدر السابق) ج١ ص١١١ .
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٣١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

ضربات شديدة ونهب أموالها • ولكنه لم يكد يستقر في بغداد بعد طول العناء والسفر حتى ظهرت بوادر تحالف ضخم بين العشائر ضده •

ففي خريف ١٧٢٥ وصلت الأنباء الى بغداد تشير الى اجتماع عدد كبير من رؤساء العشائر في بلدة الكفل كان فيهم رؤساء شمر وبني لام وساعدة وآل شبل وغيرهم ، وقيل إنهم عقدوا حلفاً عشائرياً واسع النطاق لم يشهد العراق له مثيلاً من قبل • ثم صاروا يغيرون على القرى ويقطعون الطرق ، واستمروا على ذلك بضعة أشهر ••

في أوائل أيار من عام ١٧٢٦ شن أحمد باشا هجوماً مفاجئاً على الحلف العشائري وأبدى هو نفسه شجاعة نادرة فكان يخترق الصفوف بسيفه • وانتهت المعركة بانتصاره وبهزيمة العشائر المتحالفة • وعند رجوعه الى بغداد امتدحه شعراء كثيرون منهم الشيخ عبدالله السويدي والشيخ حسين الراوي والسيد عبدالله أمين الفتوى[١] •

النزاع العثماني الافغاني :

عندما تولى أشرف خان امارة الافغان في نيسان من عام ١٧٢٥ بدأ النزاع بينه وبين الدولة العثمانية ، وقد اتخذ النزاع في بداية الأمر شكل الجدال الفقهي ثم تحول أخيراً الى قتال بالسيف •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الدولة العثمانية كانت منذ بضع سنوات قد تحالفت مع روسيا واتفقت واياها على اقتسام ايران ، وقد اتخذ أشرف خان ذلك الاتفاق حجة بيده وصار يلوم الدولة العثمانية على تعاونها مع دولة نصرانية[٢] ، وأعلن أنه أولى من غيره بحكم ايران وأن الجيوش العثمانية يجب أن تنسحب منها •

عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢١٥ •

(2) Percy Sykes (Op. Cit.) vol. 2, p. 239.

أرسل أشرف خان سفيراً الى اسطنبول اسمه عبدالعزيز سلطان ، وقد حمل السفير معه محضراً موقعاً من قبل تسعة عشر فقيهاً أفغانياً يؤيدون فيه جواز تعدد الائمة ـ أي جواز أن يكون في الاسلام أكثر من خليفة واحد ـ وذلك لكي يكون لاشرف خان حق في حكم ايران ، وجاء في المحضر كذلك قولهم إنهم من سلالة خالد بن الوليد ولهذا فهم أولى بالخلافة من آل عثمان الأتراك استناداً على الحديث القائل « الائمة من قريش » .

إن الدولة العثمانية تستطيع أن تتحمل أي رأي عدا مثل هذا الرأي الذي يبعث الريب في صحة خلافتها ، ولذا انزعج المسؤولون في اسطنبول كل الانزعاج عند وصول السفير الافغاني وتقديم محضره اليهم ، وسرعان ما اجتمع فقهاء اسطنبول وكتبوا محضراً مضاداً استندوا فيه الى الحديث القائل : « اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الثاني منهما » . وأصدر شيخ الاسلام فتوى مؤداها أنه لا يصح اجتماع إمامين الا اذا كان بين مملكتهما حاجز عظيم ، وإلا فيعد الثاني باغياً وقتاله واجب[1] .

وبناء على فتوى شيخ الاسلام صدر الفرمان السلطاني باعلان الحرب على أشرف خان باعتباره باغيا وأرسلت الأوامر بذلك الى أحمد باشا في بغداد ، وكان الشيخ عبدالله السويدي يعتبر آنذاك أعلم علماء السنة في العراق كله فانبرى يؤيد فتوى شيخ الاسلام ويفنّد فتوى فقهاء الافغان .

المعركة العجيبة :

وأخيراً توجه أحمد باشا نحو محاربة أشرف خان على رأس جيوش جرارة بلغ تعدادها ستين ألفا يصحبها سبعون مدفعاً . والتقى الفريقان في موضع بين همدان واصفهان في العشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٧٢٦ .

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢١٧ ـ ٢١٩ .

كان أشرف خان يعرف ضعف جيشه تجاه الجيش العثماني ، إذ لم يكن لديه سوى عشرين ألف مقاتل وكانت مدافعه صغيرة بالنسبة لمدافع خصمه ، ولكنه أدرك أن في وسعه توهين قوة خصمه عن طريق الدعاية وبحيلة تشبه حيلة « رفع المصاحف » التي لجأ اليها معاويــة في معركـة صـفين •

أعد أشرف خان منشورات تتضمن استنكار القتال بين أهل السنة ، وأرسل من يوزعها خفية في المعسكر العثماني ، وكذلك أرسل من يقـدم الوعود والهدايا الى بعض رؤساء العشائر الكردية الذين كانوا في ذلك المعسكر • وبلغت خطة أشرف خان قمتها حين أرسل أربعة فقهاء محترمين الى أحمد باشا ليسألوه علانية : كيف يجوز له أن يحاربهم مع العلم أنهم سنيون مثله وأنهم مطيعون للشريعة الاسلامية في محاربة الروافض ؟! وبينما كان هؤلاء الفقهاء يجادلون أحمد باشا إذ ارتفع صوت الآذان للصـلاة ، فنهضـوا بصمت وأخذوا يقيمون الصلاة في وسط الجيوش العثمانية فأحدثوا فيهـا تأثير نفسياً عميقاً •

أثمرت هذه الاساليب البارعة في إضعاف معنوية الجنود العثمانيين ، والظاهر أن أحمد باشا لم يكن قد أعارها أي اهتمام اعتماداً على شجاعته وما كان لديه من جيوش جرارة ومدافع ضخمة • فلما نشبت المعركـة أحس بفداحة الضربة التي وجهت اليه دون أن يعلم ، فقد انسحب من صفوفه جميع الاكراد تقريباً ، كما انسحب آخرون ، وعند هذا أمـر بالتراجع العام بعد أن ترك في الميدان اثنى عشر ألف قتيل[1] ، فكانت تلك من اكبر الهزائم التي لحقت بالجيوش العثمانية في تاريخها الطويل •

وفي أواخر ١٧٢٧ تم الصـلح بين الفريقين ، وكان من شـروط الصلح أن تبقى المناطق المفتوحة من ايران في حوزة من فتحها ، وأن يعترف

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٣٢ •

أشرف خان بخلافة السلطان العثماني ويبقى هو ملكاً على ايران وكالة عن السلطان • ثم أرسل أشرف خان هدايا ثمينة الى السلطان توثيقاً لأواصر الصلح بينهما ، وكان من بين الهدايا فيل مدوب عليه سرير في شكل قبة ويجلس على رأسه ثلاثة رجال • وجيء بالفيل الى بغداد في طريقه الى اسطنبول وخرج الناس للتفرج عليه ، وجلس الوالي أحمد باشا في مسقف في باب المعظم فتقدم الفيل نحوه هو يومىء بخرطومه كأنه يسلّم عليه • وخلع الوالي عليه جائزة • وقد مات الفيل عند وصوله إلى ديار بكر من شدة البرد[1] •

ظهور نادر قلي :

عندما خرج أهل بغداد يتفرجون على الفيل كانوا يحسبون ان النزاع الايراني العثماني قد انتهى الى الأبد وأنهم سيستريحون من « البلوى » المزمنة التي جرها عليهم • لم يدروا أن جباراً من جبابرة التاريخ قد ظهر في ايران وأنه سائر نحو اشعال ذلك النزاع من جديد ـ إنه نادر قلي الذي عرف فيما بعد باسم « نادر شاه » •

يعد نادر قلي من طراز الاسكندر أو جنكيز خان ، وقد أطلق عليه الأوربيون لقب « نابليون الشرق » • ولا يسعنا المجال أن نتحدث باسهاب عن سيرة هذا الرجل ، يكفي أن نقول إنه كمعظم جبابرة التاريخ نشأ نشأة وضيعة إذ كان في صباه راعياً للغنم بالقرب من خراسان ، ثم ارتقى بعدئذ فصار قاطع طريق تتبعه عصابة من الاشقياء ، وأخذ أتباعه يزدادون بمرور الايام حتى بلغ عددهم في عام ١٧٢٧ ـ وهو عام الفيل بالنسبة لأهل بغداد ـ زهاء خمسة الآف محارب •

وفي ذات ليلة رأى نادر قلي في منامه الامام علياً وهو يقلده سيفاً

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٢٢ •

ويهيب به لانقاذ ايران ويعده بالعرش ، فكان هذا الحلم له بمثابة نقطة تحول في حياته حيث أيقن بأنه مكلف بمهمة يجب أن يؤديها . وصادف في ذلك الحين أن ظهر في مازندران رجل يطالب بعرش ايران يدعى طهماسب شاه وهو ابن الشاه حسين آخر ملوك الدولة الصفوية ، فأسرع نادر قلي اليه واضعاً نفسه واتباعه تحت أمره .

وضع طهماسب شاه ثقته في نادر قلي وسلّمه قيادة جيشه ومنحه لقب « طهماسب قلي » أي غلام طهماسب[1] . وأخذ نادر قلي يكسب الانتصارات تباعاً ، فلم تنته سنة ١٧٢٩ حتى كان قد تمكن من طرد الافغان من ايران ، وقضى على رئيسهم الداهية أشرف خان . وفي السنة التالية استطاع أن يطرد العثمانيين من مناطق ايران الغربية ، وبهذا استعادت ايران حدودها القديمة وخيل للناس أن الدولة الصفوية عادت الى الحياة من جديد .

عند وصول نبأ تلك الانتصارات المذهلة الى اسطنبول أعلنت الدولة النفير العام ، وأصدر السلطان أمره الى والي بغداد أحمد باشا بوجوب السفر فوراً الى ايران « لتأديب هذا العدو الغادر ودحره »[2] . وفي ١٦ أيلول ١٧٣١ التقى الجيشان العثماني والايراني في موضع يبعد عن همدان مسيرة يوم واحد .

كان طهماسب شاه نفسه يقود الجيش الايراني ، ولم يكن نادر قلي حاضراً إذ كان يومذاك في خراسان ، فاستطاع أحمد باشا أن يوقع به هزيمة منكرة حيث أضاع طهماسب فيها نصف جيشه وجميع مدافعه .

---

(١) ان هذا هو الاسم الذي اشتهر به نادر بين سكان العراق عند مجيئه الى العراق لفتحه ، وقد اختزل الاسم على ألسنة العامة فصار « طهماز » .

(٢) رسول الكركولي (المصدر السابق) ص ٢٥ .

وبعد مفاوضات طويلة عقد صلح بين الفريقين تنازل فيه طهماسب للدولة العثمانية عن جورجيا وأرمينيا[1] .

حين سمع نادر قلي بهذا الصلح تملكه الغضب وعزم على فسخه ، وأسرع الى أصفهان فعزل طهماسب ونصب مكانه على العرش ابنه البالغ من العمر ستة أشهر ، وجعل من نفسه وصياً على هذا الملك الصغير . ثم أرسل الى أحمد باشا كتاباً يتوعده فيه وينذره بأنه زاحف نحو بغداد لفتحها حيث قال له : « ليكن معلوماً لديكم ، يا باشا بغداد ، أننا نطالب بحق لا نزاع فيه في زيارة قبور الائمة علي والحسين والمهدي وموسى . ونطالب بجميع الايرانيين الذين أسروا في الحرب الأخيرة ... ونحن سائرون حالاً على رأس جيشنا المظفر لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ولنستريح في ظل أسوارها »[2] .

حصار بغداد :

في الأيام الاولى من عام ١٧٣٣ عبر نادر قلي نهر ديالى من جهة بهرز ، وتقدم نحو بغداد ففرض الحصار على جانب الرصافة منها . وبعد محاولات عديدة غير مجدية لعبور دجلة تمّ له أخيراً نصب جسر على النهر – بمعونة مهندس أوربي – على بعد عدة أميال من شمال بغداد ، وبهذا استطاع تطويق بغداد من جميع جهاتها فانقطع عنها التموين وأخذت أسعار الاطعمة فيها ترتفع شيئاً فشيئاً .

أمر أحمد باشا سكان جانب الكرخ أن يتركوا دورهم وينتقلوا الى جانب الرصافة ليكونوا في حماية السور المنيع المحيط به ، وكان هذا خطأً منه لانه أضاف الى السكان المحصورين عبئاً جديداً ، والظاهر أنه كان

(1) Edward Browne (A Literary History Of Persia) — Cambridge 1953 — vol. 4, p. 134.

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٣٥ .

يأمل قرب وصول المدد الذي أرسله السلطان لانقاذ بغداد . ومهما يكن الحال فقد كان انتقال جماهير كثيرة من جانب الى آخر عبر دجلة أمراً صعباً مليئاً بالاهوال إذ لم يكن على النهر يومذاك سوى جسر واحد ، وهو جسر بدائي منصوب على سفن ، وقد استخدم الناس في عبورهم وسائل أخرى كالزوارق والقفف ، وطالت مدة العبور ثلاثة أيام عانى الناس فيها أشد العناء ، فانتهكت حرمات النساء وهلك خلق كثير بما فيهم الاطفال والشيوخ والعجائز[1] .

أدرك نادر قلي أنه غير قادر على فتح بغداد عن طريق الهجوم المباشر وذلك لضعف مدافعه بالمقارنة الى المدافع العثمانية من جهة ، ولمناعة سور بغداد وصمود المدافعين عنه من الجهة الأخرى ، فلجأ الى طريقة الحصار الطويل والتجويع . والواقع أنه نجح في ذلك نجاحاً غير قليل ، فقد استفحلت المجاعة في بغداد بحيث صار الناس يأكلون الكلاب والقطط ويمتصون دماءها ويمضغون جلودها . وقد شهد الشيخ عبدالرحمن السويدي بعينه جماعة من السكان يصطادون الكلاب في الأزقة ويأكلونها ، وهجم بعض السكان ذات يوم على طعام الوالي اثناء نقله ونهبوه مما جعل الوالي يبكي لحالهم .

ويروي السويدي أنه أثناء خروجه من مسجد الشيخ عبدالقادر بعد انقضاء صلاة الجمعة متجهاً نحو منزله شاهد في طريقه امرأة ذات جمال وهي منكبة على جيفة حمار وبيدها سكين تقطع من لحمه وتضعه في حجرها ، ولما سألها عن السبب قالت إنها منذ خمسة أيام لم يدخل في جوفها شيء غير الماء[2] .

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٣٠ . وعباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ - ص٢٣٨ .

(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٣٠ ـ ٣١ .

وبلغت المجاعة حداً اضطرت فيه بعض العذارى الى بيع انفسهم برغيف من خبز الشعير[1] ، وصار الناس يأكلون الشريس وحب القطن فانتشرت بينهم الأمراض وكثر الموت « فلا تمر في طريق حتى ترى الواحد والاثنين والثلاثة أمواتاً »[2] . وقيل إن عدد الموتى بلغ حتى نهاية الحصار مائة الف ، فرميت جثث الألوف منهم في النهر ، وبقيت جثث الباقين تملأ الهواء بعدواها[3] .

وفي الوقت الذي كان فيه سكان بغداد يقاسون مثل هذه المجاعة الفظيعة ، كان أفراد الجيش الايراني ينعمون بالعيش الرغيد من جراء انفتاح طرق التموين لهم من أنحاء العراق المختلفة ، وقد امتلأت سوق معسكرهم بالسلع الرخيصة من كل نوع ، وأمر نادر قلي بهدم دور الكرخ ليُستفاد من أخشابها وأبوابها في بناء مقصورات لضباطه ، وكان هؤلاء قد جاؤا بنسائهم فسكنوا في تلك المقصورات . ولما حل يوم النيروز ـ في ٢١ آذار عام ١٧٣٣ ـ احتفل به الجيش الايراني احتفالاً بهيجاً[4] .

عاقبة الصبر :

دام الحصار سبعة أشهر أبدى فيه أحمد باشا صموداً عجيباً ولولاه لاستسلمت بغداد في وقت مبكر ، وكان أحمد باشا يتخذ شتى الوسائل في تدعيم معنويات جنوده فكان يتجول بينهم بنفسه يشجعهم ، وقد يكلف سراً بعض من يعتمد عليهم ليأتوا الى بغداد من الخارج فيتسلقوا السور ويبشروا السكان بقرب وصول الانقاذ .

وفي ذات يوم أرسل نادر قلي وفداً من العلماء الى داخل بغداد بحجة

(١) المصدر السابق ص٣٠ .
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ٥ج ص ٢٤١ .
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٤٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

المجادلة مع علمائها ، والواقع أنه أرسلهم لمعرفة ما وصلت اليه المجاعة في المدينة • وقد أدرك أحمد باشا الغرض من مجيئهم فأراد أن يستفيد من ذلك لغرضه ، فوضع في طريقهم أكداساً من أرغفة الخبز وجعل الباعة ينادون عليها أن سعر الرغيف بأربعة فلوس ، ثم أقام للوفد مأدبة دسمة جعلتهم يعتقدون أن ما بلغهم عن المجاعة في بغداد غير صحيح[1] •

وصل جيش الانقاذ أخيراً بقيادة عثمان باشا الأعرج ، وكان هذا القائد بطلاً مشهوراً ذا شخصية خلابة ، وقد استغرقت مسيرته من اسطنبول ستة أشهر تقريباً ، والتقى بجيش نادر في موضع قريب من بلد ، ونشبت المعركة الحاسمة بينهما في صباح التاسع عشر من تموز ، واستمرت تسع ساعات كان القتال فيها هائلاً مريراً • إنها كانت معركة بين عملاقين من عمالقة الحرب ، فكان عثمان باشا بالرغم من عرجه يقود جيشه بنفسه راكباً فرسه ، وقد فعل نادر قلي مثله حتى فقد أثناء القتال حامل لوائه وقُتل فرسان من تحته • وانتهت المعركة أخيراً بانتصار الاعرج وبهزيمة نادر •

الواقع أن خسارة الجيش الايراني في تلك المعركة كانت فادحة جداً ، فقد خسر فيها ثلاثين ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير ، كما خسر جميع مدافعه وكل ما كان معه من خيام وأمتعة وحيوانات وأطعمة • وأسرع نادر قلي هارباً بفلول جيشه ، فعبر الحدود عائداً الى ايران • أما عثمان باشا فقد ذهب الى الاعظمية حيث توافد عليه أهل بغداد من جميع الطبقات شيباً وشباناً يقبلون أقدامه ويمسحون عنها الغبار[2] •

عودة المهزوم :

ظن الكثيرون أن نادر قلي لن تقوم له قائمة بعد تلك الهزيمة المنكرة

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٣٢ •

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٤١ ـ ١٤٢ •

التي حلت به ، ولكنه كان رجلاً من طراز غير عادي فاستطاع أن يجمع شمل جيشه في همدان وأن يعيد له معنويته من جديد • ولم تمض على هزيمته سوى ثلاثة أشهر ، أو أقل من ذلك ، حتى رأيناه يعبر الحدود العراقية مرة أخرى •

كان همه الاكبر في هذه المرة هو الانتقام من خصمه الأعرج والقضاء عليه ، فقد أدرك أنه لا يستطيع فتح بغداد ما دام الأعرج « العملاق » موجوداً في العراق • ولهذا توجه نحو كركوك إذ كان خصمه مخيماً على مقربة منها • وفي ٢٦ تشرين الاول ١٧٣٣ نشبت الحرب بينهما ، ولكنها سرعان ما انتهت إذ أن عثمان باشا سقط عن ظهر جواده صريعاً وتشتت شمل جيشه • ولما جيء بجثته أمام نادر قلي وقف صامتاً مدة من الزمن وهو يتأملها بخشوع ، ثم أمر بحملها محروسة الى بغداد •

وعندما وصل نبأ مقتل عثمان باشا الى بغداد ساد الهلع فيها وارتفعت أسعار الاطعمة ، وأراد أحمد باشا أن يتجنب الخطأ الذي تورط فيه في المرة الماضية فأرسل المنادين ينادون في الاسواق والشوارع يأمر من لا يستطيع البقاء في المدينة أن يخرج منها ، فخرج الكثيرون من بغداد •

وصل نادر قلي بجيشه فطوق بغداد ، ولكن الحصار لم يدم في هذه المرة طويلاً ، إذ سرعان ما وصلت أنباء من ايران تشير الى نشوب ثورة فيها لمصلحة الاسرة الصفوية • وبادر نادر قلي يطلب الصلح من أحمد باشا ، وشعر هذا كأن الصلح فرج نزل اليه من السماء فوافق عليه • وبعد أن زار نادر قلي العتبات المقدسة عاد الى ايران •

تاديب العشائر :

عندما استراح أحمد باشا من المعارك واطمأن من ابتعاد نادر قلي عن بغداد ، عزم على تأديب العشائر العراقية التي انضمت الى صفوف الاعداء

وعاثت ثالأمن خلال الفترة الماضية • والظاهر أن بعض العشائر اغتنموا فرصة انشغال الحكومة في تلك الفترة فأخذوا يعبثون في البلاد كما يشتهون ، وكانت عشيرة شمر ـ بوجه خاص ـ قد ساعدت نادر قلي مساعدة كبيرة حيث قام بعض أفرادها بدور الأدلاء والجواسيس له فكانوا ينقلون له الأخبار يومياً ويطلعونه على كل صغيرة وكبيرة •

بدأ أحمد باشا بتأديب عشيرة شمر ثم أعقبها بعشيرتي قشعم وزبيد ، ولما جيء برؤسائهم أمامه أعلنوا التوبة وتعهدوا له بالطاعة فأطلق سراحهم[١] •

لم تدم طاعة العشائر الا قليلاً ، ففي السنة التالية ارتأت الدولة العثمانية نقل أحمد باشا الى ولاية أورفه ولم يكد هذا الوالي الحازم يغادر بغداد حتى عادت العشائر الى عادتها القديمة • ولم يقتصر الأمر على العشائر فقط بل أخذ الانكشاريون يشغبون أيضاً وأكثروا من القتل والفوضى في بغداد • وعند هذا أدركت الدولة أن العراق يختلف عن غيره من الولايات العثمانية من حيث كثرة العشائر فيه وحاجته الى حاكم قوي قادر على قمعها ، فأرجعت أحمد باشا الى ولاية بغداد •

عند وصول أحمد باشا الى بغداد في عام ١٧٣٦ استقبله الأهالي بفرح عظيم ، ومدحه اسماعيل الروزنامجي بقصيدة تركية كما مدحه آخرون بقصائد عربية[٢] • وبدأ أحمد باشا بتأديب الانكشاريين فقتل بعض رؤسائهم وأبعد البعض الآخر منهم ، ثم توجه بعدئذ نحو بني لام فكسرهم ونهب أموالهم •

ثورة سعدون :

في عام ١٧٣٨ ثار الأمير سعدون شيخ المنتفق ومعه عشرة آلاف مقاتل ،

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٣٥ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٥٠ •

ونزل في موضع بين النجف والكوفـــة وأخذ يتحكم في الناس قائلاً : « أنا السلطان في هذه الديار • وما شأن أحمد باشا وما السلطان ؟ إني إن شاء الله آخذ بغداد واحكم فيها بالعدل » • ثم أرسل قوة لمحاصرة الحلة ، وأخرى لمحاصرة البصرة وقال عن البصرة إنها ملكهم وإنهم كانوا يأخذون منها الاتاوة كل سنة وليس للروم ـ اي الترك ـ أي حق فيها[1] •

استمر سعدون في حركته زهاء أربع سنوات ، واستطاع أن يسيطر على مناطق واسعة من الفرات الأسفل والأوســـط ، وفرض الاتاوة عـلى المسافرين فلم يسلم منه حتى وكلاء الشـــركات الانكليزية والفرنسية في البصرة[2] ، غير أن حركته انتهت بمقتله في عام ١٧٤١ على إثر معركة بينه وبين جيش الحكومة • وعندما جاء الخبر بمقتله الى أحمد باشا أنعم هذا على البشير وعلى القـاتل بالعطايا الكبيرة ، ثم أمـر بأن يسلخ رأس القتيل ويحشى تبناً ويرسل الى اسطنبول[3] •

---

(١) المصدر السابق ج٥ ص ٢٥٦ •
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٥٤ •
(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٥٨ •

الفصل الخامس

نادر قلي ومشروع المذهب الخامس

درسنا في الفصل الماضي شيئاً من سيرة نادر قلي ومحاصرته بغداد ، وسنحاول في هذا الفصل أن ندرس شيئاً من أعماله التي تلت ذلك ولا سيما فيما يخص مشروعه في التقريب الطائفي الذي بذل في أواخر عهده جهوداً كثيرة • ان البحث في هذه النقطة قد يلقي ضوءاً على بعض الجوانب الغامضة من تاريخ المجتمع العراقي •

بداية المحاولة :

قضى نادر قلي السنوات الثلاث بعد انسحابه من بغداد يشن الغارات الناجحة في نواحي آذربيجان وقفقاسيا واستطاع أن يغلب الجيوش الروسية والعثمانية فيها ، وأن يفتح مدناً مهمة كتفليس وگنجا وباكو وگيلان ودربند ورشت • وبهذا استعاد سمعته التي هبطت عند اخفاقه في فتح بغداد •

بعد هذه الانتصارات الكبيرة توقف في مروج مغان القريبة من أردبيل بغية الاحتفال بعيد النيروز ، وكان ذلك في ٢١ آذار ١٧٣٦ ، وهناك دعا أعيان الايرانيين وقوادهم الى وليمة كبرى وأعلن لهم موت الشاه الطفل الذي كان هو وصياً عليه وطلب منهم أن يختاروا ملكاً جديداً •

كان المتوقع في مثل هذه الحالة أن يهتف الحاضرون كلهم بأنهم لا يريدون سواه ملكاً ، وقد هتفوا بذلك فعلاً غير أنه أظهر التمنع ورفض الاستجابة لهتافهم • وبعد انقضاء الحفل ظل نادر قلي مصراً على الرفض

طيلة شهر كامل ، وكلما كانوا يزدادون في الحاحهم عليه كان يزداد هو من جانبه تمنعاً وتعززاً •

الظاهر أنه كان يضمر في قلبه نية مبيتة على أمر ما ، وقد اتضحت نيته عندما رضي أخيراً بأن يتولى الملك حيث اشترط له شروطاً أثارت الدهشة في الناس ، وكان أهم تلك الشروط هو أن يترك الايرانيون سب الخلفاء ومواكب العزاء وجميع الأمور التي من شأنها التفريق بين الشيعة وأهل السنة • ويُروى أن رئيس المجتهدين كان حاضراً فلم يقبل بهذا الشرط ، ونهض ينصح نادر قلي بأن يحصر جهوده في القضايا الدنيوية ويترك القضايا الدينية للمختصين بها ، ولكن الموت الفجائي الذي نزل به جعل الآخرين يحجمون عن إبداء أي رأي معارض ، وانتهى الاجتماع بقبول الشروط[1] • وجرى بعدئذ تتويج نادر قلي باحتفال عظيم ـ في موعد عينه المنجمون ـ ومنذ ذلك الحين صار اسمه « نادر شاه » •

يعلل بعض المؤرخين هذا الشرط الذي اشترطه نادر قلي لقبوله العرش بسببين محتملين : أولهما أنه أراد به أن ينسى الايرانيون الأسرة الصفوية باعتبار أن هذه الأسرة هي التي أسست السب ومواكب العزاء ونشرتهما في ايران ، والسبب الثاني هو أن نادر قلي كان يحلم بأن يقضي على الدولة العثمانية ويبني مكانها دولة اسلامية كبرى تجمع كل المسلمين ـ الشيعة وأهل السنة معاً[2] •

ويمكن أن نضيف الى هذين السببين سبباً ثالثاً هو أن نادر قلي نفسه لم يكن متعصباً لأية طائفة من الطائفتين المتنازعتين ، وربما جاز أن نعتبره

---

(1) Percy Sykes (A History of Persia) — London 1958 — vol. 2, p. 254 — 255.

(2) Gbid, vol. 2, p. 255.

من أولي الشخصية التي تعرف في علم الاجتماع بـ « الشخصية الحدية » إذ هو نشأ في بيئة سنية ـ هي قبيلة أفشار التركمانية ـ ثم خالط الشيعة بعدئذ وقادهم في الحروب • وتشير بعض القرائن الى أنه كان يحاول التشبه بعاهل الهند المشهور « أكبر شاه » المغولي الذي ابتكر ديناً جديداً بغية توحيد الهنود في عقيدة واحدة[١] ، وربما أراد نادر قلي أن يفعل مثله في ايران والعراق •

المذهب الخامس :

كانت خطة نادر قلي هي أن يجعل من التشيع مذهباً فقهياً خامساً يضاف الى المذاهب الأربعة الموجودة عند أهل السنة ، وقد أطلق عليه اسم « المذهب الجعفري » نسبه الى الامام العلوي جعفر بن محمد الصادق •

يبدو أن نادر قلي لم يكن أول من جاء بمثل هذه الفكرة ، فالمظنون أن الشريف المرتضى الذي عاش في بغداد في العهد البويهي قد سبقه اليها • يروى صاحب كتاب « روضات الجنات » أن الشريف المرتضى كان قد اتفق مع الخليفة العباسي القادر بالله على أن يأخذ من الشيعة مائة ألف دينار ليجعل مذهبهم في عداد المذاهب السنية فترتفع التقية والمؤاخذة على الانتساب اليهم ، وقد كلّف المرتضى الشيعة بأن يجمعوا نصف المبلغ ويدفع هو النصف الآخر من خاصة ماله فلم يوفقوا الى ذلك[٢] •

يخيل لي أن إخفاق الشريف المرتضى في مشروعه ـ على فرض وقوعه ـ يرجع سببه الى أن الفرق بين الشيعة وأهل السنة لم يكن مقتصراً

---

(1) Edward Browne (A Literary History of Percia) — Cambridge 1958 — vol. 4, p. 137.

(٢) محمد باقر الخوانساري (روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات) ـ طهران ١٣٦٧هـ ـ ص ٣٧٨ •

على قضايا الفقه فقط بل هو يشمل كذلك قضايا أعمق منها تتصل بأصول الدين ، فأصول الدين عند أهل السنة ثلاثة هي التوحيد والنبوة والمعاد بينما هي عند الشيعة خمسة حيث يضيفون اليها العدل والامامة .

أضف الى ذلك أن الشيعة يؤمنون بأن الائمة الاثني عشر هم كلهم مراجع للعقيدة والفقه ولا يتميز بعضهم عن بعض في شيء إذ هم جميعاً في الفضل والقدسية سواء ، ومعنى هذا أن الشيعة يفضلون أن يُطلق عليهم اسم « الامامية » أو « الاثنى عشرية » بدلاً من اسم « الجعفرية » .

مهما يكن الحال فقد عزم نادر قلي أن يسير في تنفيذ خطته رغم كل صعوبة ، وأخذ يبذل في سبيل ذلك جهوداً وأموالاً غير قليلة . والظاهر أنه وجد في الامام جعفر الرجل الذي يصلح أن يكون رمزاً للتقريب بين الشيعة وأهل السنة ، فقد كان هذا الامام يعيش في نفس العصر الذي عاش فيه مالك وأبو حنيفة ، وهما من كبار أئمة السنة، والمعروف عنهما أنهما كانا يجلانه كل الاجلال ، وكان جعفر بالاضافة الى ذلك ينتمي الى علي بن أبي طالب من جهة أبيه ، والى أبي بكر من جهة أمه وجدته ، والمأثور عنه أنه كان يعلن للناس قائلاً « ولدني أبو بكر مرتين » وذلك لكي يردع الغلاة الذين اعتادوا على سب أبي بكر وصاحبه عمر .

نادر قلي يفتح الهند :

كان نادر قلي كنابليون وغيره من الفاتحين الكبار الذين نشأوا من أصل وضيع لا يشبع من الفتح ، وكلما اتسعت فتوحه ازداد طمعه في فتح أكبر .

اتجه نادر قلي بعد تتويجه نحو الشرق ــ ولنسمه بعد الآن نادر شاه ــ ففتح قندهار وغزنة وكابل ، ثم عبر ممر خيبر الى الهند . وقد كانت الهند يومذاك تحت حكم محمد شاه من سلالة أكبر شاه ، وهو رجل اتصف

بالكسل والانغماس في الملذات فكان لا يصبر دون أن تكون بين ذراعيه خليلة وفي يده كأس[1] ، أي أنه كان على النقيض من نادر شاه الذي كان لا يستريح الا وهو على ظهر جواده مقاتلاً أو سائراً الى قتال • وهذا هو الفرق ـ حسب نظرية ابن خلدون ـ بين من يبني مجده بنفسه ومن يرثه عن آبائه •

وفي عام ١٧٣٨ وقعت المعركة الحاسمة بين الرجلين على بعد ستين ميلاً من دلهي ، فكانت هزيمة الجيش الهندي فيها منكرة على الرغم من تفوقه في العدد والعدة ، ووقع محمد شاه أسيراً غير أن نادر شاه عفا عنه وأعاده الى العرش • وقدم محمد شاه الى نادر شاه كنوز أسلافه العظيمة منها عرش الطاووس المشهور الذي لا يزال باقياً في طهران ، ومنها الماسة المشهورة « كوهينور » التي تزين الآن التاج البريطاني •

وكانت غنائم نادر شاه من حملته الهندية يصعب تقديرها لكثرتها ونفاسة ما فيها من التحف والاحجار الكريمة ، فقد قدرها هانوي بخمس وثمانين مليون باون ، وقدرها غيره بأقل من ذلك أو أكثر • ويبدو أن نادر شاه لم تشبعه غنائم الهنود على كثرتها فأراد أن يشبع من دمائهم أيضاً ، فلم تمض على دخوله دلهي سوى أيام معدودة حتى أمر بمذبحة عامة في سكانها ، وكان سبب المذبحة حدوث شغب في المدينة قُتل فيه أفراد من جيشه ، وقد بدأت المذبحة في الساعة الثامنة صباحاً واستمرت سبع ساعات هلك فيها من سكان المدينة أكثر من مائة ألف شخص ، وقيل إن نادر شاه كان جالساً أثناء ذلك على منصة نصبت له فوق سطح مسجد « روشن الدولة » وهو ينظر الى مأساة المدينة من جهات ثلاث • ولا تزال عبارة « نادر شاهي » في أسواق دلهي تعني مذبحة[2] •

---

(1) Percy Sykes (op. cit.) vol. 2, p. 258.
(2) Gbid, vol. 2, p. 262.

وعند انتهاء نادر شاه من النهب وسفك الدماء أحب أن يتصاهر مع الاسرة المغولية المالكة في الهند ، فزوج ولده الثاني نصر الله من بنت محمد شاه • ويحكى أنهم طلبوا من العريس أن يذكر نسبه حتى الجد السابع — حسب عادتهم في الفخار بالنسب — فكان جوابه : « أنه ابن نادر شاه ، ابن السيف ، حفيد السيف ، وهكذا الى سبعين جداً بدلاً من سبعة » •

وبعد عودة نادر شاه من الهند اجتاح بلخ وبخارى ، وبذا وصل الى قمة مجده ، فأطلق على نفسه لقب « شاهنشاه » — أي ملك الملوك — وأمر أن لا يخاطب الا بهذا اللقب وهدد بالعقوبة من يطلق عليه لقباً سواه[1] • والملاحظ ان هذا اللقب ظل مستعملاً من قبل ملوك ايران حتى يومنا هذا •

العود الى مشروع التقريب :

بعد أن أعلن نادر قلي نفسه « ملك الملوك » أراد العودة بعزم جديد الى مشروع التقريب الطائفي ، ولعل من العوامل التي دفعته الى ذلك هو أن جيوشه صارت مؤلفة من الشيعة والسنيين معاً ، فكان فيها الأفغان والأزبك والتركمان علاوة على الايرانيين ، وكأنه أدرك أن التقريب الطائفي قد يؤدى في النهاية الى ازالة الجفاء والتوتر بين جنوده •

أخذ نادر شاه يقسر الايرانيين بالقوة على ترك ما كان الصفويون قد أحدثوه من عادات وطقوس طائفية ، وحين وجد مقاومة من بعض علماء الشيعة صار يضيق عليهم الخناق ويفرض عليهم المغارم ، ثم صادر الأوقاف التي كانت في ايديهم • ويروى أنه دعا علماء الشيعة ذات يوم الى اجتماع وطلب منهم أن يكتب كل واحد منهم في ورقة مقدار حاجته الى النقود ، ولكنه بدلاً من أن يدفع اليهم ما دونوه في أوراقهم أمر بأن تؤخذ تلك

---

(١) عبدالله السويدي (الحجج القطعية لاتفاق الفرق الاسلامية) — القاهرة ١٣٢٤ هـ — ص ٤ •

المبالغ منهم غصباً فأوقعهم في ورطة حتى اضطر بعضهم الى بيع أثاثه وكتبه في الاسواق[1] .

وفي عام ١٧٤٠ أرسل نادر شاه تحفاً وهدايا الى مرقد أبي حنيفة والى مراقد الائمة في الكاظمية وكربلاء والنجف ، وكانت التحف التي خصصت للمرقد العلوي في النجف جسيمة ولا تزال محفوظة في الخزانة هناك ، ومن المحتمل أنها كانت من جملة الغنائم التي استحوذ عليها في الهند .

وأخذ نادر شاه يقوى أواصر الصداقة مع الدولة العثمانية ، فأهدى اليها أحد عشر فيلاً وثلاثة الآف عبد ، وجاءت الهدية الى بغداد في طريقها الى اسطنبول وبصحبها ألف وخمسمائة فارس ، وكان فيها فيل واحد مع هدية ثمينة لوالي بغداد أحمد باشا . فاستقبل الوالي الهدايا استقبالاً باهراً وأسكن رئيس الفرسان الذين جاؤا بها في قصره العامر المشيّد في جانب الكرخ في الموضع الذي يُسمى الآن « بستان المتولية »[2] .

تذهيب المرقد العلوي :

وأرسل نادر شاه مالاً كثيراً لتذهيب قبة المرقد العلوي في النجف وتذهيب مأذنتيه وايوانه ، وشُرع بالعمل في عام ١٧٤٢ ، فجمع له زهاء مائتين من الصاغة والصناع الماهرين من شتى الأقطار فكان فيهم الصيني والهندي والتركي والفارسي والعربي ، وبلغ مجموع أجورهم ما يعادل خمسين ألف تومان ، وهذا كان يُعد مبلغاً هائلاً في ذلك الزمان حتى ضرب المثل به فقيل « تبذير نادر في النجف »[3] .

(١) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ترجمة موسى كاظم نورس — بيروت بدون تاريخ — ص٤٧ .

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) — بغداد ١٩٥٣ — ج٥ ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(٣) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) — النجف ١٩٥٨ — ج١ ص ٦٤ .

كان تذهيب المرقد العلوي على أي حال أول عمل من نوعه في العراق ـ وربما كان الثاني من نوعه في البلاد الاسلامية إذ سبقه تذهيب قبة الرضا في خراسان على نحو ما أشرنا اليه في فصل سابق ـ والواقع أن تذهيب المرقد في النجف كان ذا تأثير نفسي واجتماعي لا يستهان به . فالنجف كما لا يخفى تقع على هضبة عالية وعندما أخذت القبة المشيدة هناك تلمع تحت أشعة الشمس ـ من جراء طلائها بالذهب ـ صارت تشاهد من مسافات شاسعة في أقاصي الريف والبادية وشرعت الافئدة تنجذب اليها من مختلف الأرجاء وتهفو اليها النفوس ، أضف الى ذلك عظمة الرجل المدفون تحتها وما أحيطت به من هالة قدسية يتفق على احترامها الشيعة وأهل السنة معاً . ويخيل لي أن نادر شاه انما أمر بتذهيب المرقد العلوي من أجل الهدف الذي كان يسعى اليه وهو التوفيق بين الطائفتين المتعاديتين ، ولعله أراد أن يتخذ من الامام علي شعاراً جديداً لمشروعه كما اتخذ الامام جعفر الصادق من قبل .

من مفارقات نادر شاه أنه ـ كما رأينا آنفاً ـ كان في العراق يوصف بتبذير الأموال بينما كان في الهند يوصف بسفك الدماء ، وفي نظري أن هذين الوصفين يمثلان معنى واحداً إذ كان نادر شاه يبذر الأموال ويسفك الدماء في سبيل الهدف الاكبر الذي كان يطمح اليه وهو أن يدوم له ولاسرته من بعده لقب « ملك الملوك » .

نكسة نادر شاه :

دفع نادر شاه طموحه المفرط الى الزحف على منطقة داغستان في قفقاسيا لقتال قبائل « اللزگية » فيها ، فمُني هناك بهزيمة منكرة حتى أن أفراداً من تلك القبائل[1] تمكنوا من التغلغل في معسكره ومن الوصول الى

(١) كانت قبائل « اللزگية » هذه محاربة شديدة المراس ولم يكن في وسع أي جيش أن يتغلب عليها . وقد جاء في أحد الأمثال الايرانية ما ←

خيمته الخاصة فاختطفوا منها بعض النساء والجواهر الثمينة .

ومُني نادر شاه بمصيبة أخرى على إثر عودته من قتال « اللزگية » إذ هاجمه رجلان أفغانيان بغية اغتياله وأصاباه بجراح ثم لاذا بالفرار دون أن يتمكن أحد من القبض عليهما ، وظن نادر شاه أن ولده رضا قلي مرزا له يد في المؤامرة فأمر بسمل عينيه ، ولكنه نـدم بعدئذ أشد الندم فأمر بقتل جميع الرجال الذين حضروا عملية « السمل » بحجة أنه كان من الواجب عليهم آنذاك أن يفتدوا بأرواحهم في سبيل انقاذ عيون الأمير الذي يمثل مجد ايران .

وتتابعت من بعد ذلك ثلاث ثورات قام بها الايرانيون ضد نادر شاه . قام بالأولى منهـــا في آذربيجـان رجل يدّعي أنه ابن حسـين الصفوي ، وساعدته قبائل « اللزگية » كما ساعده السلطان العثماني ، وقد تغلب عليـه نادر شاه بعد معركة طاحنة ، وعندما جيء بالرجل أسيراً أمر نادر شاه بقلع احدى عينيه ثم كتب الى السلطان يقول له : إن نادر شاه يستنكف من أن يقتل مثل هذا المخلوق الحقير على الرغم من كونه مؤيداً من جناب السلطان .

أما الثورة الثانية فقام بها تقي خان حاكم منطقة فارس ، ولما تغلب عليه نادر شاه فعل به مثلما فعل بالاول ، حيث أمر بقلع احدى عينيه ، غير أنه أضاف الى ذلك قتل جميع أقاربه . أما الثورة الثالثة فقام بها محمد حسين القاجاري في منطقة استراباد ، واستطاع نادر شاه أن يقضي عليـه بسهولة ولكنه أشاع الخراب والقتل في تلك المنطقة عقابا لها ، وأمر بنصـب هرمين من جماجم القتلى فيها[1] .

معناه : اذا كان ملك ايران أحمق فدعه يذهب لقتال « اللزگية » . والظاهر أن سمعة هذه القبائل وصلت الى العراق أيضا ، ولا تزال كلمة « اللزگي » شائعة بين العامة وهي تعني الرجل اللجوج .

(1) Percy Sykes (op. cit.) vol. 2, p. 266—277.

يبدو أن نادر شاه كان يريد أن يتشبه بجنكيز خان وتيمورلنك في كثرة سفك الدماء أو في صنع الاهرام من جماجم القتلى ، ولدينا قرينة تاريخية تشير الى ذلك بصورة غير مباشرة ، ففي مؤتمر النجف الذي سنأتي على ذكره فيما بعد وقف الخطيب يدعو له على المنبر فقال : « اللهم أدم دولة من أضاءت به الشجرة التركمانية ، قاب الرئاسة وجنكيز السياسة »[1] • وقد يصح القول بوجه عام إن نادر شاه لم يكن يختلف عن معظم الجبابرة الذين غيروا مجرى التاريخ من حيث تعطشه للدماء أو ابتلائه بمرض « الصادية » الخبيث •

غزو العراق ـ للمرة الثالثة :

في عام ١٧٤٣ أرسل نادر شاه الى السلطان العثماني يطلب منه الاعتراف الرسمي بالمذهب الجعفري ، فجمع السلطان علماء اسطنبول يستفتيهم في الأمر فكان جوابهم أن الشيعة مارقون عن الاسلام يجوز قتلهم وتأسيرهم شرعاً • وحين وصل هذا الجواب الى نادر شاه اتخذه ذريعة لأعلان الحرب على الدولة العثمانية ، وسرعان ما توجه بجيوشه نحو العراق، وعبر الحدود بالقرب من مندلي •

ومما يلفت النظر أن نادر شاه حين غزا العراق في هذه المرة لم يتحرش ببغداد وبواليها أحمد باشا ، وقد سمح له أحمد باشا بأن يستولي على جميع مزارع بغداد ـ وكان الوقت موسم حصاد ـ ليمون بها جيوشه الغازية •

إن هذه ظاهرة غريبة تدعو الى التساؤل ، والأغرب منها أن المؤرخين لم يعيروها الاهتمام الكافي ولم يحاولوا إعطاء تفسير مقنع لها • يقول المؤرخ رسول الكركوكلي مثلاً في تعليلها : إن أحمد باشا وافق على مرور نادر

(١) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص٢٧ •

شاه وعلى مكوثه واعتبره ضيفاً ولسان حاله يقول « اذا كنت مأكول الطعام فرحب »[1] . وقال مؤرخ آخر : إن أحمد باشا خدع نادر شاه واحتال عليه حيث قال له أن يسير أولاً الى فتح الموصل وعند عودته منها سيجد بغداد مفتوحة بين يديه، وقد نجحت حيلة أحمد باشا « والحرب خدعة »[2].

يخيل لي أن في الامر سراً غامضاً لم تكشف الايام عنه ، وربما كانت هناك خطة مكتومة اتفق عليها نادر شاه وأحمد باشا من وراء ظهر الدولة العثمانية أو من أجل اقتسام المنافع بينهما على حسابها . وعلى أي حال فالمعروف عن نادر شاه أنه كان شديد الاعجاب بأحمد باشا وقد وصفه ذات مرة بقوله : إنه انسان كامل من أصحاب العقل والدراية إذ كان يخوف حكومته مني كما كان يخوفني منها وبهذه الطريقة أمضى اوقات راحة[3] . ومن يتأمل في هذا القول يشعر كأن فيه أمراً آخر غير المديح المجرد .

حصار الموصل :

اجتاح نادر شاه كركوك وأربيل ، وفي الايام الأخيرة من ايلول وصل الى مقربة من الموصل ، ثم فرض الحصار عليها . والواقع أن حصار الموصل يختلف عن حصار بغداد الاول الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق ، فقد رأينا في حصار بغداد كيف اكتفى نادر شاه بالتطويق ومنع التموين بغية تجويع السكان ، أما في حصار الموصل فكان اعتماده في الدرجة الاولى على شن الهجمات وقصف المدافع ، وقيل إنه سلط على الموصل زهاء مائتي مدفع ظلت تمطر المدينة بقنابلها ليلاً ونهاراً ، وقد وصفها بعض من شاهدها فقال على سبيل المبالغة : إن الشظايا المتطايرة منها تظلم السماء نهاراً وتنيرها

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٥ .
(٢) سليمان صائغ الموصلي (تاريخ الموصل) ـ القاهرة ١٩٢٣ ـ ج١ ص٢٧٨ .
(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص٢٨٢ .

كالشهب ليلاً"(1) .

ودام الحصار اثنين وأربعين يوماً قُذف فيها على البلدة ما يزيد على الأربعين ألف قنبلة وشُنت عليها خمس هجمات . ودافع أهل الموصل عن بلدتهم دفاعاً بطولياً ، وكانوا قد أقسموا على أن يقتلوا نساءهم في حالة دخول الاعداء الى البلدة لئلا يقعن في أيديهم ، وكان الحاج حسين باشا الجليلي قد أبدى أثناء الحصار همة لا تنكر ، وكذلك أبدى أبناؤه وأفراد أسرته حتى أنهم كانوا يشاركون العامة في نقل التراب تشويقاً لهم(2) .

اضطر نادر شاه أخيراً أن يطلب الصلح من أهل الموصل ، فأرسل الحاج حسين اليه وفداً للمفاوضة مؤلفاً من ثلاث رجال هم : قاضي الموصل ، وعلي أفندي الغلامي مفتي الشافعية ، وقره مصطفى بك . فلما وصل هؤلاء الى فسطاط نادر شاه استقبلهم بحفاوة وأظهر لهم البشاشة واثنى على بسالة أهل الموصل ثم قال لهم : « أنا من الأصل ما كان لي دعوى مع أهل الموصل ، ولكن كان مرادي تصحيح عقيدتي واظهار ما هو الحق من دين السنة والشيعة ... » . ثم اتفق الفريقان في النهاية على شروط الصلح وتبادلا الهدايا ، وكانت هدية الحاج حسين الجليلي الى نادر شاه ثمانية رؤوس من جياد الخيل وأحسنها(3) .

ويروى القس سليمان صائغ الموصلي : أن اهل الموصل يعزون انتصارهم الى شفاعة مريم العذراء والقديسين الذين هدم نادر شاه هياكلهم ومعابدهم ، وشوهد على سطح كنيسة العذراء أشباح يدافعون عن البلدة

(1) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) - ترجمة جعفر خياط - بغداد ١٩٦٢ - ص ١٤٨ .

(2) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ج١ ص ٢٨٢ - ٢٨٨ .

(3) محمد أمين العمري (منهل الاولياء) - تحقيق سعيد الديوه‌جي - الموصل ١٩٦٧ - ج١ ص ١٦٠ - ١٦١ .

ويردّون عنها القنابل إذ يصوبونها الى جهة العدو ، ولهذا سعى الحاج حسين الجليلي الى تجديد كنيسة العذراء التي تهدمت خلال الحرب كما جدد ورمم كنائس أخرى[1] .

مسير نادر الى النجف :

بعد أن أتم نادر شاه عقد الصلح مع أهل الموصل توجه بجيوشه نحو بغداد فانتشر الذعر بين سكانها واستعدوا للحصار ، ولكنه عند وصوله الكاظمية أرسل الى أحمد باشا يطمئنه بأنه يريد الصلح مع الدولة العثمانية . ثم جرت مفاوضات بين الرجلين لم يُعرف عن تفاصيلها شيء ، ويقول الشيخ عبدالله السويدي ـ الذي كان من المقربين الى أحمد باشا ـ بعد أن أشار الى مجيء نادر شاه من الموصل ما نصه : « ... ونزل في قصبة سيدنا موسى بن جعفر فزاره وزار محمد الجواد ثم عبر دجلة في قارب وزار الامام أبا حنيفة ولم تزل الرسل تختلف بينه وبين أحمد باشا الى أن رفع مطالبته بالاقرار بصحة مذهب الشيعة والتصديق بأنه مذهب جعفر الصادق ثم توجه الى النجف لزيارة الامام علي بن أبي طالب وليرى القبة التي أمر أن تبنى بالذهب ... »[2] .

من القصص الشائعة التي يتناقلها الناس حول نارد شاه أنه عند اقترابه من سور النجف يومذاك وضع في عنقه سلسلة من الذهب كأنها قيد يشير بها الى عبوديته للامام علي ، ولما وصل الى الضريح المقدس لثمه وعلق السلسلة في مدخل الضريح . ثم تقدم نديمه مرزا زكي فأنشد بيتين من الشعر قائلاً ما معناه : « نم في تراب النجف مطمئناً ولا تسأل عما يجري يوم القيامة فان الأرض التي ينقلب الخمر فيها خلاً لابد أن تنقلب السيئات

---

(١) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ج١ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

(٢) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص ٥ .

فيها الى حسنات » • وكان الشاعر يشير بهذا الى كرامة مشهورة للامام علي تناقلها الخلف عن السلف وهي أن أحد الفساق أدخل زجاجة خمر الى النجف فانقلبت خلاً [1] •

مؤتمر النجف :

لم يكد نادر شاه يستقر في النجف حتى عزم على عقد مؤتمر عام يجتمع فيه علماء الشيعة والسنة لوضع أسس التوفيق بين الطائفتين المتعاديتين • ومن الممكن القول أن هذا هو أول مؤتمر من نوعه في التاريخ الاسلامي ، وربما كان الأخير أيضاً !

كان نادر شاه قد جلب معه من ايران سبعين عالماً شيعياً ، كما جلب سبعة علماء من تركستان وسبعة من أفغانستان ، ثم استدعى من كربلاء السيد نصر الله الحائري الذي كان حينذاك كبير مجتهدي الشيعة في العراق • وأرسل الى أحمد باشا يرجوه أن يبعث من قبله عالماً يمثل السنيين العراقيين فأرسل أحمد باشا اليه الشيخ عبدالله السويدي •

يقول السويدي في مذكراته التي كتبها فيما بعد حول ذهابه الى النجف ما خلاصته : إنه بينما كان جالساً في بيته ببغداد - قبيل المغرب - جاءه رسول من أحمد باشا يستدعيه لكي يبعثه الى النجف لمجادلة علماء الشيعة في أمر مذهبهم ، وكاد السويدي يعتذر عن قبول المهمة لصعوبتها غير أن أحمد باشا ألح عليه ، ثم قال له : « أسأل الله تعالى أن يقوي حجتك ويطلق بالصواب لسانك لكن أنت مخيّر بين المباحثة وتركها • فقط لا تترك البحث بالكلية بل أورد بعض الأبحاث في خلال الصحبة بالمناسبة ليعلم العجم أنك ذو علم • وإن رأيت منهم الانصاف وأنهم يريدون إظهار الصواب فابحث معهم واياك أن تسلّم لهم •• إن الشاه في النجف وأريدك

(١) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ج١ ص ٢٢٣ •

صبيحة يوم الأربعاء تكون عنده » • وأتى له بكسوة فاخرة ودابة وخادم وأرسل معه بعض خدام ركابه ثم واجهه مع العجم الذين أرسلهم نادر شاه لمرافقته الى النجف •

وفي يوم ٢٢ شوال من عام ١١٥٦هـ ـ الموافق ١١ كانون الأول عام ١٧٤٣م ـ سافر السويدي مع حاشيته الى النجف ، وكان طيلة الطريق يفكر في الادلة التي سيواجه بها علماء الشيعة ، وما يحتمل أن يكون ردهم عليها ، وكيف يرد على ردهم ، فحصل لديه اكثر من مائة دليل وعلى كل دليل جواب واحد أو اثنان أو ثلاثة • وعند وصوله النجف أدخل على نادر شاه في فسطاطه الفخم فرحب به الشاه وسأله عن صحة أحمد خان ، أي الوالي أحمد باشا ، ثم قال له موضحاً السبب الذي دعاه الى عقد المؤتمر : « إن في مملكتي فرقتين ـ تركستان وأفغان ـ يقولون للايرانيين أنتم كفار ، فالكفر قبيح ولا يليق أن يكون في مملكتي قوم يكفّر بعضهم بعضاً • فالآن أنت وكيل من قبلي ترفع جميع المكفّرات وتشهد على الفرقة الثالثة بما يلتزمونه ، وكل ما رأيت أو سمعت تخبرني وتنقله لأحمد خان » • ثم أذن له بالخروج وأمر بأن تكون ضيافته عند اعتماد الدولة •

وذهب السويدي بعد تناول طعام الغداء الى خيمة الشيخ علي أكبر الذي كان يتولى منصب « الملا باشي » في ايران ، وبدأت المجادلة بينهما • فجاء « الملا باشي » بثلاثة أدلة يستدل بها على خلافة علي بعد النبي ، وهي : آية المباهلة ، وآية ايتاء الزكاة أثناء الركوع ، وحديث المنزلة • وأخذ السويدي يحاول تفنيدها الواحد بعد الآخر[1] •

---

(١) انظر في تفاصيل أحداث المؤتمر كتاب الشيخ عبدالله السويدي « الحجج القطعية لاتفاق الفرق الاسلامية » المطبوع في القاهرة عام ١٣٢٤هـ وقد طبع للمرة الثانية في القاهرة عام ١٣٦٧ هـ بعنوان « مؤتمر النجف » مع مقدمة وتعليقات لمحب الدين الخطيب •

قرارات المؤتمر :

وبعد مجادلات طويلة لا مجال هنا لذكرها تم الاتفاق على قرارات معينة ، ثم اجتمع علماء الطائفتين أخيراً تحت المسقف المنصوب وراء ضريح الامام فكتبوا محضراً يشتمل على خمس مواد هي كما يلي :

الاولى : بما أن أهل ايران عدلوا عن العقائد السالفة ، ونكلوا عن الرفض والسب ، وقبلوا المذهب الجعفري الذي هو من المذاهب الحقة ، فالمأمول من القضاة والعلماء والأفندية الكرام الاذعان بذلك وجعله خامس المذاهب .

الثانية : إن الأركان الاربعة من الكعبة المعظمة في المسجد الحرام التي تتعلق بالمذاهب الأربعة فالمذهب الجعفري يشاركهم في الركن الشامي بعد فراغ الامام الراتب فيه من الصلاة - يصلون بامامهم على طريقة الجعفرية .

الثالثة : في كل سنة يُعيّن من حكومة ايران أمير للحاج الايراني ويكون في الدولة العلية العثمانية أعلى شأناً من الأمير المصري والشامي .

الرابعة : فك الأسرى من الجانبين ومنع وقوع التحقير عليهم .

الخامسة : يُعيّن وكيلان في الدولتين في مقر السلطنتين لأجل القيام بمصالح المملكتين وبهذه الوسيلة ترتفع الاختلافات الصورية والمعنوية ما بين أمة سيد الثقلين .

ثم سجلت في المحضر خلاصة العقيدة التي تم الاتفاق عليها بين الفريقين وهي الاقرار بالخلفاء الأربعة على الترتيب وأن جعفر الصادق من ذرية الرسول الكريم وممدوح سائر الأمم ومقبول عند أئمة سائر المذاهب فمن أظهر العداوة له فهو عار عن كسوة الدين . ثم سجلت كذلك شهادة أهل السنة على هذه العقيدة وهي كما يلي :

« نحن علماء الاسلام من بخاري وبلخ نشهد أن العقيدة الصحيحة الاسلامية للامة الايرانية على نحو ما ذكره العلماء سالفاً وأن هذه الفرقة داخلة في الاسلام ومن أمة سيد الأنام (ص) وكل من أظهر العداوة مع هذه الفرقة فهو خارج عن الدين ومحروم من شفاعة خاتم النبيين ، وفي دار الدنيا هو مسؤول لدى سلطان الآفاق ، وفي العقبى لدى سلطان السلاطين على الاطلاق . والاختلاف مع أهل هذه العقيدة في بعض الفروع غير مناف ولا مغاير للاسلام ، وأصحابها من أهل الاسلام ، ويحرم على الفريقين المسلمين من أمة محمد قتل كل واحد منهم الآخر ونهبه وأسره ، وهم إخوان في الدين »[1] .

ذكر الشيخ عبدالله السويدي : أنه حين تم توقيع العلماء على المحضر صار لأهل السنة فرح وسرور لم يقع مثله في العصور ولا تشبهه الأعراس والأعياد ، فكان يوماً مشهوداً من عجائب الدنيا ، والحمد لله على ذلك .. ثم بعث نادر شاه حلويات في صواني من فضة ومعها مبخرة من الذهب الخالص مرصعة بنفائس الجواهر التي لا يقدر ثمنها ، وفيها مقدار من العنبر كثير ، وبعد أن تبخروا بها وقفها الشاه على الضريح ، وصار ذكر الصحابة ومناقبهم في كل خيمة من المعسكر وعلى لسان العجم كلهم بحيث كانوا يذكرون لأبي بكر وعمر وعثمان مناقب وفضائل يستنبطونها من الآيات والأحاديث مما يعجز عنه فحول أهل السنة ، وأخذوا يسفهون رأي الشاه اسماعيل في سبهم[2] .

ملاحظة اجتماعية :

الواقع أن النتيجة التي انتهى اليها مؤتمر النجف قمينة بالتقدير ، فهي قد جاءت بالحل الوسط للنزاع المستفحل بين الشيعة وأهل السنة ولم

(١) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ج١ ص ٢٢٥ .
(٢) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص ٢٤ ـ ٢٦ .

يكن في وسع هذين الفريقين أن يتوصلا الى حل خير من هذا الحل الذي جاء به المؤتمر ، ولكننا قد نواجه هنا سؤالاً مهماً من الناحية الاجتماعية وهو : كيف استطاع أعضاء المؤتمر أن يتوصلوا الى مثل تلك النتيجة الموفقة ؟!

ولكي ندرك أهمية هذا السؤال يجب أن لا ننسى أن أعضاء المؤتمر حين كانوا يتناقشون كان نقاشهم قائماً على أساس من الجدل المنطقي القديم ، وطريقة قلتم وقلنا ، وهذه طريقة لا يمكن أن تؤدى الى نتيجة مثمرة يتفق عليها الفريقان مهما طال الجدال بينهما . إن هذا أمر لاحظناه في جميع المجادلات « الكلامية » التي نشبت بين الناس منذ أقدم الازمان حتى زماننا هذا[1] ، فلم يحدث أن تجادل فريقان ثم استطاع احدهما أن يقنع الآخر بصحة رأيه أو تنازل هو عن شيء من رأيه الا نادراً ، وربما جاز القول بأنه كلما طال الجدال ازدادت الفجوة بينهما واشتد العداء .

من طبيعة هذا الجدال أن كل دليل يأتي به أحد الفريقين يستطيع الفريق الآخر أن يأتي بدليل ينقضه ، وهذا هو ما كان يعرف قديماً باسم « تكافؤ الادلة » . ولهذا كان الانتصار في الجدل يعتمد على قدرة المجادل ولباقته وسعة معرفته أكثر مما يعتمد على سلامة رأيه ، واذا كان المتجادلان متكافئين في المقدرة واللباقة استمر الجدل بينهما الى ما شاء الله دون أن يتمكن أحدهما من اقناع الآخر برأيه . ان كل دليل مهما كان في الظاهر قوياً يمكن أن يُؤتى برد عليه ، والرد يمكن أن يُؤتى برد آخر ينقضه ، وهكذا الى ما لا نهاية له . وحين ينتهي الجدل لسبب ما يظن كل فريق أنه

---

(١) انظر في نقد المنطق القديم ، وفي طبيعة الجدال الذي يقوم عليه، كتاب « منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته » للمؤلف ــ القاهرة ١٩٦٢ ــ القسم الأول .

كان الغالب فيه وأن خصمه كان المغلوب ٠

إن هذا هو الذي جرى عليه الجدال الطائفي في الاسلام منذ بداية أمره ، ومن يدرس المجادلات التي احتدمت في بغداد في القرن الرابع الهجري ، أو تلك التي نشبت بين العلامة الحلي وابن تيمية في القرن السابع ، أو التي قامت على اثر ظهور الدولة الصفوية في القرن العاشر ، يتبين له أنها كانت جميعاً من نمط واحد هو هذا النمط الذي يخضع لمبدأ « تكافؤ الأدلة » ٠ ومما يلفت النظر أن الشيخ عبدالله السويدي نفسه الذي كان لولب مؤتمر النجف قد اشترك في مجادلة من هذا القبيل ببغداد مع أحد علماء الشيعة عام ١٧١٨ - أي قبل انعقاد المؤتمر بخمسة وعشرين عاماً[١] - والمظنون أن المجادلة انتهت كما تنتهي أية مجادلة من نوعها حيث اعتقد كل فريق فيها أنه أفحم خصمه بقوة أدلته « العقلية » و « النقلية » ٠

إرادة الجبار :

أرجح الظن أن العامل الاساسي في نجاح مؤتمر النجف على الرغم من عقم طريقة الجدال فيه هو ما يمكن أن نسميه بـ « ارادة الجبار » ونعني بها ارادة نادر شاه ، فقد كان هذا الرجل يريد نجاح المؤتمر بأية صورة ، والظاهر أنه أوعز - قبيل انعقاد المؤتمر - الى « الملا باشي » وسائر علماء الشيعة بأن لا يكثروا من الجدل مع السويدي ولا يعاندوه ٠

يقول السويدي في مذكراته : إنه كان يخشى من عدم انصاف العجم في جدالهم معه وذكر ذلك لمفتي الافغان الملا حمزة القلنجابي ، فطمأنه الملا حمزة قائلاً له : « كن أميناً من هذه فان الشاه جعل على هذا المجلس ناظراً ، وعلى الناظر ناظراً آخر ، ثم على الآخر آخر ، وكل واحد لم يدر

---

(١) عبدالرحمن السويدي (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء) - تحقيق صفاء خلوصي - بغداد ١٩٦٢ - ج١ ص ٧٥ - ٧٩ ٠

بحال صاحبه فلا يمكن أن ينقل للشاه خلاف الواقع »[1] . إن هذا يدل على أن شخصية الشاه كانت مسيطرة على المؤتمر سيطرة فعالة ، فكان كل واحد من أعضاء المؤتمر يشعر كأنه مراقب من قبل الشاه ويعلم أن أيـــة بادرة للعناد أو المماحكة تصدر منه أثناء الجدال قد تؤدي الى غضب الشاه عليـــه .

خلاصة القول إن المؤتمر لو كان قد جرى على رسله من غير أن يكون لنادر شاه إشراف عليه لما انتهى الى مثل ما انتهى اليه فعلاً ، ولربما كانت عاقبته زيادة الأختلاف والعداء بين الطائفتين .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن السويدي حين يشير في مذكراته الى دوره في المؤتمر يؤكد أنه كان الغالب في الجدال وأنه أسكت « الملا باشي » بقوة أدلته وجعله يرضخ لرأيه ، ولكننا حين نقرأ ما كتب الشيعة حول مجادلات المؤتمر نراهم يقولون : إن ادلة السويدي كانت باردة وتافهة[2] ، وإن سكوت « الملا باشي » ربما كان ناشئاً عن ميله الى التساهل وعدم اكثار النزاع معه بناء على رغبة نادر شاه[3] .

ابتهاج نادر شاه :

ابتهج نادر شاه كل الابتهاج لنجاح مؤتمر النجف ، وظن أنه وفق فيه لعمل عجز عنه كل سلاطين المسلمين من قبل . وقد استدعى اليـــه الشيخ عبدالله السويدي عند انتهاء المؤتمر وخاطبه قائلاً :

« جزاك الله خيراً ، وجزى أحمد خان خيراً ، فوالله ما قصـــر في اصلاح ذات البين ، واطفاء الفتنة ، وحقن دماء المسلمين . أيد الله سلطان

---

(١) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص ١٢ .
(٢) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ج١ ص ٢٢٥ .
(٣) محسن الأمين (اعيان الشيعة) ـ بيروت ١٩٥٨ ـ ج٤١ ص٥٢

ال عثمـــان وجعل الله عزه ورفعته أكثر من ذلك ... يا عبدالله أفندي لا تظن أن الشاهنشاه يفتخر بمثل ذلك انما هذا أمر يسّره الله تعـالى ووفقني له حيث كان رفع سب الصحابة على يدي مع أن آل عثمان منذ كان السلطان سليم الى يومنا هذا ـ كم جهزوا عساكر وجنوداً ، وصرفوا أموالاً ، وأتلفوا أنفساً ليرفعوا السب فما توفقوا في ذلك . وأنا لله الحمد رفعته بسهوله . وهذه القبائح كما تقدم نشأت من الخبيث اسماعيل أغواه أهل لاهيجان ولم تزل الى يومنا هذا ... يا عبدالله أفندي ، أنا لو أفتخر لافتخرت بأني في مجلسي هذا عبارة عن سلاطين أربعة : فأنا سلطان ايران، وسلطان تركستان ، وسلطان الهند ، وسلطان الأفغان . لكن هذا الأمر من توفيق الله تعالى ، فأنا لي منة على جميع المسلمين حيث أني رفعت السب عن الصحابة وأرجو أن يشفعوا لي ... »[1] .

الواقع أن نادر شاه له الحق أن يفتخر بنجاح المؤتمر ويفرح به ، إذ هو عمل عظيم من غير شك ، ولكن نادر شـاه نسي أثناء فرحته أمراً مهماً هو أن المؤتمر لا يمكن أن يكون له أثر دائم ما لم يتعاون على تنفيذ قراراته أمراء المسلمين وعلماؤه جميعاً ، ثم يظلون يتعاونون عليه جيلاً بعد جيل ، فالنزاع الذي دام بين الطائفتين أكثر من عشرة قرون ليس من السهل أن يختفي فجأة بمجرد كتابة محضر والتوقيع عليه .

دلائل الأعمـاق :

أمر نادر شاه أن تقام صلاة الجمعة في جامع الكوفة الذي هو على بعد بضعة أميال عن النجف ، وطلب من السويدي أن يحضر الصلاة لكي يسمع باذنه مدح الصحابة من قبل خطباء الشيعة . وفي صباح يوم الجمعة ذهب الجميع الى الجامع ، وصعد السيد نصر الله الحائري فألقى خطبـة أثنى فيها على الخلفاء الأربعة واحداً بعد الآخر ، كما اثنى على بقية الصحابة

(١) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص ٢٥ .

وأهل البيت ، ثم دعا للسلطان العثماني ولنادر شاه من بعده .

ومما يذكر أن الحائري حين وصل الى ذكر الخليفة الثاني عمر كسر آخره مع العلم ان هذا غير جائز حسب قواعد النحو لأن اسم عمر ممنوع من الصرف ، ولا ندري هل أن الحائري فعل ذلك سهواً أم عن قصد . وقد امتعض السويدي من ذلك كل الامتعاض واعتبر عمل الحائري دسيسة مقصودة أراد بها ذم الخليفة عمر ، إنه قال ما نصه : « لكنه كسر الراء من عمر مع أن الخطيب إمام في العربية لكنه قصد دسيسة لا يهتدي اليها الا الفحول ، وهي أن منع صرف عمر انما كان للعدل والمعرفة ، فصرفه هذا الخبيث قصداً الى أنه لا عدل فيه ولا معرفة قاتله الله من خطيب وأخزاه ، ومحقه وأذله في دنياه وعقباه ... »[1] .

ان هذا دليل على أن التقارب الطائفي الذي حصل في مؤتمر النجف كان سطحياً ولم يتغلغل في أعماق القلوب ، فقد بقي سوء الظن يلعب دوره على الرغم من الفرح الظاهر ، ولهذا كان السويدي يراقب كل كلمة تفوه بها الحائري في خطبته ويدقق في فحصها ، ولما لم يجد في الخطبة سوى تلك الهنة البسيطة ــ وهي كسر راء عمر ــ انتهزها فرصة وأخذ يبالغ فيها ويستنتج منها ما توحي به روح الخصومة القديمة . لقد كان المفروض فيه لو كان حسن الظن أن يفسر الأمر تفسيراً حسناً ، ولكنه لم يفعل مما يدل على أن الشحناء التي دامت قروناً لا يمكن أن تزول فجأة .

وهناك دليل آخر يمكن أن يؤتى به في هذا الصدد هو أن السويدي حين عزم على مغادرة النجف بعد انتهاء المؤتمر أجرى مناقشة مع « الملا باشي » حاول فيها البرهنة على أن الشيعة ليسوا على مذهب جعفر الصادق ، وهذا كما لا يخفى يناقض ما تم عليه الاتفاق في مؤتمر النجف كل المناقضة . وفيما يلي نص ما قاله السويدي في آخر مذكراته :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦ ــ ٢٧ .

« إن المذهب الذي تتعبدون عليه باطل لا يرجع الى اجتهاد مجتهد ٠٠ وليس لجعفر الصادق فيه شيء ، وأنتم لا تعرفون مذهب جعفر الصادق ، فان قلتم إن في مذهب جعفر الصادق تقية فلا أنتم ولا غيركم يعرف مذهبه ٠٠٠ إذ كل مسألة تُنسب اليه يحتمل أن تكون تقية ، إذ لا علاقة تميز بين ما هو للتقية وبين غيره ٠٠٠ فان قلتم ليس في مذهب جعفر الصادق تقية فهو ليس المذهب الذي أنتم عليه لأنكم تقولون بالتقية »[1] ٠

مصير الحائري :

كان مؤتمر النجف قد عُقد في أواخر شهر شوال ، أي أنه كان قريباً من موسم الحج ، فأراد نادر شاه اغتنام الفرصة حيث بعث السيد نصر الله الحائري الى مكة وأرسل معه نسخة من المحضر الذي تم الاتفاق عليه في المؤتمر ، كما أرسل كتبا الى الشريف مسعود أمير مكة والى المفتي والقاضي هنالك يقول لهم فيها إنه بعث اليهم إمام المذهب الجعفري لتنفيذ قرارات المؤتمر ٠

وعندما وصل الحائري الى مكة سُمح له باقامة الصلاة والقاء الخطبة في الركن الشامي من الكعبة ـ حسبما ورد في قرارات المؤتمر ـ ولسنا ندرى كيف كانت خطبة الحائري هناك ، وهل كسر راء عمر أم لا ، انما الذي نعرفه أن أهل مكة هاجوا وماجوا[2] ، مما جعل الشريف مسعود يتدخل في الأمر وأن يكتب للسلطان يخبره بما وقع ٠ ويخيل لي أن للشيخ عبدالله السويدي يداً في ذلك إذ أنه كتب في ختام مذكراته عن المؤتمر قائلاً : « فلأجل هذا الذي حدث عزمت على الحج اللهم يسر ذلك »[3] ٠

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩ ٠

(٢) محسن الأمين (المصدر السابق) ـ بيروت ١٩٦٠ ـ ج ٤٩ ص ١٠٦ ٠

(٣) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص ٢٩ ٠

وصل المرسوم السلطاني من اسطنبول وفيه أمر الى الشريف مسعود بأن يلقى القبض على الحائري وأن يسلمه الى أمير الحج الشامي أسعد باشا العظم لكي يأخذه هذا معه الى الشام ويسجنه في قلعة دمشق ، وبعد أن أودع الحائري في سجن القلعة طلبه السلطان فسيق الى اسطنبول[١] .

ان ما جرى على الحائري في اسطنبول غير معروف على وجه الدقة ، فمؤلف « روضات الجنات » يقول : ان نادر شـــاه هو الذي أوعز الى الحائري بأن يذهب الى اسطنبول بعد الحج لمصالح تتعلق بأمور الملك والملة ، ولكن الحائري حين وصل الى اسطنبول وُشي به الى السلطان بفساد المذهب وأمور أخرى فأحضر واستشهد ... »[٢] .

وحدثني الدكتور مرتضى نصر الله ـ وهو من سلالة الحائري ـ أن الرواية التي تناقلها الأسرة حول مصير جدهم هي أنه مات من جراء وضع السم له في الطعام ، غير أن جنازته شيعت تشييعاً رسمياً ودفن في قبر لائق به ، ولا يزال قبره قائماً وقد نصب عليه شباك تتبرك به النســـاء وينذرن له النذور[٣] .

المحاولة الاخيرة :

في عام ١٧٤٥ ـ وبعد مرور بضعة عشر شهراً على مؤتمر النجف ـ استعرت الحرب من جديد بين نادر شاه والدولة العثمانية على الحدود بالقرب من أرمينيا ، وكان يقود الجيوش العثمانية محمد باشا يكن ، واشترك فيها من العراقيين الحاج حسين باشا الجليلي ، وقد خسر نادر شاه الألوف

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٧٠ .
(٢) محمد باقر الخوانساري (المصدر السابق) ص ٧٢٧ .
(٣) مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن في اسطنبول محلــة تعرف باسم « والدة خان » واكثر سكانها شيعة من أتراك آذربيجان ، والمظنون أن أهل هذه المحلة هم الذين يزورون قبر الحائري ويتبركون به .

من جنوده في هجمات غير موفقة • ثم وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين في شهر آب ١٧٤٥ ، بالقرب من اريوان ، حيث استطاع نادر شاه أن يوقع بالجيوش العثمانية هزيمة منكرة مما أدى الى مقتل القائد محمد باشا يكن بأيدي جنوده •

حاولت الدولة العثمانية إعداد جيوش جديدة في سبيل اعادة الكرة على نادر شاه ، غير أنه أبدى رغبته في الصلح وأرسل من لدنه وفداً الى اسطنبول للمفاوضة ، وجاء الوفد الى بغداد والتقى بأحمد باشا ، وقد بذل هذا الرجل جهداً غير قليل في التوسط من أجل الصلح •

كان الوفد يحمل كتاباً من نادر شاه الى السلطان العثماني جاء فيه : « نعرض على الهمايون اخلاصنا ، ومختلف دعواتنا ، وآلاف التحيات الطيبات الممزوجة بالحب والاخلاص ، وتلبية لطلب الجميع وتعبيراً عن آراء الجماهير من مقلدي الامام جعفر الصادق رضي الله عنه نقول : من بعد حدوث قضية القائد محمد باشا أخذنا نفكر في هذه الحروب القائمة بين أهل الاسلام ، وكيفية توقيها واحلال السلام بدلاً من سفك الدماء ، هذه الحروب التي سوف لا تبقي على الأخضر واليابس في حالة استمرارها • فعليه ، ولتوفر حسن النية وكون الجميع على دين واحد ، وأن الايرانيين الذين يذهبون الى بيت الله الحرام يقومون بتأدية الصلاة والفرائض مقتدين بأي امام من ائمة المذاهب الاربعة مما يجعلهم متحدين ويداً واحدة لا فرق بين أحد منهم • فمن أجل هذه الروابط الدينية والأخوية ألتمس طلب العفو والمصالحة بين الدولتين وإدامة اتفاقهما الى يوم القيامة ، ونأمل من جلالتكم أن توافقوا على ذلك وعدم رد التماسنا ودامت عظمتكم وأيام خلافتكم » •

وجاء جواب السلطان على هذا الكتاب وفيه : « ••• إننا تلقينا كتابكم الكريم ومما زادنا سروراً ما بذلتموه من جهود في المؤتمر الذي عقدتموه

في صحراء مغان ، ووحدتم به وجهة نظر المسلمين ، وأزلتم من بينهم النفرة التي كانت مستحكمة بين الطائفتين ، وحملتموهما انتهاج مذهب أهل السنة والجماعة ، ورفعتم البدع والأعمال المنكرة ، وأزلتم ما كان يعكر صفو العلاقات من دواعي الخصومة ، الأمر الذي تلقته الدولة العلية بكل سرور واستحسان . ولأجل ادامة هذه الصداقة والمحبة الاخوية بين الدولتين فاننا نتمسك بالمواد الخمسة لتكون وسيلة لتوثيق عرى الصداقة وإدامتها وتجديدها لئلا تقع بعدئذ بأمور توهن هذه الروابط الاخوية أو تدعو الى التأويل والخصومة ... وجعلنا الحدود كما كانت على عهد الخاقان سلطان مراد خان الرابع ... وما عدا هذا ينبغي افهام الايرانيين بالتيهي أحسن بضرورة نبذ ما كانوا عليه أيام الصفويين من بدع ، والعودة الى الدخول في مذهب أهل السنة والجماعة ، والكف عن سب الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وأن تُذكر أسماؤهم بالتعظيم والتوقير ، ولكي يُعاملوا في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة معاملة طيبة تختلف عن معاملة بقية الحجاج والزوار » .

وتم عقد الصلح في يوم النيروز ٢١ آذار ١٧٤٧ ، وصدر الاعتراف به من قبل حكومة ايران حيث جاء فيه : « ... أما بعد فان ما فعله تاج ملوك ممالك الهند وايران ، الخاقان الاعظم والقاءان الاكرم ، ظل السبحان ، شاه شاهان جهان ، السلطان نادر شاه ، خلد الله سلطنته وشوكته ، في المؤتمر الذي عقده في صحراء مغان من توثيق روابط الاخوة بين الرعايا ، مما حمل الجميع على التمسك بسلطنته ، وحصد ما زرعه اسماعيل الصفوي من الفتن والفساد ، والتنافر بين العباد ، باسم الطائفية ، مما أدى الى بذر بذور العداء بين الروم والايرانيين ، فزال بفضله كل ذلك ، وحمل الجميع على التآخي بين الجعفريين وأهل السنة والجماعة ، مما اكتسب رضاء الأعلى حضرة ... خاقان البحرين وسلطان البرين ، ثاني اسكندر

ذي القرنين ، خليفة ظل الله وبادشاه اسلام يناه ... السلطان الغازي محمود خان ، أيد الله ملكه وخلافته ودولته ، واكتسب موافقته على عقد الاتفاق ، وتخصيص ركن من أركان الكعبة المشرفة لصلاة الجعفريين ، وتعيين آمر للحجاج ، والسماح بمرورهم بطريق الشام ومصر ، واطلاق سراح الأسرى من الجانبين ، وتعيين كل دولة وكيلاً لها في عاصمة الدولة الأخرى ... »[1] .

الفوضى في ايران :

لم يتمتع نادر شاه بالصلح الذي تم بينه وبين الدولة العثمانية سوى ثلاثة أشهر ، إذ اغتيل في ٢٠ حزيران من العام نفسه . يقول الاستاذ براون في تعليل الاغتيال : ان نادر شاه كان قد وضع خطة جهنمية لقتل جميع الايرانيين في جيشه لكي لا يبقى فيه سوى التركمان والأزبك ، ولكن بعض قادة الايرانيين علموا بالخطة فأسرعوا الى اغتياله حسب المثل القائل : « يتغدون به قبل أن يتعشى بهم »[2] .

ومما يذكر أنهم حين دخلوا فسطاطه ليلاً بغية اغتياله استيقظ من النوم وشرع يقاتلهم ، ولم يمت الا بعد أن قتل اثنين منهم[3] . ومهما يكن الحال فقد مات نادر شاه ميتة تليق به . إنه عاش مقاتلاً ومات مقاتلاً !

وحين ذاع مقتل نادر شاه بين أفراد جيشه شاعت الفوضى بينهم وأسرعوا الى خيامه فنهبوها ، وبدأ النزاع والقتال بين الشيعة والسنيين

---

(١) انظر حول تفاصيل المفاوضات والمراسلات بين نادر شاه والدولة العثمانية كتاب « دوحة الوزراء » للشيخ رسول الكركوكلي ، ص ٦٧ ــ ٨٩ .

(2) Edward Browne (Op. Cit.) vol. 4, p. 137.

(3) Percy Sykes (Op. Cit.) vol. 2, p. 273.

منهم • وقد حاول أحمد خان الدوراني الذي كان يرأس الجنود الافغان والأزبك أن يثأر لنادر شاه فلم يوفق ، وانسحب بجنوده الى افغانستان حيث أسس دولة قوية هي الدولة الافغانية التي لا تزال قائمة هناك •

كان مقتل نادر شاه إيذانا بانتشار الفوضى في جميع أرجاء ايران ، وشاع القتل والنهب واضطراب الأمن في كل مكان ، وصار الملوك يتتابعون على عرش ايران واحداً بعد الآخر ، فلا يكاد يستقيم أمر أحدهم سوى مدة قصيرة حتى يثور عليه آخر وينزله عن العرش • والغريب في أمر هؤلاء الملوك الذين تتابعوا على العرش ان كل واحد منهم حين كان ينتصر على غريمه يسمل عينيه ، ولست أدري ما هو السر في انتشار عادة « السمل » هذه في تلك الفترة • والى القارىء قائمة بالملوك « المسمولين » :

١ ـ تولى العرش بعد نادر شاه ابن اخيه علي قلي باسم « عادل شاه » ، ولم يدم عهده سوى سنة واحدة إذ عزله أخوه ابراهيم أخيراً وسمل عينيه •

٢ ـ ولم يدم عهد ابراهيم سوى سنة واحدة كذلك حيث قتله اتباع شاه رخ حفيد نادر شاه ، وشاه رخ هذا هو ابن رضا قلي الذي سمل أبوه عينيه من قبل •

٣ ـ لم يبق شاه رخ على العرش سوى مدة يسيرة ، فقد ثار عليه رجل اسمه مرزا سيد محمد ـ وهو ابن متولى مشهد الرضا ـ فأسره ثم سمل عينيه •

٤ ـ ثار يوسف علي ـ وهو من قواد شاه رخ ـ على مرزا سيد محمد فأسره وسمل عينيه وعيون أولاده ، ثم قتلهم جميعاً •

٥ ـ ثار اثنان من الرؤساء هما مير علم خان وجعفر خان ، وكانت مع أولهما عشائر عربية بينما كانت مع الثاني عشائر كردية ، وقد انتصرا

على يوسف علي ثم أمرا بسمل عينيه .

٦ ـ تنازع هذان الرجلان بعد انتصارهما فتغلب مير علم خان على صاحبه جعفر خان وسمل عينيه .

٧ ـ لم يدم حكم مير علم خان طويلاً إذ أغار عليه أحمد خان الدوراني ملك أفغانستان وقتله ، ولكنه لم يسمل عينيه .

٨ ـ أقام أحمد خان الدوراني في خراسان دولة صغيرة لتكون حاجزاً بينه وبين ايران ، وجاء بشاه رخ « المسمول بن المسمول » فنصبه ملكاً عليها . وقد دام ملك شاه رخ في خراسان زهاء خمسين عاماً في الوقت الذي كانت فيه بقية ايران تغلي بالحروب والفتن من جراء التنافس على العرش .

كريم خان والقاجارية :

خلال فترة الفوضى التي عمت ايران ـ منذ مقتل نادر شاه في عام ١٧٤٧ حتى تأسيس الدولة القاجارية في عام ١٧٩٦ ـ لم يظهر من بين المتنافسين على العرش من هو جدير بالملك حقاً سوى رجل واحد هو كريم خان الزندي . وقد كان هذا الرجل في بداية أمره جندياً عادياً في جيش نادر شاه ثم صار يرتفع بعد مقتل سيده شيئاً فشيئاً حتى استطاع في عام ١٧٥٠ أن يؤسس دولة خاصة به وجعل عاصمتها شيراز ، وقد مرت به فترة غير قصيرة كان فيها المسيطر على جميع انحاء ايران ، ولكنه لم يطلق على نفسه لقب « شاه » بل آثر أن يسمى نفسه « الوكيل » اشارة الى أنه يحكم وكالة عن الشاه الشرعي اسماعيل الصفوي الذي كان يومذاك مأسوراً[١] .

توفي كريم خان في عام ١٧٧٩ ، وبوفاته عادت الفوضى الى ايران

(1) Percy Sykes (op. cit.) vol. 2, p. 277 — 281.

واستمرت الحروب بين المتنافسين على العرش من جديد ، ولم يهدأ الوضع فيها نسبياً الا في عام ١٧٩٦ عندما تولى العرش أغا محمد الخصي ، وهو أخو زوجة كريم خان ، وكان ذلك بداية حكم الاسرة القاجارية التي ظلت تحكم ايران حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى .

حرب القلم :

سوف نأتي الى ذكر الدولة القاجارية وأثرها في العراق في مناسبات آتية ، ولكنني أود أن أشير هنا الى أن هذه الدولة سارت على نفس الطريق الذي سارت عليه الدولة الصفوية من حيث ترويج السب وطقوس العزاء وما أشبه ، وبذا عاد النزاع الطائفي الى وضعه القديم دون أن يظهر عليه أي أثر من تلك الجهود التي بذلها نادر شاه في سبيل التقريب .

الواقع ان الحرب بين الدولتين القاجارية والعثمانية قد توقف نهائياً منذ منتصف القرن التاسع عشر - على اثر عقد الصلح وتعيين الحدود بينهما بشكل ثابت - ولكن ذلك لم يخفف من حدة الجدال الطائفي ، وربما زاد الجدال اشتعالاً بعد ادخال المطبعة الحجرية الى ايران في عام ١٨٣٣ حيث بدأت المؤلفات الطائفية تصدر باعداد كبيرة وهي تحتوى على آلاف الأدلة « العقلية » و « النقلية » ، فيأتي الرد عليها من قبل الطائفة الأخرى بآلاف الادلة أيضاً .

يمكن القول بعبارة أخرى إنه عندما بطل عمل السيف بين الطائفتين لم يبطل عمل القلم ، وكأن القلم حل محل السيف في الصراع بينهما ، فقد شرع علماء كل من الطائفتين يؤلفون الكتب في سبيل تأييد عقيدتهم وتفنيد عقيدة الطائفة الأخرى ، ومعنى هذا أن القتال ظل مستمراً بينهما غير أنه تحول من قتال بالسيوف والمدافع الى قتال بالادلة « العقلية » و « النقلية » .

من مزايا قتال السيف أنه ينتهي عادة الى نتيجة حاسمة حيث تتم فيه غلبة أحد الفريقين على الآخر ، وليس للفريق المغلوب سوى الاعتراف بهزيمته والخضوع لشروط الغالب • أما قتال القلم فهو لا ينتهى الى مثل هذه النتيجة إذ هو يظل سجالاً دون أن يعترف أحد الفريقين بأنه مغلوب، ويستمر الحال على ذلك الى ما لا نهاية له ــ على نحو ما ذكرناه آنفاً •

أشرنا سابقاً الى طبيعة « البلوى » التي ابتلي بها المجتمع العراقي من جراء الحروب التي نشبت بين « العجم والروم » حسبما جاء في المثل الدارج ، والواقع أن تلك « البلوى » لم يقتصر أثرها على تخريب الحضارة فقط بل هي ساهمت أيضاً في تخريب العقول • ان الجدال « اللا نهائي » الذي اعتاد العراقيون عليه من جراء ذلك جعل بينهم وبين واقع الحياة حجاباً • ومن المؤسف أن هذا النمط من الجدال لا يزال منتشراً في أوساط الكثيرين منهم حتى هذه الساعة ــ لا فرق بين أولي الثقافة الحديثة منهم وأولي الثقافة القديمة ــ وربما كان هذا من جملة العوامل التي أدت الى استفحال العنف في الجدل السياسي لدى أهل العراق •

الفصل السادس

عهد المماليك في العراق

(الطور الاول)

دام عهد المماليك في العراق زهاء ثمانين عاما ، فقد بدأ في عام ١٧٤٩ بولاية سليمان باشا « أبو ليلة » وانتهى في عام ١٨٣١ بعزل داود باشا • وكان مماليك العراق يشبهون مماليك مصر من حيث أصلهم ومنشأهم ، فهم إتوا في الغالب من جورجيا ، ومنهم من أتى من بلاد الشركس والداغستان وأباظه واللاظ ، وهي كلها من بلاد القفقاس أو مجاورة لها • وكانوا يستجلبون أطفالاً كالانكشارية، فيودعون في مدارس خاصة بهم ليتعلموا القراءة والكتابة والسباحة والفروسية وفنون القتال ، فاذا تخرجوا أدخلوا في سلك الجيش أو الوظيفة الحكومية •

إن أول من عُني باستجلاب المماليك في العراق هو الوالي المشهور حسن باشا الذي تحدثنا عنه في فصل سابق ، فقد أراد هذا الوالي ـ بعد أن فسد نظام الانكشارية[١] ـ أن يجعل لنفسه جنداً مختصين به يستعين بهم ويتعصبون له ، فأرسل الى بلاد القفقاس من يأتي اليه منها بالصبيان •

كانت أسواق تفليس يومذاك زاخرة بالصبيان المعروضين للبيع ، والظاهر أن بيع الاطفال كان من تقاليد أهل تلك البلاد على وجه من الوجوه • ومما يجدر ذكره أن الكثيرين من أطفال قفقاسيا كانوا قد

(١) عبدالعزيز سليمان نوار (داود باشا والي بغداد) ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٢٣ •

استجلبوا في عهود سابقة الى تركيا ومصر وبلاد الشام ، وقد حصل البعض منهم هنالك على مناصب رفيعة ومنهم من نال الملك كما رأينا في مصر .

أسس حسن باشا في بغداد دائرة خاصة اسمها « ايج دائرة سي » ، أي دائرة الداخل ، ومهمتها الاشراف على شراء المماليك وتدريبهم. وعندما تولى الحكم من بعده ابنه احمد باشا زاد من استجلاب المماليك والعناية بهم حتى أصبحوا قوة لا يستهان بها بحيث استطاعوا بعد موت سيدهم أحمد باشا ان يفرضوا إرادتهم على الدولة العثمانية وينصبوا أحدهم ـ وهو سليمان باشا « أبو ليلة » ـ والياً على العراق .

نظرة عامة :

كان عهد المماليك في العراق على قصره ذا أهمية بالغة من الناحية الاجتماعية ، وفي رأيي أن دراسة هذا العهد تعطينا صوراً قيمة عن المجتمع العراقي بوجه عام ، والمجتمع البغدادي بوجه خاص .

تميّز عهد المماليك عن ما قبله وما بعده بشدة التنافس والتنازع على الحكم في العراق ، فقد كان الولاة قبل عهد المماليك يُعيّنون بفرمان يصدر من السلطان في اسطنبول ومعنى هذا أن من يطمح الى الحكم في العراق يجب عليه أن يبذل جهده في اسطنبول ، حيث يحاول استرضاء السلطان أو حاشيته من أجل نيل الفرمان ، أما في عهد المماليك فقد تغير الحال إذ أصبح الفرمان السلطاني قليل الأثر في تعيين الولاة ، وفي بعض الأحيان لم يكن له أي أثر على الاطلاق .

إن الذي كان له الأثر الأكبر في تعيين الولاة هو ما ينتهي اليه التنازع بين المماليك أنفسهم ، فأي مملوك يستطيع أن ينال ولاية بغداد ـ أو « الوزارة » كما كانوا يسمونها ـ اذا تمكن من التغلب على منافسيه بطريقة من الطرق ، وحين يتم له ذلك يجتمع أعيان بغداد وعلماؤها فيكتبون

عريضة الى السلطان يسترحمون منه أن يصدر أمره في منح « الوزارة » الى المملوك الغالب ، وكثيراً ما يستجيب السلطان لاسترحامهم فيرسل اليهم الفرمان المطلوب •

خلاصـــة القول إن مركز الثقل في تعيين الولاة قـد تحـول من اسطنبول الى بغداد ، ويجب أن لا ننسى هنا أن أعيان بغداد وعلماءها لـم يكن لهم تأثير مهم في هذا التعيين ، فهم يجتمعون عادة عندما يُطلب منهم ذلك ، وهم مستعدون أن يوقعوا على أي عريضة يضعها بين أيديهم المملوك الغالب ، وقد لا يترددون أن يلهجوا بالدعاء له وبالثناء عليه • وقد ظل هذا ديدنهم حتى عهد متأخر ، ولا يزال بعضهم على ديدنهم القديم حتـى هذه الساعة •

معارك المحلات :

إن الطريقة التي أسلفنا ذكرها في أمر تعيين الولاة أدت الى نتيجـة اجتماعية تلفت النظر وهي استفحال المعارك بين محلات بغداد ، فقد جرت العادة في عهد المماليك أنه حين ينشب نزاع بين فريقين منهم على الحكـم تنتقل عدوى النزاع حالاً الى سكان بغداد ، فكل فريق من المماليك يستنجد عند النزاع بأصدقائه من رؤساء المحلات وأشـقيائهم ، وهؤلاء بدورهم يستصرخون أهل المحلة ، فتهب المحلة بسلاحها للقتال الى جانب الفريق الذي استنجد بها ، وبهذا تنقلب ميادين بغداد ودروبها الى ساحات حـرب يصول فيها شجعان المحلات على خصومهم من شجعان المحلات المعاديـة ، وقد تزغرد النساء تشجيعاً لهم مما يزيدهم حماساً وعنفاً •

من خصائص المماليك أنهم ينشأون في بغداد منذ طفولتهم ، وكثيراً ما تتكون لهم علاقات بريئة أو غير بريئة مع سكان بغداد ، وهم بذلك يختلفون عن الولاة وكبار الموظفين الذين كانت اسطنبول ترسلهم الى بغداد في العهد السابق أو اللاحق • ان المماليك كانوا يعتبرون أنفسهم « بغادّة »

أصليين ، وقد يتفرقون بمساكنهم في المحلات المختلفة ويتعصبون لتلك المحلات ــ كل في محلته الخاصة به ــ فاذا اشترك أحدهم في نزاع التجأ الى جيرانه وأبناء محلته يستنجد بهم ، وقد يفعل مثل هذا خصمه حيث يستنجد بمحلة أخرى • وقد يشتد الأمر أحياناً بحيث تنقسم محلات بغداد كلها الى فئتين متحاربتين تسيل بينهما الدماء كانهما جيشان من الاعداء •

المماليك والانحراف الجنسي :

وهناك ظاهرة اجتماعية أخرى يمكن أن نعزو أحد أسبابها الى تأثير عهد المماليك ، وهي ظاهرة انتشار الانحراف الجنسي في العراق[1] • فالمماليك حين كان يؤتى بهم وهم صبيان الى بغداد ، ثم يودعون في المدارس الداخلية الخاصة بهم ، قد يتعاطون اللواط في ما بينهم أو يتعاطاه معهم المعلمون • والواقع أن تلك المدارس لم تكن سليمة من الناحية الخلقية ولم يكن الولاة يكترثون لما يجري فيها ما دامت تخرج لهم الموظفين الحاذقين والقادة الشجعان •

أضف الى ذلك أن اولئك الصبيان المجلوبين كثيراً ما كانوا يخالطون سكان بغداد ، وهم قد يقعون تحت تأثير الاغراء عند مخالطتهم بعض الفساق المنحرفين • ويجب أن لا ننسى أنهم كانوا في الغالب من أولي الوجوه الوسيمة والبشرة البيضاء مما يجعلهم اكثر تعرضا للاغراء من غيرهم • ولم يكن لديهم آباء يراقبونهم ويحرصون على سلامة اخلاقهم ، ولهذا كانوا ينجرفون في طريق الانحراف دون رادع أو حياء •

وحين يرتقي أحد هؤلاء في كبره الى منصب رفيع من مناصب الحكومة ، يصبح موضع حديث الناس ودهشتهم • إن ابشع عار في

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » للمؤلف ــ بغداد ١٩٦٥ ــ ص ٣٢٢ ــ ٣٢٦ •

المجتمع العراقي هو أن يكون الرجل ملوطاً به ، أو كان ملوطاً بـه في صغره ، وقد يصفه الناس بأنه « مكسور العين » لأنه لا يستطيع أن يواجه الناس بملأ عينيه ، وهم يسخرون ويتهكمون عند وصول رجل بهـذه الصفة الى مركز رفيع من مراكز المجتمع أو الحكومة • ويخيل لي أن هذا هو منشأ الفكرة التي راجت في الأوسط الشعبية في بغداد ــ وظلت رائجة حتى عهد متأخر ــ ومؤداها أنه لا يرتفع في المناصب الا من كـان ملوطاً به • فمن المحتمل في تفسير ذلك أن رجلاً من فساق بغداد صادف أن لاط بأحد صبيان المماليك ثم تسنم هذا الصبي في كبره منصباً رفيعاً من مناصب الحكومة ، وربما صادف وقوع مثل ذلك لرجل آخر ، فشـاع الخبر بين العوام وصار عندهم قاعدة عامة • ومن طبيعة العوام أنهم ميالون الى استنتاج القواعد من حادثة واحدة أو عدد قليل من الحوادث •

سليمان « أبو ليلة » :

كان سليمان باشا « أبو ليلة » أول من تولى الحكـم في العراق من المماليك ، كما أشرنا اليه آنفاً ، وهو قد توصل الى الحكم اثر فتنة طاحنة قام بها الانكشاريون في بغداد وضربوا السراي بالقنابل ، واستمرت الفتنة ثلاثة ايام مما جعل الوالي الذي عينتـه الدولة يفر من بغداد طلبـاً للنجاة ، فاضطرت الدولة الى تعيين « أبو ليلة » والياً مكانه •

دام حكم « أبو ليلة » ثلاث عشرة سنة تقريباً ، وهو انما سُمي بهذا الاسم لتخفيه في الليل وخروجه ، وكان شديد الوطأة على كل من يعبث بالأمن لا سيما العشائر المتمردة ، ولا يرعى أي مبدأ أو ذمة في ضـرب الخارجين عليه ، وقد لُقب بألقاب أخرى علاوة على « أبو ليلة » ، فكان الناس يطلقون عليه « أبو سمرة » و « دواس الليل » و « سليمان الأسد »[١].

---

(١) ستيفن همسـلي لونكريك (أربعـة قرون من تاريخ العـراق الحديث) ــ ترجمة جعفر خياط ــ بغداد ١٩٦٢ ــ ص ١٦٥ •

مما يدل على إعجابهم به • إنه كان قوياً والقوة هي رأس المفاخر في المجتمع العراقي كما لا يخفى •

ومما يلفت النظر أن هذا الوالي القوي على الرغم مما كان يتمتع به من شجاعة وحزم في علاقته مع رعيته خارج بيته كان في بيته ضعيف الارادة لا أمر له ولا نهي إذ كانت زوجته عادلة خاتون ـ وهي بنت سيده السابق ـ مسيطرة عليه سيطرة كبيرة • وقد وصف السائح الالماني نيبور هذه السيدة ومبلغ سيطرتها على زوجها فقال : إنها لم تنس أن زوجها كان في شبابه مملوكا لوالدها ، فكانت مغرورة جداً وحريصة على الحكم ، فعينت أياماً خاصة ليراجعها الناس في قضاء حاجاتهم فكانت تجلس في غرفة ويأتي رئيس الخصيان اليها بالعرائض فتنظر فيها وتعطى الجواب ، وكثيراً ما كانت تبطل الأوامر التي كان قد أصدرها زوجها أو كهيته • وكانت لها شارة شـرف خاصة هي عبارة عن منديل حريري يتميز بها أتباعها من الذين خدموا في عهد والدها وجدها ، فكانوا يلفون الشـارة على رؤوسهم أثناء المراسيم ليتميزوا بها عن سائر الموظفين ، وصار على من يريد اقتناء هذه الشارة أن يدفع الى عادلة خاتون مبلغاً من المال على سبيل الهدية(١) •

مهما يكن الحال فقد بلغ نفوذ المماليك القمة في عهد « أبو ليلة » ، وأخذ الصبيان المستوردون من أسواق تفليس يصـلون الى بغداد بأعداد متزايدة فأُسست لهم مدرسة مستدامة تسع مائتين منهم • وصار « أبو ليلة » يكثر من استخدامهم في وظائف الحكومة ، فكان منهم الكتبة والجباة وقواد الحاميات كما كانوا من كبار حاشيته أيضا ، فأدى ذلك الى حرمان الاسـر التركية والبغدادية المعروفة من نصيبها الذي اعتادت عليه في جهاز الحكومة سابقاً • فكان يكفي للصبي المستورد أن يتخرج من المدرسة لكي يجـد

---

(١) كارستن نيبور (رحلة نيبور الى بغـداد) ـ ترجمة سـعاد العمري ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٤٦ ـ ٤٧ •

المجال مفتوحاً أمامه في وظائف الحكومة ، وهو قد يتدرج فيها حتى يصل الى ارقى المراتب منها . أما الفرد البغدادي فقد صار غير مسموح له بأن يدخل سلك الوظيفة على أي حال[1] .

علي وعمر :

في عام ١٧٦١ أصيب سليمان باشا « أبو ليلة » بمرض لازمه نحو ستة أشهر ثم قضى عليه ، وكان موته بداية فترة طويلة من الفوضى .

كان عند موت سليمان باشا سبعة رجال مرشحين للخلافة من بعده يقال لهم « أصحاب الداعية » وكلهم من المماليك ، وكان كل واحد منهم يشعر أنه أولى من غيره بالحكم ، وكاد التنافس بينهم يؤدى الى الحرب وبقيت بغداد من غير وال فاستولى الخوف على السكان ، وتدخل العلماء والأعيان بغية تسكين الفتنة[2] .

استقر الرأي أخيراً أن يُكتب الى اسطنبول باسماء المرشحين السبعة لكي يختار السلطان منهم واحداً . وحين عاد الجواب من اسطنبول وجدوا فيه ان السلطان قد اختار علي باشا الذي كان يومذاك متسلماً للبصرة ، ولم يكد يصل هذا الى بغداد ويتسلم زمام الحكم حتى بدأت المؤامرات تحاك ضده من أجل قتله والتخلص منه .

دامت ولاية علي باشا زهاء سنتين قضاها كلها في محاربة العشائر جنوباً وشمالاً ، وقد حاول منافسوه المتآمرون عليه أن يغتالوه أثناء مروره بالدورة عند عودته من محاربة عشيرة كعب ولكنه نجا منهم .

(١) ستيفن همسسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٦٦ . وانظر كذلك : ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) - ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد - بغداد ١٩٦٧ - ج٢ ص٨٩ .

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) - بغداد ١٩٥٤ - ج٦ ص ٣٢ .

كان علي باشا من أصل ايراني ، أي أنه لم يكن من أصل قفقاسي كسائر المماليك ، وقد اتخذ خصومه ذلك ذريعة بأيديهم حيث أخذوا يشنعون عليه بأنه شيعي وأنه في محاربته للعشائر كان يقسو على الاكراد الذين هم من أهل السنة ويتساهل مع الخزاعل الذين هم من الشيعة[1] ٠ وقد شاعت هذه التهم حوله في أوساط بغداد ، وكان أهم مروجيها اثنان هما : عادلة خاتون أرملة الوزير الراحل ، وزوج اختها عمر باشا الذي هو من المرشحين السبعة ٠

واجتمع المتآمرون ذات يوم من عام ١٧٦٣ برئاسة عمر باشا فأعلنوها ثورة شعواء في بغداد وتابعهم سكان بعض المحلات ، فاحتلوا القلعة وأخذوا يرمون السراي بالقنابل ، وظهرت المتاريس في طرقات بغداد حتى أصبحت المدينة كأنها في يوم حشر[2] ٠ واضطر علي باشا أن يهرب من السراي متنكراً بزي امرأة والتجأ دخيلاً الى احدى الدور المجاورة ، ولكن صاحب الدار لم يراع حق الدخالة حسبما يقتضيه العرف المحلي فأخبر عنه، فجاؤوا اليه وأخرجوه ثم قتلوه ٠

اجتمع علماء بغداد وأعيانها على اثر ذلك وكتبوا عريضة ذكروا فيها : أن علي باشا كان خائناً للدولة ، وأنه أراد تسليم العراق الى ايران ، وأنهم لم يستطيعوا صبراً على هذه الخيانة العظمى فاتخذوا الاجراءات الحاسمة ضده من غير ان يخبروا الدولة خشية فوات الأوان ، وهم الآن يسترحمون من السلطان أن يعهد بالولاية الى عمر باشا لثقتهم بكفايته واخلاصه للدولة٠

وجاء الفرمان من اسطنبول بعد حين طبقاً لما أراده العلماء والأعيان ، واحتفلت بغداد بنصب عمر باشا في الولاية ، فمدحه الشيخ عبدالرحمن السويدي بقصيدة كان كل شطر منها يتضمن تاريخاً ، كما مدحه سليمان

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٦٩ ـ ١٧٠ ٠
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٣٧ ٠

الشاوي بقصيدة تضمن شطرها الأخير تاريخا هو :« وقمت بالعدل والاحسان يا عمر »[1] . وأشيع بين الناس أن محي الدين بن عربي ـ القطب الصوفي المعروف ـ كان قد تنبأ بهذا الحادث حيث قال في « الشجرة النعمانية » : « لك سرّ واظهار ، وصحو وخمار ... على خلاف العادة يصير ... » ، فلفظة « صحو » تشير الى اسم علي باشا لأن عددها في حساب الحروف يساوي عدد « علي » ، وكذلك تشير لفظة « يصير » الى اسم عمر باشا[2] .

ثورات العشائر :

بدأ عمر باشا عهده بالهجوم على شيخ الخزاعل حمود الحمد في الفرات الاوسط ، وكان هذا الشيخ قد استفحل أمره وصار الاتحاد العشائري التابع له كأنه دولة مستقلة يأمر فيها وينهى . وسار عمر باشا على رأس حملة كبيرة الى قرية « لملوم » ، وبعد صعوبات غير قليلة استطاع أن يتغلغل بقواته في صفوف العشائر الثائرة ، ويتغلب على ما أقاموه من خنادق وحصون وحواجز ، ونشبت اذ ذاك معركة طاحنة استمرت اكثر من ثلاث ساعات كان النصر فيها حليف عمر باشا فاستولى على خيام العشائر وأموالهم وأوقع فيهم قتلاً وتأسيراً ، ثم سجد لله شكراً على هذه النعمة التي أنعم بها عليه[3] وعندما عاد عمر باشا الى بغداد مدحه الشعراء بقصائد منها قصيدتان لسليمان بك الشاوي[4] .

يقول المؤرخ رسول الكركوكلي : « بعد تلك الحملة المظفرة التي شنها عمر باشا على شيخ الخزاعل ، ذاع في الناس صيته وعظمت في القلوب

(١) المصدر السابق ، ج٦ ص٣٩ .
(٢) ياسين العمري (الدر المكنون) ـ نقلاً عن فؤاد جميل ومصطفى جواد في حاشية كتاب ريجارد كوك (المصدر السابق) ج٢ ص ٤٣ ـ ٩٤ .
(٣) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ١٤٠ .
(٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٤٠ .

منزلته ، وهابه الصغير والكبير ، وانقادت له العشائر والأهالي وتجنبوا أعمال التمرد والعصيان ، وهدأت الأحوال وسارت الأمور موضعها الطبيعي من السنة الثامنة والسبعين الى الثانية والثمانين ، ولكن في هذه السنة ـ أي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية على صاحبها أزكى التحية ـ بدأ شيخ عشائر المنتفق الشيخ عبدالله يشق عصا الطاعة ويظهر التمرد والخروج على أنظمة الدولة وأوامرها ، وأخذ يتعرض لما حول البصرة من مقاطعات ، ويساجل متسلم البصرة الحاج سليمان أغا النزاع والخصومات ، ولم تفد معه النصائح والارشادات ، وأخفقت وساطة عبدالله الشاوي إذ قام بعقد اجتماع بينه وبين متسلم البصرة في مدينة الزبير بغية الوصول الى ازالة سوء التفاهم من بين الاثنين ... ولم ير الوزير مندوحة من حسم الأمر بالقوة ، فجرد حملة عسكرية قوية واتجه رأساً نحو البصرة ، ولما قاربها وصار على بعد ١٢ ساعة منها عسكر في مكان يسمى (أم الحنطة) وما كاد يبلغ خبر مجيئه مسامع الشيخ المتمرد حتى ارتعدت فرائصه واعتراه الفزع والذعر ، ولعجزه وعدم تمكنه من المقاومة والمدافعة لاذ بالفرار وولى الأدبار هو ومن معه من العشائر »[1] .

وبعد انتصار عمر باشا على شيخ المنتفق أمر بقتل الوسيط عبدالله بك الشاوي إذ تبين له أن وساطته لم تكن خالية من خيانة ، وجيء بالشاوي الى « أم الحنطة » فأعدم هناك . ولما وصل خبر مقتل الشاوي الى عشيرته الكبيرة ـ العبيد ـ أعلنوا العصيان على الحكومة وتجمعوا في منطقة الدجيل الواقعة في شمال بغداد ، برئاسة سليمان بك الشاوي وأخوه سلطان بك وهما إبنا القتيل ، وصاروا يقطعون الطرق ويتعرضون للقوافل .

لم يكد نبأ هذه الثورة العشائرية الجديدة يصل الى عمر باشا في « أم الحنطة » حتى أسرع بقواته الى بغداد ، فوصلها بثمانية أيام مع العلم

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ١٤١ .

أن المسافة التي قطعها تستغرق عادة ما يقارب العشرين يوماً . ولم يسترح عمر باشا في بغداد بل خيم في موقع « المنطقة » بين الكاظمية وبغداد ، ومن هناك أمر فرسانه باطلاق أعنة خيولهم نحو الدجيل بكل سرعة ، وكان الوقت ليلاً ، فباغت عشيرة العبيد مباغتة ، حيث وجدوا انفسهم محاطين بالعساكر من كل جانب فلاذوا بالفرار وهم فزعين ، ووقع سلطان بك الشاوي أسيراً فجيء به الى عمر باشا ولكنه آثر الانتحار فأغمد خنجره في صدره غيظاً[1] .

انتقاض الأمر :

بدأ الأمر ينتقض على عمر باشا منذ عام ١٧٧٢ حيث وفد الطاعون الى بغداد ثم أخذ يسرى الى سائر انحاء العراق . وقد جاء هذا الطاعون من اسطنبول ثم انحدر جنوباً ، وأخذ يقضى على الآلاف من السكان كأنه يحصدهم حصداً حتى قيل إنه هلك في يومه الاول في بغداد سبعون ألفاً ثم صار عدد الموتى يزداد يوماً بعد يوماً . واستمر الوباء زهاء ستة أشهر .

أخذ الاغنياء من سكان المدن ـ ولا سيما بغداد ـ يتركون بيوتهم وينصبون خيامهم في الارياف بعيداً كما هي عادتهم في كل وباء يجتاحهم ، وقد كان عمر باشا يقرعهم على ذلك في أول الأمر ، ثم وجد أخيراً أنه مضطر أن يفعل فعلهم ، فذهب بأهل بيته الى مقربة من الاعظمية ونصب خيامه هناك حتى خفت وطأة الوباء .

وانتهزت العشائر ما حل ببغداد فجاؤا اليها وعاثوا فيها نهباً وتخريباً . وازداد عيث العشائر بعد زوال الطاعون إذ لم يبق من رجال الحكومة وجنودها ما يكفى لضبط الأمن فاغتنموها فرصة ثمينة على طريقة « غاب القط فالعب يا فار » .

ولم يكد يستريح الناس من خطر الطاعون حتى نشبت فتنة في

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

كردستان بين آل بابان ، والتجأ محمد باشا بابان الى كريم خان الزندى في ايران يستنجد به ، فزوده كريم خان بالقوات العسكرية وبالمال والعتاد ، وعاد محمد باشا من ايران على رأس تلك القوات فوقعت بينه وبين قوات عمر باشا معركة شديدة هُزم فيها وخسرت القوات الايرانية التي كانت معه آلاف القتلى والجرحى والاسرى[1] .

النزاع مع ايران :

كان لهزيمة محمد باشا بابان وللخسائر الفادحة التي مُنيت بها القوات الايرانية أسوأ الأثر في كريم خان الزندي ، فانه تلقى نبأ الهزيمة بمنتهى التأثر وعقد النية على مواصلة القتال مع حكومة بغداد حتى النهاية . ومما زاد في الطين بلة ان عمر باشا استحوذ على أموال الايرانيين الذين ماتوا في الطاعون في البصرة وبغداد والعتبات المقدسة ، فقد كانَ في البصرة وبغداد ما يربو على سبعمائة اسرة ايرانية ماتوا جميعاً بالطاعون فكانت اموالهم كلها من نصيب عمر باشا[2] . ويقال إنه قبض على جماعة من سكان الكاظمية ووضعهم تحت العصا مما أدى الى وفاة أحدهم[3] .

وفي عام **١٧٧٥** أرسل كريم خان جيشاً ضخماً بقيادة أخيه صادق خان نحو البصرة فحاصرها . ودام الحصار ثلاثة عشر شهراً عانى أهل البصرة فيه أشد العناء ، وتفاقمت المجاعة بينهم حتى اضطروا الى أكل القطط والكلاب . وصادف ان كان في البصرة آنذاك رجل من اعيان الايرانيين هو السيد نعمة الله الشوشترى فتوسط لدى صادق خان على تسليم البصرة حسب شروط اتفقوا عليها ، وبهذا دخل الجيش الايراني المدينة فاتحاً .

(١) أحمد علي الصوفي (المماليك في العراق) ـ الموصل ١٩٥٢ ـ ص ٢٣ ـ ٢٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص٣١ .
(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٥٢ .

اختلفت أقوال المؤرخين حول معاملة صادق خان لأهل البصرة عند فتحها • فالمؤرخ البريطاني السر برسي سايكس يشير الى أنها كانت معاملة عادلة[1] ، ويؤيد لونكريك هذا الرأي بعض التأييد حيث يقول : إن الايرانيين دخلوا البصرة بكل انتظام ، ولم يُسمح بأي عنف أو فوضوية عند الدخول ، غير أن بعض الحوادث الطفيفة وقعت فعلاً • ولكن لونكريك يضيف الى ذلك أن الايام السود حلت بالبصرة بعدئذ حين بدأ جمع الغرامة من السكان فقد التزم الاغنياء بجمع المبلغ ولكن الفقراء هم الذين دفعوه في الحقيقة ، فعم الجور وسوء الاستعمال وتفاقم أمرهما[2] •

أما المؤرخ البصري ابن سند فقد أطنب في ذكر المظالم التي أنزلها صادق خان في البصرة حيث قال عنه ما نصه : « ••• فدخل البصرة بعسكره وهتكها وفضحها ، ولم يبق مأثماً الا ارتكبه ، ولم يف بشيء مما وعد به من العهود ، وما ترك نوعاً من الظلم الا تجشمه ، أفعال ولا أفعال التتار ، وأمر الناس بسب الصحابة جهراً علناً على المنابر والمنائر ، خصوصاً أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة ، ونودي بحي على خير العمل ••• »[3] •

مقتل عمر باشا :

عندما وصل نبأ حصار البصرة الى اسطنبول ـ في بداية الأمر ـ ظن المسؤولون هناك أن السبب الاكبر في هذا النزاع مع ايران هو عمر باشا وأن عزله لابد أن يؤدى الى عودة السلم بين الدولتين ، ولكنهم كانوا يدركون أن عزله ليس بالأمر الهين إذ هو قد يعلن العصيان على الدولة فيتابعه أنصاره

---

(1) Percy Sykes (A History of Pereia) — London 1958 — Vol. 2, p. 281.

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٨٩ •

(٣) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود) ـ اختصار أمين الحلواني ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ص١١ •

من المماليك أو غيرهم وهم كثيرون .

وفي عام ١٧٧٦ وصل الى بغداد على التوالي ثلاثة قواد ، ومع كل واحد منهم قوة عسكرية كبيرة ، وهم : أوزون عبدالله باشا والي ديار بكر ، ومصطفى باشا الاسبيناخجي والي الرقة ، وسليمان باشا الجليلي والي الموصل . وكان القصد من مجيئهم هو عزل عمر باشا ولكهنم تظاهروا بأنهم جاؤا لنجدته في حرب العجم ، وقد انطلت الحيلة عليه حتى أنه أوعز اليهم بأن يذهبوا الى البصرة لفك الحصار عنها[١] .

كان مصطفى باشا الاسبيناخجي هو الذي أسندت اليه ولاية بغداد وخُوّل أن يقتل عمر باشا اذا امتنع عن تسليم الولاية اليه . وحين اجتمع الرجلان وعرف عمر باشا بأمر عزله أظهر الطاعة ولم يبد عليه أي اعتراض ثم غادر بغداد مع جمع من أصحابه وخيم في « المنطقة » في منتصف الطريق الى الكاظمية . والظاهر أن مصطفى باشا لم يطمئن من هذه الحركة التي قام بها عمر باشا وربما خيل له أن في الأمر مكيدة فبعث قوة من الجند ليهاجموا عمر باشا ليلاً ، وقد تمكن عمر باشا من الهروب غير أن فرسه كبا به فسقط على الارض وانكسرت رقبته . ثم عثر عليه أحد الجنود فقطع رأسه وذهب به الى مصطفى باشا فأرسله هذا الى اسطنبول[٢] .

أمر الوالي الجديد مصطفى باشا الاسبيناخجي بمصادرة أموال الوالي القتيل ، وكذلك أمر بجباية الأموال من الاغنياء زاعماً أنها من أجل انقاذ البصرة غير أنها كانت تتسرب الى جيبه ، فضج الناس بالشكوى منه وكتبوا الى السلطان فيه . أضف الى ذلك أنه كان يضيق على المماليك ويعلن أنه يريد القضاء عليهم ، مما جعلهم يتسللون من بغداد تدريجاً حيث تجمعوا في منطقة غير بعيدة الى الشرق منها ، برئاسة زعيم لهم هو عبدالله باشا الكهية ،

---

(١) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص٣٤ .
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٥٥ .

وأخذوا يهددون بغداد ويشنون الغارة على اطرافها مرة بعد مرة ، وتمكنوا من احتلال بعض المواقع • وانتهزت العشائر هـذه الفرصة فعادت الى ديدنها القديم وأكثرت من الغزو والنهب وقطع الطريق •

وفي هذا الوقت العصيب سقطت البصرة بيد الجيش الايراني على نحو ما ذكرناه آنفا ، ولم يسع السلطان تجاه ذلك الا أن يصدر أمره بعـزل مصطفى باشا من ولاية بغداد مع العلم أنه لم يكن قد مضى عليه فيها سوى ثمانية أشهر أو تسعة ، وسيق الوالي المعزول الى ديـار بكر مخفوراً ، وهناك قطع رأسه بأمر من السلطان •

التعبئة العامـة :

جمع السلطان في اسطنبول المجلس العـام للدولـة ـ وهو مجلس لا يُعقد الا عند اشتداد الازمات ـ وقرر المجلس وجوب اعلان الحرب على كريم خان الزندي ، وبذا قُدم استفتاء الى شيخ الاسـلام هـذه صـورة موجزة منه :

« ان زيداً الجائر من سـكان بلاد العجم والذي يزعم بأنه وكيل الشاه ، قد كون له عصابة باغية من اللصوص والمجرمين • وقد شـرعت هذه الفئة الباغية تهاجم بلاد المسلمين واستولت على احدى القلاع الاسلامية وفتكت بأرواح المسلمين ، فهل يُعد (زيد) ومن ناصـره من الباغين ؟ (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) ، وحسب منطوق الآية الكريمة هل وجب قتال هذه الفئة الباغيـة واسـترجاع القلعـة التي اغتصـبتها من المسلمين ؟ » ، فكان جواب شيخ الاسلام على هذا الاستفتاء هو : « نعم ، وجب قتالها والله أعلم » •

وعلى اثر صدور هذه الفتوى أُعلنت التعبئة العامة في جميع الولايات العثمانية ، ثم تقرر أن يصـدر العفو عن المماليك المتمردين وأن يولّى

زعيمهم عبدالله باشا على بغداد ، وذلك حرصاً على وحدة الصف تجاه العدو المشترك • ثم وصلت الى بغداد من اسطنبول خمسمائة كيس من النقود لسد نفقات الحرب ، وجاءت عن طريق الفرات مائة وخمسون سفينة محملة بالجنود[1] •

محمد العجمي :

يقول الشيخ رسول الكركوكلي في كتابه « دوحة الوزراء » : عندما وصل عبدالله باشا الى بغداد والياً كان الاعتقاد السائد لدى الخاص والعام أن هذا الرجل هو الذي سينقذ البصرة من أيدي العجم ، ولكنه بالنظر لما جُبل عليه من الميل الى الأنس والطرب نسي المهمة المكلف بها وانغمس في الملذات بتشجيع من محمد بك العجمي[2] •

الواقع أن محمد العجمي هذا الذي أشار اليه صاحب « دوحة الوزراء » قد لعب دوراً كبيراً جداً في المجتمع البغدادي خلال حقبة غير قصيرة ، ولابد لنا من الوقوف عنده لندرس شيئاً من سيرته وشخصيته •

إن محمد العجمي ــ وكان البغداديون يسمونه عجم محمد ــ جاء الى بغداد منذ عهد عمر باشا ، وكان اذ ذاك شاباً أمرد مليحاً ، وله صوت جميل ، وقد جاءت معه أمه واختاه اللتان كانتا على جانب عظيم من الحسن • واستطاع محمد أن يجعل من أسرته هذه شبه جوقة موسيقية ، فكانت أختاه ترقصان وأمه تنقر على الدف وهو يغني • وكان يتعاطى مهنة « القيادة » أيضاً ويقال إنه كان يفتخر بذلك قائلاً : « ما وصلت الى ما وصلت اليه الا بهذه الصنعة الشريفة »[3] •

---

(١) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص ٣٨ ــ ٤١ •
(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ١٥٩ •
(٣) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص١٧ •

يقول ابن سند البصري في وصفه : « ... فنفقت سوقه في بغداد وأقبل عليه أهل الفجور والفساد من أمراء بغداد وأعيانها ، ونبه وعظم ، وصار يتوسط للناس في قضاياهم ، ويرتشي وتُهدى اليه الهدايا ، وداهنه أرباب الحاجات ، ونفع وضر ، الى أن صار يُعد من رجال الدولة وعظمائها ، وتقرب من الوزراء وجرى فيهم مجرى الدم من اللحم ونادمهم — وكان فصيحاً منطيقاً — وقبل عبدالله باشا صار دويداراً عند عمر باشا ، ففتح له أبواباً من الظلم ووشي اليه على ناس وأخرب بيوتهم ، وهرب أكثر تجار بغداد من خوفهم من شر عجم محمد ، وشاب وظلمه وفجوره شباب ، وكلما طال عمره زاد شره ، وعلمته التجارب طرقاً يضار بها أعداءه يغفل عنها ابليس ، حتى أنه لما قُتل الوزير عمر باشا فرح الناس لظنهم أنهم خلصوا من شر عجم محمد وأن ناره قد خمدت ، مع أن عمر باشا كان للخير أقرب وله مآثر حسنة ... فما يشعرون الا ومصطفى باشا قربّه اليه أكثر من قرب عمر باشا ، وصار هو مستشاره الأول وأول داخل عليه وآخر خارج عنه ، وولاّه خازنداريته ، وعكف الكل على الخمور والزنا واللواطة وجميع أنواع الفجور والمظالم ، حتى أنه لما أرسل السلطان خزنة لصرفها على محاربة العجم واخراجهم من البصرة استحوذ عليها ذلك اللعين عجم محمد ... وأبان للوزير عبدالله باشا حسابات ودفاتر مسددة بأنه صرفها فيها ، ومن غفلة الوزير عبدالله باشا أنه صدقه وائتمنه ، لأن هذا الوزير كان أبله ومغفلاً وألكن ، ولكن سبحان من أعطاه الوزارة ، ومنه يُعلم أن الوزارة ليست بالعقول والمعارف بل بالجدود والحظوظ ... »[1] .

معارك محلية :

لم يدم حكم عبدالله باشا سوى سنتين إذ ابتلي في آخرها بمرض الاستسقاء ، وفي شتاء **١٧٧٧** مات فكان موته إيذاناً بنشوب معارك محلية

(١) المصدر السابق ، ص ١٧ — ١٨ .

عنيفة في بغداد استمرت عدة أشهر .

كان التنافس على الحكم بعد موت عبدالله باشا منحصراً بين شخصين هما محمد العجمي واسماعيل أغا الكهية ، وانقسمت محلات بغداد الى فريقين متناحرين حيث تعصب كل فريق منهما لاحد المتنافسين ضد خصمه. فقد وقفت محلات الفضل والمهدية والقراغول والميدان الى جانب محمد العجمي ، بينما وقفت محلات رأس القرية وباب الشيخ والشورجة الى جانب اسماعيل أغا[1] . وقد انحاز المماليك الى اسماعيل أغا بوجه عام ، أما الانكشارية فقد انقسموا الى فريقين ، وانحاز الجنود المحليون الى من كان يدفع لهم مالاً أكثر[2] . وصار كل فريق يكتب العرائض ويجمع التواقيع ليبعثها الى السلطان في سبيل تعيين مرشحه والياً على بغداد بدلاً من مرشح خصمه .

حاول سليمان بك الشاوي رئيس العبيد تهدئة الحالة ، وكان ذا منزلة محترمة لدى مختلف الطبقات في بغداد ، فارتأى أن يخرج المرشحان كلاهما من بغداد حتى ينجلي الوضع ، فوافقه على ذلك اسماعيل أغا غير أن محمد العجمي أبى وعاند . وكان أهل الميدان من أشد أنصار العجمي عصبية له ، لأنه كان يغمرهم بفضله[3] ، وقد جادلهم الشاوي ذات مرة قائلاً لهم بأن مرشحهم لا تقبل به الدولة والياً على بغداد لأنه من العجم فأجابوه بلسان واحد : « ليكن عجماً ، فان الروم عينوا خمسة وزراء من العجم وهذا سادس »[4] .

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٧٠ ـ ٧١ .
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٨١ .
(٣) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص٢٤ .
(٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٧٣ .

استنجد محمد العجمي بصديقه أحمد اغا رئيس « اللاوند »[1] الذي كان في بعقوبة يومذاك فأنجده بجماعة كبيرة من « اللاوند » ، وجاء هؤلاء فخيموا تجاه مقبرة الشيخ عمر فتقوى بمجيئهم أهل محلة الميدان •

ومن الجانب الآخر تقوى فريق اسماعيل أغا بانضمام سليمان بك الشاوي وعشيرة عقيل اليه ، وعبرت عشيرة عقيل دجلة من الكرخ وجعلوا متاريسهم على رأس الجسر قرب المولى خانه • ودامت المعارك بين الفريقين خمسة أشهر نهبت فيها الاسواق والبيوت ، وسفكت الدماء ، وانتهكت الحرمات « وكم من غني أصبح فقيراً وفقير أصبح غنياً »[2] • واشتد البلاء بالمستضعفين من الناس • وصار القتال مشهداً من مشاهد الأسواق في كل يوم •

ولم تهدأ الحالة الا في شهر أيار عام ١٧٧٨ عندما وصل حسن باشا الكركوكلي وهو يحمل فرماناً من السلطان بولاية بغداد ، ودخل الوالي الجديد بغداد بموكب رسمي حافل فهرب محمد العجمي الى نواحي ديالى بمعونة صاحبه أحمد أغا ، ومن هناك صارا يقطعان الطرق ويغيران على بغداد •

ولاية حسن باشا الكركوكلي :

في عهد هذا الوالي استرجعت البصرة من أيدي الايرانيين ، ولم يكن للوالي أي فضل في ذلك إذ أن الجيش الايراني هو الذي انسحب منها على اثر وفاة كريم خان في شيراز • وعاد الى البصرة متسلمها السابق سليمان أغا بعد أن ظل محبوساً في شيراز طيلة مدة الاحتلال الايراني للبصرة ،

(١) اللاوند لفظة تركية تعنى الجنود شبه النظاميين الذين كانوا في العهد العثماني يُجندون محلياً ، وهم في الغالب من الاكراد أو اللور • وفي بغداد الآن محلة تعرف بـ « خان اللاوند » نسبة اليهم •

(٢) المصدر السابق ، ج٦ ص٧٤ •

والظاهر أنه لم يلق في حبسه أي أذى وقيل إن الايرانيين أحبوه وأكرموه •

دامت ولاية حسن باشا في بغداد مدة قصيرة لا تزيد عن ثمانية عشر شهراً ، وقد عانى الأهالي في أثناءها الشيء الكثير من الضيق ، فقد استطاع محمد العجمي أن يجمع حوله من الاتباع ما يزيد على العشرة آلاف وسيطر بهم على مناطق واسعة في نواحي بعقوبة وعاث بالأمن ومنع سير القوافل وقطع الطرق مما أدى الى تعطيل الحياة الاقتصادية في بغداد ، وكان له أنصار في بغداد غير قليلين ، ولا سيما في محلة الميدان ، فكانوا يحرّضون الأهالي على الثورة • والمظنون أن المماليك في بغداد لم يكونوا راضين عن ولاية حسن باشا ، وهو ليس منهم ، فكانوا من عوامل الثورة عليه أيضاً •

وفي أواخر تشرين الاول من عام ١٧٧٩ حدثت مشاجرة بين شخصين قرب مقبرة الشيخ عمر ، فلما سمع أهل الميدان بها اتخذوها ذريعة لاعلان الثورة وأخذوا يصرخون عالياً بأنهم لا يريدون حسن باشا • فخشي الوالي مغبة ذلك والتجأ الى القلعة الداخلية متحصناً بها • وفي اليوم التالي حين أدرك الأهالي ضعف الوالي تجمعوا في الطرقات واتخذوا المتاريس ثم بدأوا مهاجمة السراي •

وعندما حل الظلام في عشية ذلك اليوم تسلل الوالي الخائف من باب القلعة وعبر النهر نحو جانب الكرخ ، واستطاع أخيراً أن يهرب الى ديار بكر ، وهناك ابتلي بمرض لازمه بضعة أيام ثم مات(١) •

كان سليمان أغا في البصرة يرقب أحداث بغداد بعين اليقظة ، وأخذ يكاتب السلطان مزيناً له اسناد ولاية بغداد اليه وتعهد أن يقطع دابر الفتن فيها ويعمل على توطيد الأمن ، وبعد مراسلات عديدة اقتنع السطان وأصدر

---

(١) المصدر السابق ، ج٦ ص٨٢ ـ ٨٣ •

أمره بتوجيه ولاية بغداد الى سليمان أغا بالاضافة الى وظيفته الاصلية[1] .

إن سليمان أغا هذا هو الذي اشتهر بين الناس فيما بعد باسم « بيوك سليمان » ـ أي سليمان الكبير ـ وهو من المماليك ، ويعتبر عهده العصر الذهبي لحكومة المماليك في العراق .

---

(١) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص٥٣ .

الفصل السابع

سليمان الكبير

وظهور الحركة الوهابية

بدأ حكم سليمان الكبير في بغداد عام ١٧٨٠ ودام اثنتين وعشرين سنة ، وتلك مدة طويلة لم يحظ بها والى آخر غيره في تاريخ العهد العثماني كله . وهو انما لقب بـ « الكبير » تمييزاً له عن وال آخر اسمه سليمان تولى الحكم فيما بعد ، ولكنه على أي حال يستحق هذا اللقب من بعض الوجوه ، فقد وصفه أحد الذين اختلطوا به من البريطانيين ـ هو السر هارفورد جونز ـ حيث قال : « ربما كان سليمان أحسن نموذج وُجد لباشا تركي . فقد ولد مملوكاً ، فكان على جانب عظيم من جمال الرجال ـ وكان في قوامه ووجهه من المعاني المؤثرة والمنظر الخلاب للألباب ما يبعث في النفس الهيبة ـ ولا سيما عندما كان يلبس اللباس التركي المألوف . وكان بارعاً بجميع الحركات العسكرية والرياضية براعة المتخصصين كما أنه كان مخلصاً في عمله متحمساً في القيام بواجباته الدينية ... »[1] .

يبدو من هذا الوصف أن سليمان الكبير جمع في نفسه جمال الخلقة وكفاءة الشخصية ، واجتماع هاتين الخصلتين في شخص يفتح أمامه الأبواب

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ١٩٣ .

ويمهد له الطريق نحو النجاح المتواصل ، وكثيراً ما يؤثر منظر هـذا الشخص في عقول العامة فينسبون اليه أعمالاً لم يقم بهـا ويبالغون في مدحه . والواقع أن منظر الانسان من حيث وسامته أو دمامته له أهميـة اجتماعية كبيرة وكلما ازدادت وسامته ازدادت الفرصة أمامه للنجاح ونيل المكانة الرفيعة في المجتمع ، والويل لمن كان دميماً بليداً !

صار سليمان الكبير في نظر العراقيين أسطورة تحاك حولها المبالغات . يقول المؤرخ ياسين العمـري : إن محي الدين بن عربي ـ المتصـوف المشهور ـ كان قد تنبأ بحكم سليمان الكبير وشهد بفضله إذ قال في كتابه « الشـجرة النعمانيـة » : « يا رأس الرؤوس ويا نفس النفوس لك الظهور » ، فلفظة « الظهور » تساوي في حساب الحروف رقم (١١٩٢) وهو يرمز الى السنة التي بدأ بها حكم سليمان الكبير حسب التقويم الهجري ، وكذلك قال ابن عربي في وصفه : « فأمر بالمعروف في الأمور وأدار الزمان وحوادث الحدثان فقد يقوم بطل قرم لا عطل سيفه حسام قصا » ، فلفظة « قصا » تساوي في حساب الحروف اسم « سليمان »[١] . إن هـذه قد يعتبرها أهل زماننا من قبيل الأوهام والخرافات انما هي كانت في ذلك الزمان تعتبر من الحقائق التي لا شك في صحتها .

توطيد دعائم الحكم :

لم يكد سليمان باشا الكبير يصل الى بغداد على اثر توليه الحكم حتى توجه نحو ديالى للقضاء على محمد العجمي وعصابته الذين سيطروا على تلك الانحاء ، ونجح في ذلك مما جعل محمد العجمي يهرب الى ايران . ثـم توجه سليمان باشا بعدئذ نحو الخزاعل في الفرات الأوسـط ، وكـان هؤلاء قد اغتنموا فرصة الفوضـى التي حلت بالبلاد في الفترة السـابقة

(١) ياسين العمـري (غرائب الأثـر في حوادث ربع القرن الثالث عشر) ـ الموصل ١٩٤٠ ـ ص٦٢ .

فسيطروا على منطقة الفرات الأوسط زهاء ثماني سنوات برئاسة شيخهم حمد الحمود . واستطاع سليمان باشا أن يخضعهم لأمره بواسطة قطع مياه النهر عنهم دون أن يريق قطرة دم واحدة ، وقد كافأه السلطان على ذلك بسيف مرصع القبضة وثوب من السمور الفاخر . وفي عام ١٧٨٢ توجه سليمان باشا نحو كردستان لاخضاع ثورة قامت هناك ، فالتجأ المتصرف الثائر محمود باشا بابان الى ايران ، وعين سليمان باشا مكانه ابراهيم بك بابان . وابراهيم هذا هو الذي أسس بلدة السليمانية ، وهو انما سماها بهذا الاسم نسبة الى ولي نعمته سليمان باشا الكبير[١] .

إن هذه الموفقيات التي نالها سليمان باشا في بداية حكمه جعلت مهابته تزداد وقعاً في النفوس ، فاستتب الأمن في أنحاء البلاد ، وانتظم سير القوافل ، وراجت الأسواق . وجمع سليمان باشا من الداخل والخارج ألف مملوك وأخذ يدربهم تدريباً متعباً ليكونوا أهلاً للاعتماد عليهم عند الحاجة ، ثم عين للانكشاريين ضباطاً اختارهم بنفسه ووزعهم على مراكز الفرات الأوسط والخالص بدلاً من إبقائهم متجمعين في بغداد[٢] .

مجاعة في بغداد :

لم تقع حادثة شغب في بغداد طيلة عهد سليمان الكبير سوى مرة واحدة ، وهي حدثت من جراء قحط شديد حل بالبلاد في سنة ١٧٨٦ . ففي تلك السنة شح الماء في الأنهر كما شحت الأمطار فارتفع سعر وزنة الحنطة في بغداد الى ثمانية قروش[٣] ، وهذا سعر كان يعتبر في تلك

---

(١) أحمد علي الصوفي (المماليك في العراق) ـ الموصل ١٩٥٢ ـ ص ٥٤ ـ ٥٨ .

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٩٨ .

(٣) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ١٨٣ .

الأيام غالياً جداً لا يقدر عليه الا القليل من الناس ، فعمت المجاعة وانتشرت الأمراض حتى تراكمت جثث الموتى في الطرقات ، وأكل البعض الجيفة وامتصوا الدماء .

حاول الوالي أن يخفف من وطأة المجاعة على أهل بغداد ، فأمر باخراج ما كان في مخازن الحكومة من الشعير الذي كان معداً لعلف الخيل ، وفرّقه على الفقراء ، فلم يجد ذلك نفعاً[1] . فأخذت صرخات الثورة تنتشر في محلات بغداد واغتنم الاشقياء الفرصة فصاروا يصولون ويجولون كدأبهم في مثل هذه الحالة . وأخرج أهل باب الشيخ علم الشيخ عبدالقادر وساروا به متظاهرين ، وتعالت الأصوات بشتم الوالي والهتاف بعزله . ثم تقدمت الجموع نحو السراي بغية الهجوم عليه ، ولكن الوالي لم يضعف لهم أو يستسلم ، بل أمر جنوده بفتح النار عليهم ، فسقط منهم عدد من القتلى وفر الباقون . ولم يكتف الوالي بذلك بل أمر بالقاء القبض على الرؤساء الذين حرضوا على الشغب ، فصلب بعضهم فوراً ، لكي يكونوا عبرة لغيرهم ، وسجن آخرين منهم . أما الرجل الذي كان يحمل علم الشيخ عبدالقادر فلما أمسكوا به وجدوا في عقله خللاً فاكتفوا بنفيه الى البصرة[2] .

سليمان الشاوي :

لا يتم الحديث عن عهد سليمان الكبير في العراق ما لم نتطرق الى شيء من سيرة الحاج سليمان بك الشاوي ، فهذا الرجل في الواقع يستحق أن يُخصص له بحث قائم بذاته ، فسيرته تعطينا صورة واضحة لما كان عليه المجتمع العراقي في ذلك العهد من وضع عجيب .

(١) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود) ـ اختصار أمين الحلواني ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ص ٣٩ .

(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ١٨٤ .

كان الحاج سليمان يجمع في نفسه صفات قلما اجتمعت في أحد غيره ، فهو كان رئيس عشيرة كبيرة هي عشيرة العبيد ، وكان كذلك شاعراً من شعراء القريض وعالما لغوياً ومؤلفاً[1] ، علاوة على كونه من المقربين الى ولاة بغداد وكثيراً ما كان يتولى لديهم منصب « باب العرب » - أي إدارة شؤون العشائر - وقد أشرنا في الفصل السابق الى الثورة التي قام بها في عهد عمر باشا انتقاماً لمقتل أبيه والى الدور المهم الذي اضطلع به بعدئذ اثناء اشتداد المعارك بين محلات بغداد حيث انحاز الى جانب اسماعيل أغا ضد محمد العجمي .

وفي السنوات الأولى من حكم سليمان الكبير كانت العلاقة بينه وبين سليمان الشاوي متينة جداً ، وقد توسط الحاج سليمان لدى مشايخ الفرات الأوسط فجاء بهم الى بغداد لتقديم فروض الطاعة الى الوالي[2] . وظلت العلاقة بينهما متينة حتى عام ١٧٨٥ إذ توترت فجأة ثم انقطعت ، وغادر الحاج سليمان بغداد غاضباً فانضمت اليه عشيرته وأخذ يعيث بالأمن في نواحي الخابور .

اختلفت أقوال المؤرخين في تعليل هذا النزاع الذي نشب بين الرجلين، فالشيخ رسول الكركوكلي يقول : إن الحاج سليمان الشاوي سلك مع الوالي مسلك التكبر والعجب بالنفس والانانية ، فشمخ وتجبر ، وكثيرا ما كان يتطاول بالكلام على الوالي ويسمعه ألفاظاً غير لائقة ، وطالما نبهه الوالي كناية وتصريحاً فلم يفد معه شيء من ذلك بل ازداد غروراً وطيشاً ، يضاف الى هذا مناوأة الحاج سليمان للمهردار أحمد أغا ذي المنزلة الرفيعة ، وقيامه بالحط من قدره حسداً منه وغيرة ، كأنه يجهل أن شرف

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ الأدب العربي في العراق) - بغداد ١٩٦٢ - ج٢ ص٤١ - ٤٣ .

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٩٨ .

المرء بالفضل والأدب وليس بالأصل والنسب ، فاضطر الوالي بعد أن فرغ صبره الى نفيه من بغداد للتخلص من ثرثرة لسانه ...[١] .

أما أحمد علي الصوفي صاحب كتاب « المماليك في العراق » فيعزو النزاع بينهما الى سبب آخر هو أن الحاج سليمان الشاوي كان يحتقر في قرارة نفسه المماليك ويعتبرهم غاصبين سرقوا خيرات البلاد وتحكموا فيها رغم أنف أبنائها ، ولم يكن يتكتم في انتقاد حكمهم والشكوى من ظلمهم واستبدادهم ، وقد اشتدت نقمة الحاج سليمان حين رأى أحمد أغا المهردار وهو المملوك المغمور يسيطر على الأمور في بغداد ، فاستنكف الحاج سليمان وهو الشيخ العربي الكبير أن يسير في ركاب هذا المملوك القذر الحقير[٢] .

وهناك مؤرخ ثالث يرجع السبب الى ما هو أعمق من ذلك فيقول إن الوالي سليمان الكبير كان قد وضع خطة مكتومة لجعل الادارة كلها بأيدي المماليك والقضاء على نفوذ أية جماعة أخرى ، فقام بابعاد زعماء الانكشارية والعرب والأكراد ، واستغل اشتداد الخصومة بين مهرداره أحمد أغا والحاج سليمان فاتخذ ذلك ذريعة لابعاد الحاج سليمان ، ولم يكن يعرف مكنون سره سوى المهردار أحمد أغا[٣] .

الشاوي ثائراً :

أمضى الحاج سليمان الشاوي في الخابور بضعة أشهر يستعد لقتال الحكومة ، وقد التفت حوله عشيرته العبيد كما انضم اليه كل متشرد أو هارب من مختلف القرى والمدن ، وأخذت قواته تعبث بالأمن فيما بين الخابور وضواحي بغداد حتى أصبحت الطرق والبساتين حول بغداد غير

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ١٨١ ـ ١٨٢ .
(٢) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص٥٩ ـ ٦٠ .
(٣) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ج٦ ص ٩٦ .

آمنة[1] • وفي عام ١٧٨٦ وقعت معركة مهمة بين قواته وجيش الحكومة بالقرب من الفلوجة انتصر فيها على الجيش انتصاراً ساحقاً • وبعد مرور شهر واحد على معركة الفلوجة وصل الحاج سليمان بقواته الى ضواحي بغداد الغربية ونزل عند قبر الحلاج القريب من الست زبيدة ، فانقطعت السبل وانتشر الذعر بين سكان بغداد وظنوا أن مدينتهم ستسقط قريباً في ايدى العشائر ويشيع النهب والقتل فيها •

أسرع الوالي يجمع من استطاع جمعه من الجنود ، وأمر بتجنيد الكثير من سكان بغداد ، وتمكن أخيراً من دحر العدو ، وقد أبدى العقيليون من سكان الكرخ بسالة في الدفاع لا تنكر ، مما اضطر الحاج سليمان الى الانسحاب نحو الدجيل ثم ذهب الى شفاثة ، ومن هناك التجأ دخيلاً الى ثويني شيخ المنتفق •

سارع الشيخ ثويني الى تأييد الحاج سليمان ، وكاتب حمد الحمود شيخ الخزاعل لتكوين جبهة عشائرية قوية ضد الحكومة • وقد تم تكوين تلك الجبهة فعلاً حتى قيل عنها إنها كانت أخطر ثورة عربية قامت في وجه حكومة المماليك في العراق[2] • وأرسل الشيخ ثويني قسماً من خيالة المنتفق الى البصرة فدخلتها واستولت على السراي ، وبعد يومين دخل ثويني البصرة مع خمسة آلاف من رجاله فاعتقل رؤساء الدوائر الحكومية وضباط الاسطول وصادر أملاكهم وأموالهم كما فرض على سكان البصرة غرامة قدرها ستة آلاف تومان ، وبذا صارت في البصرة حكومة عربية قبلية[3] •

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٠٠ •

(٢) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص٦٣ •

(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٠١ •

في شهر آذار من عام ١٧٨٧ توجه سليمان باشا على رأس جيش كبير نحو البصـــرة عن طريق الفرات • وفي ١٣ تشرين الاول وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين في موقع « أم الحنطة » قرب البصرة ، وقد استخدمت العشائر فيها المدافع وأبدى فيها سليمان باشا من الشـجاعة والاقدام شـيئا كثيرا اذ سل سيفه وأخذ يصول ويجول بين الصفوف • وانتهت المعركـة بانتصاره وبحصوله على غنائم لا تحصى •

وأصدر سليمان باشا أمرهً بعزل ثويني من مشيخة المنتفق وعين مكانه حمود السعدون ، وكذلك عزل حمد الحمود عن مشيخة الخزاعل وعين مكانه محسن الحمد • أما الحاج سليمان الشاوي فقد تمكن من الفرار وبقي فاراً مدة ثم طلب العفو من الوالي فعفا الوالي عنه وأعاد اليه أملاكه وأمره بالاقامة في مقاطعاته الواقعة غرب بغداد في موضع يقال له « تل أسود » •

ظل الحاج سليمان في « تل أسود » حتى عام ١٧٩٠ ، ففي هذه السنة عاد محمد العجمي من ايران فجأة والتجأ « دخيلا » عنده حسب التقاليـد العشائرية ، وهنا صار الحاج سليمان في موقف حرج لا يدري كيف يخرج منه ، فليس من الهين عليه أن يرفض « دخالة » من التجأ اليه ، وكذلك ليس من الهين أن يكون عرضة لغضب الوالي عليه •

أرسل الوالي اليه يطلب منه تسليم « دخيله » ، فأخذ يماطل في اجابة الطلب مما حمل الوالي على أن يوجه اليه حملة بقيادة الكهية • ولم يجد الحاج سليمان تجاه ذلـك سوى الهرب نحو الصحراء مـــع « دخيله » العجمي ، وقد خسر من جراء ذلك كثيرا من أمواله ومواشيه[١] • انـــه آثر تحمل الخسارة المادية على تحمل الخسارة المعنوية •

استطاع محمد العجمي أخيرا أن يهرب عن طريق الصحراء الى مصر

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ١٩٤ •

ـ حيث مات فيها ـ وذهب الحاج سليمان الشاوي الى قومه في الخابور • وفي عام ١٧٩٤ اغتاله أحد أقربائه[1] ، فاستراح وأراح !

ظهور الحركة الوهابية :

في عهد سليمان باشا الكبير استفحلت الحركة الوهابية في نجد ، وتم لها احتلال الاحساء ، وأخذت تهدد العراق تهديدا خطيرا • ولابد لنا في هذه المناسبة من ذكر شيء عن بداية هذه الحركة ومبادئها الاساسية •

سُميت الحركة الوهابية بهذا الاسم نسبة الى مؤسسها الشيخ محمد ابن عبدالوهاب[2] وقد وُلد هذا الرجل في « العيينة » من قري نجد في عام ١٧٠٣ ، وكان أبوه قاضي القرية فنشأ في بيئة دينية ، وأتم دراسته الدينية في مكة والمدينة والبصرة • وقد ظهرت عليه أولى بوادر التجديد الديني عندما كان يدرس في المدينة حيث رأى الناس يستغيثون بقبر النبي ويشفعونه في حاجاتهم فأنكر ذلك عليهم واعتبره إشراكا بالله • وحين جاء الى البصرة ، وشاهد انهماك سكانها في الشفاعة والتوسل بالقبور ، أخذ ينتقدهم بعنف مما أثار استياء البعض منهم فأخذوا يضايقونه ، ثم طردوه من البصرة ، وكاد يموت في الصحراء من العطش •

كان الشيخ يعتقد اعتقادا جازما أن مبدأ الشفاعة والتوسل بالقبور من الامور المنافية لعقيدة التوحيد الاسلامية ، فالله يقول في كتابه : « واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعاني » ، ويقول كذلك : « وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » ، وفي القرآن آيات أخرى في مثل هذا المعنى إذ هي تحضّ الناس على أن يكون توسلهم الى الله ودعائهم له

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص١١٣ •

(٢) ان الوهابيين أنفسهم لا يرتضون هذا الاسم لهم ، فهم يسمون أنفسهم بـ « الموحدين » ، وقد جرينا في هذا الكتاب على الاسم الشائع لهم وهو الاسم المستعمل في أكثر المصادر التاريخية •

وحده ، فلماذا يخالف المسلمون ما جاء في القرآن اذن !!

كان الشيخ محمد يعتبر الاضرحة التي اعتاد المسلمون على تقديسها وزيارتها هي كالاوثان التي كان أهل الجاهلية يعبدونها من دون الله ، فالناس يرجون من المدفونين في تلك الاضرحة أن يتشفعوا لهم عند الله ويقربوهم اليه زلفى ، وهذا في نظر الشيخ محمد هو نفسه ما كان أهل الجاهلية يفعلونه تجاه الاوثان .

لقد ملكت هذه الفكرة عقل الشيخ محمد حتى صار لا يرى في الحياة سوى هدف واحد هو ارجاع الناس الى الفطرة الاسلامية الاولى وهي عبادة الله وحده وترك عبادة الاضرحة . والواقع أنه لم يكن أول من فكر بمثل هذه الفكرة . فقد سبقه اليها ابن تيمية قبل خمسة قرون ، ولكن الفرق بينهما هو أن ابن تيمية نادى بالفكرة في بيئة حضرية فلم ينجح بينما نادى محمد بها في بيئة بدوية فنجح نجاحا عظيما .

في عام ١٧٣٠ ذهب الشيخ محمد الى « حريملة » من قرى نجد وأخذ يعلن دعوته فيها ، فتابعه البعض من سكانها بينما عارضه الآخرون ، وبهذا انقسم أهل البلدة الى فريقين متعاديين ، وكاد خصومه يقتلونه لولا هروبه من القرية وذهابه الى قرية « العيينة » التي ولد فيها ، وهناك آزره أميرها عثمان بن حمد وزوجه بأخته جوهرة .

بدأ الشيخ محمد يطبق مبادئه في تلك القرية عمليا فأمر بقطع الاشجار التي كانت مقدسة لدى العامة ، وذهب بنفسه يحمل معولا لقطع الشجرة الرئيسة التي كانت أكثر قدسية من غيرها . والتفت بعدئذ الى ضريح مقدس في نجد غاية التقديس هو قبر زيد بن الخطاب الذي قُتل هناك أثناء حروب الردة ـ وهو أخو الخليفة الثاني عمر ـ فذهب الشيخ بصحبة ستمائة رجل من أتباعه بغية هدم الضريح ، فخرج اليه سكان القرية المجاورة ليحولوا دون مراده فلم يوفقوا ، وأخذ الشيخ المعول بيده فهدمه .

وقد توقع العوام أنه سيصاب بمصيبة أثناء الليل جزاء انتهاكه حرمة الضريح المقدس ولكنهم أبصروه في الصباح التالي وهو يتمتع بصحة جيدة[1] •

التحالف مع ابن سعود :

في عام ١٧٤٥ اختلف محمد بن عبدالوهاب مع أمير حريملة فخرج منها لاجئاً الى قرية أخرى هي قرية « الدرعية » التي كان يحكمها الامير محمد بن سعود • ويشبّه الوهابيون هجرته هذه بهجرة النبي محمد من مكة الى المدينة •

تحالف الشيخ محمد بن عبدالوهاب مع الامير محمد بن سعود وتعاهدا على أن يكونا يداً واحدة في نشر الدعوة الجديدة ومكافحة خصومها ، وكان ذلك ايذاناً بتحول الدعوة من طورها السلمي الى طورها الحربي •

أدخل الشيخ محمد في عقول أتباعه مبدأ الجهاد المقدس باعتباره أهم الفروض الدينية ، وبذا وضع إصبعه على النقطة الحساسة في المجتمع البدوي وهي الغزو والغنيمة ، فصارت القبائل تتهافت على الانضمام الى الدعوة الجديدة ، وكان كل نصر تناله الدعوة في غزواتها يزيد من عدد أتباعها ومن حماسهم لها •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن ما جاءت به الدعوة الجديدة من استنكار لعقيدة الشفاعة وتكفير لاصحابها كان عاملا مهماً في نجاحها ، فهو قد أعطى لاتباعه حجة لغزو المخالفين لهم باعتبارهم مشركين تحل دماؤهم وأموالهم ونساؤهم • أضف الى ذلك أن البدو بطبيعتهم لا يهتمون بعقيدة الشفاعة كما يهتم بها الحضر ، فهم لم يتعودوا على الوساطة في حياتهم الاجتماعية ، وليس لديهم حكام مستبدون كما هو الحال عند الحضر ، ولذا

(١) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد وتاريخ الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية) ــ ترجمة عمر الديراوي ــ بيروت بدون تاريخ ــ ص٣٧ •

فهم يستطيعون أن يفهموا المبدأ الوهابي في استنكار الشفاعة ويستجيبوا له من غير صعوبة • ولعل هذا هو السبب الذي جعل الدعوة الوهابية يسهل انتشارها بين البدو بينما هي من الصعب انتشارها بين الحضر ، إن الفرد الحضري الذي اعتاد على الشفاعة في علاقاته مع حكامه يصعب عليه أن يستغني عنها في علاقاته مع ربه • يمكن القول بوجه عام إن أكثر العقائد والطقوس الموجودة لدى العامة هي صدى لعاداتهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، ثم يأتي رجال الدين بعدئذ فيؤيدون العامة فيما يعتقدون وما يفعلون •

بين المحاسن والمساوىء :

يقول ابن سند البصري في وصف الحركة الوهابية ـ وكان معاصراً لها تقريباً ـ : « ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتوا البدع ومحوها • ومن محاسنهم أنهم أمنوا البلاد التي ملكوها ، وصار كل ما كان تحت حكمهم من هذه البراري والقفار يسلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر ، خصوصاً بين الحرمين الشريفين • ومنعوا من غزو الاعراب بعضهم على بعض ، وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم ــ من حضرموت الى الشام ــ كأنهم اخوان أولاد رجل واحد ، وهذا بسبب قسوتهم في تأديب القاتل والسارق والناهب الى أن عدم هذا الشر في زمان ابن سعود ، وانتقلت أخلاق الأعراب من التوحش الى الانسانية ••• فكأنهم جعلوا تأمين الطرقات ركناً من أركان الدين • ويُفهم عقلا من سياستهم أنه اذا فُقد القاتل والسارق والناهب فأي سبب يمنع الناس من الاشتغال بالزراعة أو التجارة أو اقتناء المواشي في البادية المخصبة للتكسّب من ألبانها وأصوافها وجلودها، واذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون ، فكأن المسألة شبيهة بالدورية ـ أي متى وُجد الامان ارتفع السارق والقاتل لاشتغالهم بمعاشهم الحلال ومتى اشتغلوا بالحلال وُجد الامان ، ولكن هذا الدور منفك الجهة ، ولولا ما في الوهابيين من هذه النزعة أعني نزعة تكفير

من عداهم لملكوا جميع بلاد الاسلام وأدخلوهم تحت حكمهم بطوعهم واختيارهم ، ولكن بسبب هذه النزعة أبغضتهم الامم وتسلطت عليهم الدول ... »[1] .

ان هذا القول الذي جاء به ابن سند هو تحليل اجتماعي لا بأس به ، ولكننا نستطيع مناقشته من ناحيتين : الاولى أنه اعتبر نزعة التكفير لدى الوهابيين من أسباب فشلهم وبغض الامم لهم ، وقد نسي أن هذه النزعة هي التي أعطتهم الحجة المشروعة لقتال المخالفين لهم ـ كما أشرنا اليه آنفاً ـ ولولاها لما تهافتت القبائل البدوية على الدخول في الدعوة وأبدت فيها ذلك الحماس المنقطع النظير .

ومن الناحية الثانية يقول ابن سند إن قسوة الوهابيين في تأديب الناهب والقاتل هي التي أمنت الطرق في الصحراء ، وهذا رأي لا يخلو من وجاهة ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إن القسوة في التأديب لا تكفي وحدها في هذا الشأن ، فالبدو الذين قامت ثقافتهم الاجتماعية على الغزو والنهب منذ قديم الزمان لا يمكن أن يتركوا ذلك ما لم يجدوا مجالا آخر يعوضهم عنه على وجه من الوجوه .

الواقع ان الدعوة الوهابية أشغلت البدو بغزو أوسع نطاقاً وأكثر غُنماً مما كانوا قد اعتادوا عليه من قبل ، إنها فتحت أمامهم المجال لغزو البلاد المجاورة بدلا من غزو بعضهم بعضاً ، فانثالوا على تلك البلاد يغنمون منها ما لم يكن يحلمون به في غزواتهم السابقة ، وذلك بالاضافة الى ما سوف يفوزون به من غنائم كبرى في جنة الفردوس .

إن البدو بوجه عام لا يمكن أن يتركوا عادة النهب والغزو ما داموا بدواً ، انما تتحول تلك العادة عندهم من صورة الى أخرى ! .

---

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص٨١ـ٨٢ .

أثر الدعوة في العراق :

كان الامير محمد بن سعود قد توفي في عام ١٧٦٥ فخلفه على الامارة ابنه الاكبر عبدالعزيز ، وقد سار هذا على سيرة أبيه في التحالف والتعاون مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب لنشر الدعوة الجديدة بالسيف ، ونال في هذا السبيل انتصارات عديدة جعلته سيد الصحراء .

ومنذ عام ١٧٩٠ أخذ الخطر الوهابي يهدد العراق ، فقد ظهرت على الحدود من ناحية الصحراء جماعات وهابية وسمت ابلها بشارات بارزة وهي تحمل رقاعاً دينية غريبة ، وصارت تغزو مراعي الظفير والمنتفق والشامية . وكذلك أخذ الدعاة الوهابيون يتسللون الى العراق يحاولون نشر الدعوة الجديدة في أوساط العشائر والمدن ، فكانوا يرتادون مضائف الشيوخ في الفرات ليخطبوا فيها ويستغلوا العداء الموجود لدى العشائر ضد الحكومة العثمانية ووالي بغداد[1] .

وفي المدن بدأت الدعاية الوهابية تنتشر هنا وهناك فتؤثر في بعض الافراد لا سيما في رجال الدين السنيين ، وأخذ الجدل يظهر بينهم فمنهم من وجدوا في الدعوة الوهابية تنقية للاسلام من البدع المستحدثة وعودة الى سنة السلف الصالح فحبذوها ، ومنهم من وجدوا فيها انكاراً لفضل الاولياء وكراماتهم فشجبوها .

يحدثنا المؤرخ الموصلي ياسين أفندي العمري عن أحد القضاة في أيامه أنه كان مجاهراً بعقيدته « السلفية » وهو ملا محمد بن ملا أحمد الموصلي المعروف بابن الكولة ، وقد كان هذا الرجل قاضياً في ديار بكر ثم نُقل الى بغداد في عام ١٧٩٤ ، وعند مروره بالموصل في طريقه الى مقر عمله الجديد أخذ يرتاد ديوان آل الجليلي فيها وكان لا يتكتم في الانكار

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢١١ .

على الاولياء كالشيخ عبدالقادر الكيلاني والشيخ محي الدين بن عربي ، وكان يقول : إنه لو حصل بيده صندوق الشيخ عبدالقادر لأوقده بالنـــار وغلى عليه قهوة . ويعلق ياسين العمري على ذلك قائلا بأن هذا القاضـــي اذا ذهب الى بغداد فسيطرده حاميها الشيخ عبدالقادر أما اذا سار الى الروم فسوف يتلقاه الشيخ محي الدين وربما قتله أو أعاده الى فقره وضعفه . وقد وقع ما تنبأ به ياسين العمري فعلاً ، إذ لم يستقر القاضي في بغداد سوى شهرين ، ثم نفاه منها واليها سليمان باشا ، « فخرج منها خائفاً يترقب ... وتوجه الى بلاد الروم وقد وهنت دعوته وضعفت همته »[1] .

بداية العداء مع الدولة :

في عام **١٧٩٦** وردت الاخبار الى بغداد أن الامير عبدالعزيز بن سعود استولى على منطقة الاحساء التي تتاخم العراق من الناحية الجنوبية ، واحتل القطيف والعقير حتى وصل ساحل الخليج ، وأشيع عنه أنه عند احتلالـه تلك المنطقة قتل نحو مائتين من العلماء فيها[2] . ومن الجانب الآخر أخذ ابن سـعود يهـدد طريق الحج مما جعل شريف مكة يكتب الى السلطان يستغيث به ، فأرسل هذا الى والي بغداد سليمان باشا الكبير يأمره أن يسير بقواته « لتأديب العصاة » .

يبدو أن الوالي سليمان باشـا كان يومذاك قد أنهكته الشيخوخة ، ويقال انه كان قُبيل ذلك كتب الى السلطان يستعفي من الحكم لضعفه عنه فلم يقبل السلطان منه ذلـك . واضطر الوالي في عـام **١٧٩٧** أن يكلّف ثويني شيخ المنتفق ـ بعـد أن صالحـه واسترضاه ـ بالمسير الى حرب الوهابيين وأمر أن يلتحق به حملة البنادق من جند البصرة وهم «البلوج» مع خمس قطع من المدافع . وسار ثويني نحو الاحساء مع جمع من عشائر

(١) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٣٥ـ٣٦ .
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص١٢١ .

المنتفق وعقيل والظفير وبني خالد وغيرهم • ولكنه عند وصوله مع قواته الى عين الشبيك هجم عليه في خيمته عبد زنجي اسمه « طعيس » فأغمد حربته في صدره وهو يهتف « الله أكبر ! » •

لم يكد ينتشر خبر موت ثويني في جموع العشائر التي كانت معه حتى شاع فيها الذعر وتفرقت شذر مذر ، وانتهز الوهابيون الفرصة فانثالوا عليها يقتلون وينهبون فغنموا منها المدافع والقنابل كما غنموا شيئاً كثيراً من الابل والغنم والزاد والمتاع •

فوجيء الوالي سليمان باشا بفداحة هذه الضربة التي لم يكن يتوقعها ولعله كان يظن أن الحركة الوهابية أمرها هين لا يحتاج قمعها الى كبير عناء ، ثم تبين له أنها أعظم مما كان يظن •

ولم تمض على تلك الهزيمة سوى أشهر معدودة حتى أغار سعود بن عبدالعزيز على قرية « أم العباس » قرب سوق الشيوخ فقتل من سكانها عدداً كبيراً ، ثم أغار بعدئذ على العين المعروفة باسم « الابيض » قرب السماوة ، وكانت قد اجتمعت فيها عشائر عراقية كثيرة كشمر والظفير وآل بعيج والزقاريط ، فدهمهم في بيوتهم وغنم أكثر ما لديهم من إبل ومتاع ، كما قتل عدة رجال من فرسانهم كان منهم مطلق بن محمد الجرباء رئيس شمر[1] •

حملة الأحساء :

اهتم الوالي بالامر فأعد حملة كبيرة بقيادة الكهية[2] علي باشا

(١) المصدر السابق ، ج٦ ص١٢٣-١٢٦ •

(٢) الكهية لفظة مختزلة عن « الكتخداء » الفارسية وكانت في عهد المماليك تعني معاون الوالي ومنفذ أوامره وقائد قواته ، وكان هذا منصبا كبيرا في تلك الايام يلي منصب الوالي في الاهمية • وقد تأتي لفظة «الكهية» في اللهجة العراقية أحيانا بصورة « الكخية » و « الچخية » •

للزحف على الوهابيين • وقد أمضى على باشا صيف ١٧٩٨ كله في اعداد الحملة فحشد فيها خمسة آلاف انكشاري ، ومدافع كثيرة ، وقطعات من عشائر عقيل والعبيد وشمر والمنتفق وقشعم والظفير وغيرهم ، كما استأجر خمسة آلاف بندقي من النجادة ، وحين وصل الزبير سار معه الكثير من أهاليها •

إنها كانت حملة ضخمة حتى قيل إنها كانت تضم ثمانية عشر ألف فرس وعشرة آلاف بعير ، ولكن ضخامتها هذه لم تنفعها في مسير الصحراء وربما كانت وبالا عليها • وعندما وصلت الحملة الى قلعتي « الهفوف » و « المبرز » ظهر الفشل عليها ، فقد عجزت المدافع عن هدم أسوار القلعتين ، فاستعيض عنها بالمعاول من غير جدوى ، وبدأت الاباعر تهزل وينتشر فيها الموت ، وضج الجنود سأماً ، وصار الكثير منهم ينادون بضرورة العودة وعدم فائدة الاستمرار في القتال[1] •

وفي هذه الحالة الحرجة وصلت الى علي باشا رسالة من سعود يطلب فيها الصلح ننقلها فيما يلي بما هي عليه من أسلوب شبه عامي :

« من سعود العبدالعزيز الى علي ، أما بعد ما عرفنا سبب مجيئكم الى الحسا وعلى أي منوال جئتم ، أما أهل الحسا فهم أرفاض ملاعين ونحن جعلناهم مسلمين بالسيف ، وهي قريبة الآن وليس داخلة في حكم الروم وبعيدة عنكم ولم يحصل منها شيء يسوى تعبكم ، ولو أن جميع أهل الحسا وما يليها تؤدي لكم دراهماً ما تعادل مصروفاتكم التي عملتموها في هذه السفرة ، ولا يوجد بيننا وبينكم من المضاغنة قبل ذلك الا ثويني فهو كان المعتدي ولقي جزاءه ، فالآن مأمولنا المصالحة فهي خير لنا ولكم ، والصلح سيد الاحكام » •

وبعد مراسلات ومفاوضات وافق الفريقان على الصلح ، وعادت الحملة

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢١٣ •

الى بغداد في شهر تموز من عام ١٧٩٩ • ولم يبق سوى اقامة المراسيم لتصديق شروط الصلح ، فأرسل ابن سعود رجلا من عنده الى بغداد ليمثله في توقيع وثيقة الصلح • وهنا حدثت المهزلة التي ضحكت لها بغداد : فقد زُيّن السراي وزخرفت جدرانه من أجل استقبال الممثل السعودي ، ولبس الوالي وحرسه أزهى ما عندهم من ملابس رسمية مزركشة واصطف الجند استعدادا للاستقبال ، ولكنهم فوجئوا بظهور رجل بدوي ذي أسمال يمشي بخطا سريعة ، وعندما دخل هـذا الرجل لم يلتفت الى الباشوات الذين حضروا للاحتفاء به ، بل تركهم جانباً وجلس القرفصاء بين يدي الوالي ثم قدّم وريقة وسخة وأخذ يخطب بلهجته النجدية خطاباً جافاً مهيناً[١] •

عودة النزاع :

لم يدم الصلح بين الفريقين طويلا ، إذ لم يمض على توقيع وثيقة الصلح سوى مدة قصيرة حتى حدثت حادثة نسفته نسفاً ، وخلاصة الحادثة كما يرويها المؤرخ ياسين العمري هي أن قافلة من أعراب نجد جاءت الى العراق بحراسة فرسان من أتباع ابن سعود ، وقد وصلت القافلة الى بغداد فباعت ما لديها واشترت ما تحتاج اليه ثم عادت ، وعند مرور القافلة بالنجف في طريق عودتها الى ديارها شاهد الوهابيون شيخ الخزاعل وهو يقبل عتبة المرقد العلوي فهجموا عليـه وقتلوه ، واذذاك نشبت معركة داميـة بين الوهابيين والخزاعل دامت ثلاث ساعات قتل فيهـا عدد كبير من الفريقين ونهبت أباعر الوهابيين وخيلهم[٢] •

وعندما علم ابن سعود بحادثة النجف أرسل الى والي بغداد يطلب منه ديات القتلى ويهدده بنقض العهد الذي بينهما ، فأرسل الوالي اليـه عبدالعزيز بك الشسـاوي ليفاوضه في الامر ويعلمه بأن القتلى كانوا من

(١) المصدر السابق ، ص٢١٤ •
(٢) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٥٣ـ٥٤ •

الجانبين اذ قتل الوهابيون من الخزاعل مثلما قتل الخزاعل من الوهابيين ، ولكن ابن سعود ضحك عندما كلمه الشاوي بهذا الشأن وقال له : « أما كفى الوزير أننا تاركوه يحكم بغداد ؟ والله عن قريب ترى جميع غربي الفرات لنا وشرقيه له » . ويروي ابن سند أن عبدالعزيز الشاوي أثناء مكوثه بين الوهابيين من أجل المفاوضة تأثر بهم ومال الى مذهبهم[1] .

كان من نتائج فشل المفاوضة أن صار الوهابيون يظهرون هنا وهناك غرب الفرات فيقطعون الطرق ويغيرون على القرى . وفي شهر أيار من عام ١٨٠٠ نهبوا قافلة كانت قادمة من الشام ، بالقرب من بلدة عانه ، وقتلوا عددا من العانيين[2] . وفي رواية ياسين العمري أنهم أغاروا على بلدة عانه نفسها ونهبوا بعض بيوتها وقتلوا أربعين شخصا من سكانها ، ثم أغاروا بعدئذ على كبيسة ولكن عشيرة العبيد قاتلتهم فولوا الادبار[3] .

الطاعون وواقعة كربلا :

في شهر شباط من عام ١٨٠٢ بدأ ينتشر في بغداد طاعون شديد فاضطر الوالي وحاشيته الى مغادرة بغداد والذهاب الى الخالص بغية الابتعاد عن منطقة الوباء . وكان الوالي يومذاك مصاباً بداء المفاصل وقد تجاوز الثمانين من عمره ، ولم يكد يستقر به المقام في الخالص حتى وصله نبأ من شيخ المنتفق حمود الثامر يعلمه بأن جيشاً وهابياً قادماً نحو العراق يريد الانتقام لحادثة النجف .

لم يكن الوالي في وضع يؤهله لمجابهة الخطر فترك الامر للكهية علي باشا ، والظاهر أن هذا الكهية لم يكن متحمساً للامر أو راغباً فيه من

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص٧٢ .
(٢) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ـ بغداد ١٩٤٨ ـ ج١ ص ٥٠ .
(٣) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٥٧ .

أعماق قلبه ، فخرج من بغداد ولكنه توقف في موقع « الدورة » زاعماً أنه ينتظر التحاق العشائر به ، وبينما كان على وشك مواصلة السفر من هناك جاء الخبر بالكارثة الرهيبة التي أنزلها الوهابيون في كربلاء . فسار الكهية بقواته مسرعاً غير أنه وصل البلدة بعد فوات الاوان[1] .

وقد عثرنا على وصف طريف باللهجة العامية للحالة الاجتماعية التي كانت سائدة في بغداد في تلك الفترة ، وتأثير الوباء فيها ، كتبه تاجر مسيحي كان يسكن بغداد يومئذ اسمه يوسف بن ديمتري المقدسي . وفيما يلي ننقل الوصف بنصه لاهميته :

« ثم أنه في رمضان قبل توجه الكروان المذكور الموافق في شباط حصل أمراض وحميات وبائية وموت غفلة في الجانب الآخر من بغداد ما يلي الباب المسمى الشيخ معروف وباب الكاظم ، وحصل الوهم في آل بغداد لانه طاعون ، وكان يموت من الجانب المذكور كل يوم مقدار من ٢٠ الى ٢٥ الى ٣٠ منهم . كثرة وافرة طفروا الى البرية وما بقي من ذلك الجانب الا ما قل ، وكان يزيد وينقص ، وفي كل ذلك لم يصر شيء عند النصارى ولا اليهود . وفي ثالث يوم العيد في شهر ذي الحجة (١٢١٦) ظهر خبر أن حضرة واليها سليمان باشا مراده التوجه ثاني يوم ، فخافت الناس جداً ، وكان هذا الخبر مسموعاً ، والتجار المعتبرين من الاسلام خرجوا من بغداد ، بعضهم بأذن .. بعضهم بغير اذن ، الى ديرة العرب . والوزير المشار اليه نهار السبت خامس العيد خرج هو ودائرته مع الحرم والمماليك وخزينته جميعاً ، ووقع الخوف في قلوب الناس من أنواع شتى . ومن هذه الاسباب تعطلت الاسباب وحصل وقوف حال عظيم واختلال بين الرعية . والوزير بعده بعيد عن بغداد مقدار ساعتين (فقط) . وفي ١٨ ذي الحجة ورد من الوهابي عسكر جرار بكثرة وافرة الذي لم يتحقق

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص٢١٦-٢١٧ .

عددهم الى مقام الحسين الذي يبعد عن المشهد مسير يوم ... ووقت فتوح الباب دخل العسكر غفلة ... »[1] .

تفصيل الواقعة :

كانت واقعة كربلا قد حدثت في يوم ٢٢ نيسان من سنة ١٨٠٢م ، وهو يوافق يوم ١٨ ذي الحجة من سنة ١٢١٦هـ . وهذا اليوم كما هو معروف من أعياد الشيعة ويسمى « عيد الغدير » ، وقد دخل الوهابيون بلدة كربلا يومذاك على حين غرة وهم شاهرون سيوفهم يذبحون كل من يلقونهم في طريقهم ، ولم يستثنوا منهم الشيوخ والنساء والاطفال[2] .

اختلف المؤرخون في عدد القتلى في ذلك اليوم فقدره بعضهم بثمانية آلاف بينما قدره آخرون بأقل من ذلك ، وقيل ان الوهابيين قتلوا عند ضريح الحسين خمسين شخصا ، وفي الصحن خمسمائة . ونهبوا كل شيء وقع في أيديهم ـ من الدور والحوانيت والمرقد المقدس ـ وكان أهم ما غنموه هدايا الملوك من النفائس والتحف والاحجار الكريمة التي كانت مخزونة في ضريح الحسين ، وحاولوا قلع صفائح الذهب من على الجدران فلم يوفقوا .

ويذكر السائح الهندي مرزا أبو طالب خان ـ وكان قد زار كربلا بعد الواقعة ـ أن الناس كانوا يتهمون عمر أغا حاكم البلدة بأنه كان متواطئاً مع الوهابيين وقام بمكاتبتهم ولم يعمل شيئاً لحماية البلدة ، والثابت أنه هرب الى قرية قريبة من كربلا أول ما علم بالخطر فلم يدافع قط . وقد قتله سليمان باشا أخيراً . ويقول أبو طالب انه لقي بكربلا عمته المسماة « كربلاي بكم » ونسوة من حاشيتها وكان الوهابيون قد سلبوهن كل ما يملكن فأعانهن بما استطاع من المعونة . ثم ذكر أبو طالب أن الوهابيين

(١) يعقوب سركيس (المصدر السابق) ج١ ص٥٠ـ٥١ .
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢١٥ .

قتلوا خمسة آلاف انسان وجرحوا عشرة آلاف ...[1] .

الغارة على النجف :

ترك الوهابيون كربلاء وهم فرحون بنصرهم وغنائمهم ، وكانوا يقولون : « لو لم نكن على الحق لما انتصرنا »[2] . فتوجهوا بعدئذ نحو النجف بغية أن يفعلوا بها مثلما فعلوا بكربلاء ولكنهم لم يوفقوا في ذلك اذ كان أهل النجف قد استعدوا لهم ودافعوا عن بلدتهم دفاعاً مستميتاً . وقد وصف الحادثة أحد الذين شهدوها من سكان النجف فقال : « لما جاء سعود الى النجف وأحاط بها واشتغل الرمي بالرصاص من الطرفين قُتل من أهل النجف خمسة ... وكانت شدة عظيمة على أهل النجف لعلمهم بما صنع بأهالي كربلاء من القتل والنهب ، وبما فعل بمكة والمدينة ، ولذا برزت المخدرات من خدورها ومعهن العجائز يشجعن المقاتلين ويقفن على كل فرقة فرقة ويقلن : أما تستحون على نسائكم أن تُهتك وأموالكم أن تنهب وتذهب غيرتكم . واستغاثوا كلهم بأمير المؤمنين (ع) وعجوا الى الله بالبكاء والعويل ، واستجاروا بحامي الجار فأجارهم فهزم المنافقين وشتت شملهم ، وشوهدت ضرباته المعلومة »[3] .

وبعد أن انسحب الوهابيون من حول النجف أسرع النجفيون فنقلوا خزانة المرقد الثمينة الى الكاظمية مخافة أن يعود الوهابيون مرة أخرى فينهبوها كما فعلوا بخزانة الحسين في كربلاء وقد عاد الوهابيون الى النجف فعلا — ولكن بعد خمس سنوات كما سنأتي اليه في حينه — غير أنهم لم

(١) أبو طالب خان (رحلات في آسيا واوربا وأفريقيا) — لندن ١٨١٠ — نقلا عن ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢١٥ (الحاشية) .

(٢) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص٧٤ .

(٣) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) — النجف ١٩٥٨ — ج١ ص٣٢٦ .

يحظوا منها بطائل فانسحبوا عنها خائبين كما فعلوا في المرة الاولى •

أثر الواقعة في الشعر :

كان تأثير واقعة كربلاء في الشعب العراقي شديدا ـ ولا سيما في الشيعة ـ وقد ظهر أثره في الشعر واضحاً • يقول ابراهيم الوائلي : « ••• ومن الطبيعي أن تثير هذه الحادثة شعراء الشيعة على الاخص لانها استهدفت المدينة التي تضم مرقد الامام الحسين بن علي وانتهت بنهب الضريح المقدس وهدمه وقتل كثير من المجاورين له وفيهم رجال الدين والاطفال والنساء • وقد نظر الشعراء الى هذه الحادثة كأنها تجديد لمأساة الحسين يوم استشهد في كربلاء مع اخوته وأبنائه وأنصاره ، فبكوا وسخطوا وأثاروا ونقموا على الوهابيين أشد النقمة وهددوهم وناظروهم وجادلوهم ••• »[1] •

وكان من أبرز الشعراء الذين استفزتهم هذه الحادثة الحاج هاشم الكعبي والحاج محمد رضا الازري ، ويليهما الشاعر حسين بن سليمان الحكيم الحلي • وكذلك تأثر بها من الشعراء السنيين عثمان بن سند البصري فقد كان هـذا الشاعر يعتبر الوهابيين من أهل الزيغ والضلال ويدعو الى قتالهم باسم الدين لانهم في رأيه مارقون خارجون عن اجماع المسلمين وطاعة السلطان •

وهناك شاعر عراقي آخر سلك تجاه الوهابيين سلوكاً مزدوجاً هو السيد عبدالجليل الطباطبائي من أهل البصرة ، فقد كان هذا الشاعر من تجار اللؤلؤ وكثيراً ما كانت أعماله تضطره الى السفر الى الكويت والاحساء والبحرين وغيرها من المناطق التي احتلها ابن سعود • فهو ضد الوهابيين حين يكون في البصرة ، وهو معهم حين يكون في ديارهم • وعلى أي حال

(١) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسى العراقي في القرن التاسع عشر) ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص١٢٣ •

فهو كان الشاعر العراقي الوحيد الذي مدح الحركة الوهابية وعدها احياءاً للدين وتشييدا لاركانه وقمعاً للبدع ، وهو في ذلـــك لا يختلف عن أي شاعر كان يعيش مع السعوديين آنذاك • وقد وفد في عام ١٨١٠ عـــلى سعود بن عبدالعزيز فألقى بين يديه قصيدة يمدحه بها جاء فيها هـــذان البيتان :

جمعت شتات المكرمات سجية
فسدت الورى مجـــداً وفقتهم فخرا

وظاهــرت دين الله بالبيض والقنـــا
وبرهانك القرآن والســيرة الغــرا[1]

أثر الواقعة في ايران :

عندما وصل خبر واقعة كربلا الى الشاه فتح علي القاجاري تأثر غاية التأثر ، وأمر باعلان الحـداد في أرجـــاء ايران ، ولبس السواد هـــو وحاشيته ، وأقيمت المآتم في كل مكان •

وأرسل الشاه احتجاجاً شديد اللهجة الى حكومة بغداد ألقى فيـــه على عاتقها تبعة الواقعة متهما اياها بالتقصير في أمر الدفاع عن كربلا مـــع علمها بنيات الوهابيين • وأوضح الشاه بكلمات جـــازمة عزمه على تأليف جيش جرار للانتقام من الوهابيين وأنه سيهاجم بغداد في طريقه ويحتلها • وقد تسلّم الوالي سليمان الكبير هذا الانذار وهو في آخر رمق من حياته فلم يستطع الرد عليه • أما الشاه فقد فوجيء بهجوم على حدوده الشمالية من قبل روسيا فشُغل به عن الانتقام[2] •

(١) المصدر السابق ، ص ١٤١ ـ ١٤٥ •

(٢) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص ٨٢ •

فتح الحجاز :

توجه الوهابيون بعد واقعة كربلا نحو فتح الحجاز ، وفي شهر نيسان من عام ١٨٠٣ - أي بعد مرور سنة واحدة على واقعة كربلا - استطاعوا أن يفتحوا مكة ، وفي ربيع السنة التالية فتحوا المدينة فخربوا المسجد النبوي ونهبوا التحف التي فيه وهي من هدايا ملوك الهند ومصر والسلجوقيين والعثمانيين[١] ، وقيل ان سعود أرسلها الى الهند وباعها هناك[٢] .

وفي موسم الحج في عام ١٨٠٦ بدأ الوهابيون يشجبون بعض الشعائر التي يقوم بها الحجاج ويحاولون منعها باعتبارها بدعاً مخالفة للسنة . وكان الحجاج الآتون من مصر والشام يجلبون معهم محامل مقدسة ، فانبرى سعود يسأل أميري الحج المصري والشامي متحديا لهما : « ما هذه العويدات التي تأتون بها وتعظمونها ؟! » ، فلما أجاباه بأن تلك المحامل اشارة لاجتماع الناس وهي عادة قديمة قال لهما : « لا تفعلوا ذلك بعد هذا العام ، وان أتيتم بها فاني أكسرها » . وكذلك اشترط عليهما أن لا يأتيا بالطبول والزمور وغيرها من الأمور التي جرت العادة عليها .

وفي موسم الحج التالي عندما وصلت قافلة الحجاج القادمة من جهة

---

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص ٩٤ .

(٢) كان من جملة تلك التحف المنهوبة قطعة من الماس لا تقدر بثمن اسمها « الكوكب الدري » ، غير أنها اعيدت الى موضعها من المسجد من قبل ابراهيم باشا عندما جاء الى الحجاز لحرب الوهابيين وبقيت هناك حتى الحرب العالمية الاولى ثم اختفت منذ ذلك الحين ، وقد اتهم الشريف حسين القائد التركي فخري باشا بسرقتها - والله وحده الذي يعلم بما جرى لها !

الشام وتركيا الى مشارف المدينة أُمرت بأن تعود من حيث أتت ، فاحتج على ذلك أمير الحج الشامي عبدالله العظم فلم ينفع احتجاجه شيئاً ، واضطر الحجاج الذين أنهكهم السفر طيلة الأسابيع الخمسة الماضية أن يعودوا الى دمشق دون أن يروا المدينة ومكة[1] . ويُروى أن الوهابيين أحرقوا في تلك السنة المحمل المصري ، ونُودي في الناس أن لا يأتي الى الحرمين من هو حليق الذقن ، ومنذ ذلك الحين انقطع المصريون والشاميون عن الحج[2] .

النسبية الاجتماعية :

يحدثنا المؤرخ ابن بشر النجدي ـ وكان قد شهد بنفسه حالة الضنك والفقر التي كان أهل الدرعية عاصمة الوهابيين يعانونها قبل ظهور دعوتهم ثم انقلاب الحالة الى العكس من ذلك بعدئذ ـ فيقول : « لقد شاهدت ضيقهم في أول الأمر ثم الدرعية بعد ذلك في زمن سعود وما عند أهلها من الأموال الكثيرة ، وكثرة الرجال ، والاسلحة المحلاة بالذهب والفضة ، والخيل الجياد ، والنجائب العمانيات ، والملابس الفاخرة ، وغير ذلك من أسباب الثروة التامة بحيث يعجز عن عده اللسان ويكل من تفصيله البيان . ونظرت الى موسمها يوماً في الموضع المعروف بالباطن فوجدت موسم الرجال في جانب وموسم النساء في جانب آخر ، فرأيت من الذهب والفضة والأسلحة والابل والغنم والخيل والألبسة الفاخرة واللحم والحنطة وسائر المآكل ما لا يمكن وصفه ، والموسم ممتد مد البصر وكنت أسمع أصوات البائعين والمشترين ، وقولهم بعت واشتريت ، كدويّ النحل فسبحان

---

(١) عبدالله فيلبي (المصدر السابق) ص ١١٨ .

(٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة ١٩٤٦ ـ ص ٢١٧ .

من لا يزول . »[1]

يمكن القول ان هذا الرفاه الذي تمتعت به عاصـمة الوهابيين كانت قد تمتعت بمثله جميع عواصم الدول الفاتحة على توالي العصور ، انمـا يجب أن لا ننسى أنه رفاه تم على حساب الكوارث والمصـائب التي حلت بالبلاد المفتوحة . وهنا يتضح مصداق النسبية الاجتماعية بكل وضوح ، فالذين حصلوا على الرفاه لا بد أن يلهجوا بمدح الدولة التي جاءت بـه ويعتبرونها خير دولة اخرجت للناس ، بينما أهل البلاد المفتوحة ينظرون الى تلك الدولة نظرة اخرى ويعتبرونها على النقيض من ذلك ألعن دولة في الوجود . كل فريق ينظر اليها من زاويته الخاصة به ، وهذا هو ديدن البشر منذ خُلق البشر ، وفيه يكمن سرٌ مهم من أسرار التأريخ !

---

(١) ابراهيم فصيح الحيدري (عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد) ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٢٣٣ .

الفصل الثامن

المماليك بعد سليمان الكبير

درسنا في فصل سابق فترة التنازع الاولى من عهد المماليك وهي الفترة التي بدأت في عام ١٧٦٢ عقب وفاة سليمان باشا « أبو ليلة » ، واستمرت ثمانية عشر عاما ، حيث اشتد فيها التنافس على الحكم بين المماليك واشترك معهم سكان المحلات البغدادية ، وسنحاول الآن دراسة فترة التنازع الثانية وهي التي بدأت عقب وفاة سليمان باشا الكبير في عام ١٨٠٢ ٠

النزاع على الخلافة :

كان لسليمان الكبير عند وفاته ثلاثة أولاد صغار هم سعيد وصالح وصادق ، وأربعة أصهار هم علي باشا الكهية وسليم أغا وداود أغا ونصيف أغا ، وقد جمعهم قبيل موته ـ ومعهم محمد بك الشاوي الذي كان يتولى منصب « باب العرب » ـ وأوصاهم أن يولوا من بعده صهره علي باشا الكهية وأن لا يختلفوا عليه ، وحذرهم من مغبة التنازع والاختلاف فيما بينهم اذ قال باللهجة العامية حسب رواية التاجر يوسف بن ديمتري المقدسي الذي كان يسكن بغداد يومذاك : « اذا كنتم قلب واحد وبينكم محبة لا يتسلط الغريب وتحوزوا الدولة التي اقتنيتها ، والا متى تفخذتم عن بعضكم فتأتي الغرباء من الوزراء وتبدل الدولة والعائلة ٠٠٠ »[1]

---

(١) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ـ بغداد ١٩٤٨ ـ ج١ ص ٥٤ ٠

لم تنفع هذه النصيحة والتحذير شيئاً ، فسرعان ما اشتعلت بغـداد بالفتنة على أثر وفاة سليمان الكبير • يقول لونكريك : لم يـكد سليمان باشا يلفظ أنفاسه الاخيرة ، أو ربما قبل ذلك بساعة ، حتى بادر أحمـد أغا رئيس الانكشارية بجمع من استطاع جمعهم من الرعـاع والسوقة واستولى على القلعة فتحصن بها وأخذ يضرب السراي بالقنابل ، وعندمـا سمع الناس هدير القنابل أسرعوا فأغلقوا دكاكينهم ، وامتـلأت شوارع بغداد بالمسلحين من الأهالي ، وبقيت الحالة متقلقلة يوماً بعد يوم كما ظلت النتيجة معلقة[1] •

يبدو أن أحمد أغا كان متآمراً مع الصهر الثاني سليم أغا فكان يريد الولاية له بدلا من علي باشا الذي أوصى به الوالي الراحل ، بينما كـان محمد بك الشاوي من الجانب الآخر يريد الولاية لعلي باشا • والمظنون أن مشاجرة شخصية بين هذين الرجلين كانت من العوامل الفعالة في اشعال الفتنـة •

وقد وصف التاجر يوسف المقدسي بلهجته العامية تلك الفتنة وكان شاهد عيان فيها ، وفيما يلي تنقل جزءاً كبيراً من وصفه لما فيه من تصوير غير متكلف للوضع الاجتماعي الذي كان سائداً حينئذ :

« ••• وفي نهار الثاني ـ أي بعد وفاة الوالي سليمان الكبير ـ نودي بالبلد باسم علي باشا بالأمان وكل من الناس يلزم حده في صناعته ، ولكن الينكجارية في ساعة وفاته توجهوا الى القلعة وضبطوها من يد الحكم لأنها منذ حكومة المشار اليه هي في يده والينكجارية مالهم اعتبار ، وسابقاً كانت في يدهم ، فالآن وجدوا الفرصة في تسليمها وابتدأوا يوما بعد يوم يتظاهرون

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العـراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٢٢٠ـ٢٢١ •

ويكثرون • والجيل الذي لم يعرف الفترات الاولى من الجهال يـــريد الافتتان ويدوروا وهم تحت السلاح ، وابتدأ الســكر الذي في كـــافة أيام الوزير المشار اليه لم ير سكران في بغداد • ومن له عداوة أظهرها ، ولا عادوا يعتبروا الحكم ، وأحمد أغا المذكور ليلاً نهاراً دائراً في البلد ، أحياناً متنكراً ، أحياناً ظاهراً ، لتمهيد الفتنة •••

« وثاني يوم كذلك الى نهار الخميس في ١٩ جمادي الموافق ٤ أيلول ظهر أنهم لم يريدوا علي كهية المذكور لأنه ظهر منه حركات لأجل أخذ القلعة ، وليس الأمر كذلك ، ولكن في هذا اليوم قيل عن الأغا المذكور حنق على كهية باشا فطلع من عنده وهيَّج البلد كلها ، فتبعه ينسكجارية الميدان والشورجة والأسافل الذين في بغداد أرباب النهيبة المنتظرينها كل الايام الماضية ، وأما محلة الشيخ ومحلات الباب الوســطانية فلم يتبعوه ، فمضوا ألوف ألوف الى أطراف السراية وعملوا متاريس في كل الاطراف ، وابتدأ الضرب بين الفريقين من العصر الى الصباح بالتفنك والطوب مـن القلعة على السراية ، وآل السراية الكروج تضـــرب من المتاريس التي بالسراية •

« ونهار الجمعة طالعوا دلال أنه ســليم بيك قيم مقـــام وأجلسوه بالسراية ، ونادى المنادي باسمه ، وأما الأسواق أكثر أربـــاب الدكاكين نقلت أموالها الى الخانات حذراً من النهب • وفي هذه الثلاث الليالي حصل تعد من الينكجرية على النصارى واليهود بالليل في طلب دراهم ، والبعض أخذوا منهم •

« ونهار السبت صباحاً غادر الناس جميعاً الا المحلتين المذكورتين ، والأغا المذكور أشهر غضبه بأنه يريد قتل كهية بيك وقتل محمد بيك ونهب أموالهما ، فابتدأ الحرب بينهما من قبل العصر ، والطوب يشتغل من القلعة على السراية ، وادهم الظلام وهم كذلك • وأمـــا الينكجرية ومن يتبعهم

وجدوا الفرصة ، والحرب قائم في الميدان ، ابتدأت تنهب الدكاكين فلم يبقى ولا دكان من جميع أسواق المتاجر والعطاطير والبقاقيل التي لاعدد لها ، فتحوها ونهبوها حتى أقفالها •

« أما محمد بيك من الجانب ـ أي جانب الكرخ ـ أرسل أحضر كهية علي باشا الى عنده في سفينة من الشط وقال له لا تخف ، وأمر العكيل وعرب الجبور في الليل فدخلوا بالسفن وصرخوا : لعينك يا علي باشا ! وهجموا مع جملة من الكروج على المتاريس وحرقوا قطعة من السوق الموجه الى الميدان لئلا تكون فيه الكماين في الدكاكين ، وهجموا والنار مشتعلة ، فالذين قدامها في الكماين من رؤيتهم النار هربوا ، وهم وراهم وصاحوا بهم حتى تقطعت قلوبهم وهم مجردين سيوفهم الى الميدان ، فتبدّدت تلك الألوف التي لا عدد لها ، ورأسهم الأغا انهزم واختبى ، والطوب لا يزال يشتغل من القلعة لان هناك من الينكجرية جملة وافرة ورئيسهم كوسه حسين وهذا رجل من التجار غير أنه أحب التكبر •

« وبعد الظهر قامت العلماء والمفتي وأخذوا الصنجق ـ أي علم الشيخ عبدالقادر ـ معهم ومضوا على القلعه لأنه لم يرتضوا بما فعله الأغا وأحزابه وقالوا : كل من أعان الأغا على غيه فقد كفر لأن الاطاعة واجبة الى ولي الأمر • ولما أبصروهم من القلعة ، ورأوا تلك الجموع فرقتها العكيل ، فخافوا جداً • والعساكر والعكيل عسكروا أمام باب القلعة وضربوا طوب على بابها الصغير ، فتحوه ودخلوا ، والذين بها أرموا أنفسهم من الأسوار ، منهم على الشط ، منهم على الأرض ، ومنهم سلّم ، ومنهم حصل على الهزيمة •

« أما صباح هذا اليوم الأحد قبل الفجر بعد أنهم أي العرب كسروا تلك الجموع جاء منهم فرقة على محلة اليهود ونهبوا بعض البيوت من اليهود ، ووقع صيحة عظيمة موهمة جداً • وأما كهية علي باشا رجع من

ذلك الجانب وجلس في سرايته ... وحينئــذ أمر أن يمضوا وينهبوا بيته ــ أي بيت أحمد أغا ــ فحالاً في ظرف ساعة صار بيته خرابا دكداكا ، ونساؤه طلعت هزيمة ، وجواريه ضبطوها العسكر مع جملة الأموال التي طلعت في بيته . وأمر المنادي ينادي في البلد : كل من وجد الظالم المذكور وأتاني به ويخبر به له جــائزة ألف ذهب . ثم مسك أعوانه وأقربائه . وثاني يوم نهار الاثنين بينما المنادي ينادي وجدوا مملوكا له عبد أسود ، فودّوه الى السراية ، أمر بضربه فأقر أنه في بيت في عقد في محلة رأس القرية ، فجاؤوا أخرجوه من بيت واحد كان أتباعه سالفاً . فليعتبر كل ظالم ! لان رؤيته في أخذه بها كفاية لاعتبار كل ظالم ، لأنه حملوه كأنه حمل بجملة من العسكر والعكيل حافي الأرجل مكشوف الرأس بهيئــة الموت ، وأمامه ووراءه خلق لا تعداد لهم ، ولما وصلوا به الى السراية أمام علي باشا المذكور قام وضربه بيده بالغدارة ضربتان ، وأمــر بتقطيعه ، فسحبوه من السراية الى وسط الميدان . وكل يضربه ضربة ، بالسيوف والخناجر ، وحصلت نهايته نهاية تعيسة ، وأمر بالتفتيش على موجوداته . فهذا نهاية من لا يحفظ وداً ![1]... »

الجانب الطائفي :

ان هذا الوصف الذي نقلناه عن التاجر يوسف يدل على أن النزاع كان في أول أمره بين المماليك والانكشارية ــ أو بين الكروج والينكجرية على حد تعبيره ــ ثم انضم اليه أخيرا أهل المحلات البغدادية . والملاحظ أن التاجر يوسف أهمل في معرض وصفه للنزاع ذكر جانب مهم منه هو الجانب الطائفي ، مع العلم أن بعض المؤرخين لا سـيما ياسين العمري

(١) يعقوب سركيس (المصدر السابق) ج١ ص ٥٤ــ٥٨ . (كل عبارة بين شرطتين هي من المؤلف ويقصد بها التوضيح) .

أشاروا الى هذا الجانب اشارات واضحة ، حيث ذكروا أن الشيعة من سكان بغداد وقفوا الى جانب أحمد أغا رئيس الانكشارية بينما وقف أهل السنة الى جانب علي باشا الكهية . والى القاريء نص ما قاله ياسين العمري في كتابه « غرائب الأثر » حول تلك الحادثة :

« ... ونهض في بغداد الأمير محمد بك الشاوي وجمع الناس من أهل السنة وحملوا سنجق الامام الاعظم وسنجق الشيخ عبدالقادر الكيلاني وهجموا على القلعة وملكوها وهرب الينكجرية ومن تابعهم من الرافضة ، ونهبت بيوت اليهود وبعض بيوت المسلمين الروافض ونهبت الاسواق ، وعبر دجلة علي باشا ودخل السراي ... » . ثم قال بعد ذكر انتهاء الحادثة : « وشرع علي باشا يقتل الرافضة ويصادر أغنياءهم ... »[1]

يرجح في ظني أن هذه كانت الحادثة الوحيدة التي وقع فيها نزاع طائفي في بغداد طيلة عهد المماليك ، فالمعروف عن جميع معارك المحلات التي حدثت في ذلك العهد أنها كانت خالية من أي طابع طائفي وذلك لتجنب الشيعة عن التدخل في أي أمر له مساس بالسياسة ، فكانت المعارك تجري بين السنيين فقط من أهل بغداد باعتبار أنهم وحدهم الذين لهم الحق في مناقشة شؤون الحكم أو التدخل فيها .

والسؤال الذي يواجهنا هنا : ما هو السبب الذي أدى الى ظهور الطابع الطائفي في هذه الحادثة وحدها دون غيرها من حوادث عهد المماليك ؟

يبدو لي أن هناك عوامل متنوعة وراء ذلك أهمها اثنان ، أولهما أن أحمد أغا رئيس الانكشارية كان نفسه شيعيا وقد وصفه مؤلف « أعيان

---

(١) ياسين العمري (غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر) ـ الموصل ١٩٤٠ ـ ص ٦٢ـ٦٣ .

الشيعة » بقوله : « سيد شريف جليل القدر من السلالة الطاهرة النبوية العلوية الفاطمية[1] » . والظاهر أن أحمد أغا كان على صلة وثيقة مع شيعة بغداد يحبهم ويحبونه ، فلما حدثت الحادثة استنجد بهم على خصمه علي باشا الكهية فهبوا لنصرته .

أما العامل الثاني فهو أن علي باشا الكهية لم يكن محبوباً في أوساط الشيعة من جراء تقاعسه عن حماية كربلا أثناء الغزو الوهابي ، ويجب أن لا ننسى هنا أن حادثة بغداد حدثت بعد أربعة أشهر من واقعة كربلا ، ومعنى هذا أن القلوب كانت لا تزال متأثرة بالواقعة على أي حال .

يقول ياسين العمري ان محي الدين بن عربي كان قد تنبأ بالحادثة اذ قال في « الشجرة النعمانية » : « ... نبأ قد ظهر ، طبق ما في الخبر ، خدمته الجيوش ، وجيشه الوحوش ، بقصد أقوام من أرباب الكلام ... الحامل للسداد ، يُقتل في بيت المهيب ... » ، فعدد « نبأ » في حساب الحروف يساوي عدد « أحمد » ، وعدد « الحامل » يساوي عدد « علي » أما « بيت المهيب » فالمقصود به المسجد لان علي باشا قُتل فيه أخيرا[2] .

عودة الوهابيين :

كان يقيم في بغداد شخص أفغاني الاصل اسمه « ملا عثمان » قيل انه نذر نفسه للدفاع عن الاسلام وعزم أن يقتل رئيس الوهابيين[3] ، وقيل في رواية اخرى انه من أهل كربلا وأنه كان فيها أثناء غزو الوهابيين لها

---

(١) محسن الامين (أعيان الشيعة) ـ دمشق ١٩٣٨ ـ ج٧ ص ٣٤٧ .

(٢) ياسين العمري (المصدر السابق) ص ٦٣ .

(٣) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ٢٢٧ .

وشهد بأم عينيه كيف ذبحوا زوجته وأطفاله فأقسم على الانتقام[1] . ومهما يكن الحال فقد ذهب ملا عثمان الى الدرعية عاصمة الوهابيين وهو بزي درويش فاختلط بهم حتى اطمأنوا اليه ووثقوا به ، فكان يصلي في الصف الثالث في صلاة الجماعة وراء الأمير عبدالعزيز بن سعود مباشرة . وفي يوم جمعة ــ في أواخر عام ١٨٠٣ ــ انتهز الفرصة أثناء الركوع فألقي بنفسه على الأمير وطعنه بمدية اخترقت بطنه من الخلف ، ولم يكتف بذلك بل طعن عبدالله شقيق الأمير وكان يصلي بجانب شقيقه فجرحه جرحاً بليغاً ولكن هذا أسرع بالرغم من اصابته فأهوى على القاتل بسيفه فقتله[2] .

تولى امارة الوهابيين بعد عبدالعزيز ابنه سعود ، وقد ظن هذا أن القتل جرى بتحريض من والي بغداد فعزم على الانتقام منه . ففي موسم الربيع من السنة التالية حين كانت عشيرة الظفير منتشرة في البادية وراء المراعي أغار عليها ابن سعود فنهبها نهباً ، ثم توجه نحو البصرة فدهم الجانب الجنوبي منها وقتل فيه الكثيرين ، وأغار على جماعة من المنتفق كانوا قرب البصرة برئاسة منصور بن ثامر السعدون فقتل بعضهم وأسر رئيسهم . وذهب الى قصر الدريهمية ــ وهو مشرب أهل الزبير ــ فهدمه وقتل من كان فيه . ثم توجه نحو بلدة الزبير فشرع بحصارها ، وأراد بث الرعب في سكان البلدة فأمر أتباعه عند غياب الشمس بأن يطلقوا رصاص بنادقهم كلها دفعة واحدة ، ولما سمع أهل الزبير ذلك ارتعبوا وصعدت النساء الى السطوح ووقع فيهم الضجيج مما أدى الى اجهاض بعض الحوامل ، ولكنهم صمدوا ولم يتخاذلوا . واستمر الحصار اثني عشر يوما حصد فيها الوهابيون المحاصيل الزراعية التي كانت ناضجة آنذاك ، وهدموا جميع

---

(١) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد) ــ ترجمة عمر الديراوي ــ بيروت بدون تاريخ ــ ص ١٠٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

القبور والمشاهد الموجودة خارج السور كمشهد طلحة والحسن البصري[1] ، ثم عادوا من حيث أتوا •

أرسل السلطان الى علي باشا في بغداد يأمره بالحاح أن يسير لحرب الوهابيين ، والظاهر أن علي باشا لم يكن يرغب في ذلك أو يشعر بالقدرة عليه ، فأخذ يقوم بحركات مظهرية ضد الوهابيين لا جدوى فيها •

وكان قد أشيع اذذاك أن محمد بك الشاوي وأخاه عبدالعزيز يميلان الى العقيدة الوهابية ولهما مراسلات مع سعود ، فأمر علي باشا بقتلهما مما أحنق عشيرتهما العبيد فقاموا بثورة شعواء ، وقد استفحل أمر الثورة على اثر تحالف عشيرة العبيد مع عبدالرحمن بابان الذي كان من جانبه متحالفا مع ايران ، فأدى ذلك الى توتر العلاقات بين العراق وايران ، ثم الى اعلان الحرب بينهما ، وكانت النتيجة أن هُزم جيش علي باشا تجاه الجيش الايراني هزيمة منكرة[2] •

الغارة على النجف :

وفي أواخر نيسان من عام ١٨٠٦ جاءت الأنباء الى أهل النجف بأن الوهابيين قادمون لغزوها ، فأخذ الكثيرون منهم يهربون من البلدة مخافة أن يفعل الوهابيون بها مثلما فعلوا بكربلا قبل أربعة أعوام • ولم يبق في النجف من حملة السلاح القادرين على الدفاع عنها سوى مائتين •

انبرى للدفاع عن النجف الشيخ جعفر الجناجي الذي كان يتولى الزعامة الدينية فيها ــ وهو صاحب كتاب « كشف الغطاء » ــ

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٤ ــ ج٦ ص ١٦١ •

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (داود باشا والي بغداد) ــ القاهرة ١٩٦٨ ــ ص ٤٥ •

وساعده بعض زملائه من رجال الدين فصار يجمع السلاح ويهيىء وسائل الدفاع • وفي الليلة التي أحاط الوهابيون بالبلدة كان الشيخ جعفر يشرف بنفسه على شؤون الدفاع ، فأمر بغلق أبواب السور وجعل خلفها الصخور والاحجار ، وعيَّن لكل باب عددا من المقاتلين ، ولم يكتف بالمقاتلين من الاهالي بل جنّد معهم طلبة العلم •

وقد سجل أحد المجتهدين الذين شهدوا الواقعة ذكرياته عنها ــ وهو السيد جواد العاملي صاحب كتاب « مفتاح الكرامة » ــ فكتب في آخر الجزء الخامس من كتابه يقول : « تم هذا المجلد في أول شهر ربيع الاول سنة ١٢٢١ مع تشتت الأحوال واشتغال البال بما نابنا من الخارجي الملعون في أرض نجد فانه اخترع ما اخترع من الدين وأباح دماء المسلمين وتخريب قبور الائمة المعصومين ••• وفي سنة ١٢٢١ في الليلة التاسعة من شهر صفر قبل الصبح بساعة هجم علينا في النجف الأشرف ونحن في غفلة حتى أن بعض أصحابه صعدوا السور وكادوا يأخذون البلد فظهرت لأمير المؤمنين (ع) المعجزات الظاهرة والكرامات الباهرة فقُتل من جيشه كثيرا ورجع خائبا وله الحمد على كل حال[1] • »

مقتل علي باشا :

دام حكم علي باشا نحو خمس سنوات كانت مليئة بالقلاقل والمخاوف، وقد قتل أخيرا غيلة ، وكان قاتلوه جماعة من الكرج يرأسهم رجل اسمه مدد بك ، وكان هذا الرجل من المقربين الى علي باشا غير أنه كان يضمر له الشر ويحقد عليه • وفي فجر ذات يوم من عام ١٨٠٧ بينما كان علي باشا يصلي صلاة الصبح في المسجد هجم عليه مدد بك ــ اذ كان يصلي

(١) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) ــ النجف ١٩٥٨ ــ ج١ ص ٣٢٧ •

بجانبه ــ فأغمد خنجره في خاصرته ، فسقط الوالي مضرجا بدمائه ، وأسرع القاتل مع أعوانه الى الخروج من المسجد هاربين »

التجأ القتلة الى دار سعيد بك بن سليمان الكبير فطردهم هذا وأغلق الباب في وجوههم ، واذذاك اتجهوا الى دار نصيف أغا فاستقبلهم هــذا وآواهم والظاهر أنه أراد أن يغتنم الفرصة للدعوة لنفسه ، فأرسلهم الى دار النقيب السيد رمضان متولي أوقاف الشيخ عبدالقادر وكان النقيب غائباً في بعض القرى فدخل القتلة داره وعزموا على الاحتماء بها والصمود فيهــا •

تولى الأمر في تلك الساعة سليمان باشا الكهية ــ وهو ابن اخت الوالي القتيل ــ فأمر بقصف دار النقيب بالمدافع الصغار ما اضطر القتلة المحتمين بها الى الخروج منها[1] • يقول رسول الكركوكلي : ان القتلة نظموا مع نصيف أغا مظاهرة وتقدموا بها نحو السراي وكان الغرض منها تنصيب نصيف أغا وكيلا للوالي غير أن الاعيان والعلماء أسرعوا وبايعوا الكهية سليمان باشا وأجلسوه مكان الوالي الراحل ، ونظرا لما يتمتع به الكهية من سمعة طيبة بين الناس فقد مالوا اليه على اختلاف طبقاتهم ، ولمــا اقتربت مظاهرة نصيف أغا من السراي خرج عليها الجند والأهلون ففرقوها وظلوا يطاردون أفرادها ، فهرب بعضهم الى جهة النهر حيث عبروا الى جانب الكرخ بواسطة القفف[2] •

وذكر ياسين العمري أن نصيف أغا ذهب الى جانب الكرخ يحرض الناس على مساعدة القتلة فلم يتابعه الناس وحملوا عليه وقتلوه ثم شدوا في رجله حبلاً و «سحلوه» في الازقة وعبروا به الى جانب الرصافة والناس

---

(١) ياسين العمري (المصدر السابق) ص ٧٥ •

(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص٢٤٠ •

يتفرجون عليه[1]...

أرجح الظن أن الاجراء السريع الذي قام به الكهية سليمان في مطاردة القتلة فورا هو الذي أنقذ بغداد من الانقسام والفوضى ، ولولا ذلك لربما وقعت في بغداد فتنة دامية ينقسم من جرائها سكان المحلات الى فريقين متطاحنين ـ هذا يؤيد سليمان باشا وذاك يؤيد نصيف أغا ـ على منوال ما يحدث عادة حين ينشب نزاع بين ولاة الامر في عهد المماليك .

الوالي الجديد :

عندما هدأت الحالة في بغداد اجتمع الأعيان والعلماء وزعماء المماليك فنصبوا سليمان باشا قائمقاما ـ أي والياً بالوكالة ـ حسب الاصول المتبعة في مثل هذه الاحوال ، وأرسلوا عريضة الى السلطان يذكرون فيها ما حدث ويسترحمون اصدار فرمان بتوجيه الولاية أصالة الى سليمان باشا . وحين وصلت العريضة الى اسطنبول اجتمع رجال الدولة وقرروا اغتنام الفرصة لتخليص ولاية بغداد من حكم المماليك ، ولكنهم سرعان ما غيروا رأيهم للاسباب التالية :

أولا : ان سفير فرنسا في اسطنبول تقدم بمذكرة الى الباب العالي قال فيها : « ان أحوال بغداد في حالة الاختلال وقوة سليمان باشا في غاية الكمال ، فيكون من مصلحة الدولة توجيه الولاية اليه . وانه يرى من واجبه أن يبلغ رأيه هذا الى الباب العالي بصورة ودية . . »

ثانيا : ان رجال الدولة في اسطنبول كانوا يخشون أن يعينوا واليا من غير المماليك فيعلن المماليك العصيان على الدولة .

---

(١) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٧٥ .

ثالثا : وردت الى اسطنبول عريضة ثانية من بغداد تكرر استرحام العلماء والاعيان في توجيه الولاية الى سليمان باشا ، ويُروى أن المبالغ التي أرسلها سليمان باشا مع العريضة لعبت دوراً حاسماً في هذا الامر[١] •

تم أخيرا لسليمان باشا الحصول على الفرمان بولاية بغداد ، وقد اشتهر هذا الوالي باسم « سليمان الصغير » تمييزا له عن سلفه سليمان الكبير ، ثم لقّب فيما بعد بـ « القتيل » لانه قُتل بدوره ولكن مقتله كان أفظع من مقتل خاله علي باشا وأكثر غرابة •

كان سليمان باشا عند توليه الحكم في الثانية والعشرين من عمره ، ويكاد المؤرخون يجمعون على مدح سيرته اذ كان حسبما ذكروا عنه محبا للعدل رؤوفا بالرعية وقام بأعمال اصلاحية غير قليلة في بعض أجهزة القضاء والجباية ، غير انه كان من الجهة الاخرى مغرورا لا يبالي ــ حين يندفع في شيء ــ أن يثير عداء الناس • ويخيل لي أنه كان من طراز اولئك الشبان الذين لم يجربوا الحياة ويتصورون أن الدنيا لا بد أن تسير طبقا لما يفكرون به أو يشتهون بغض النظر عن طبيعة الاشياء •

قال عنه سليمان فائق : انه كان « على جانب كبير من دماثة الخلق وقد سار في حكمه سيرة حسنة وتمسك بأهداب العدل والحلم والكرم ، ولكنه كان غراً عاش في أكناف خاله علي باشا ولا يعرف شيئاً من تصاريف الزمان وانقلاباته ودورانه ، وعلى الرغم من تعيينه لاول مرة بمنصب الكهية لعلي باشا فقد انتفخ غروراً بعد تسنّمه كرسي الوزارة وشمخ بأنفه وتملكه الزهو والكبر والاعجاب بنفسه كأنما هو فاتح بغداد ، وسرعان ما اتهمه الناس بالاعوجاج والانحراف ، وبميله الى المذهب الوهابي مع أنه

---

(١) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) ــ بيروت ١٩٦٠ ــ ص ٥٨ــ٥٩ •

كان سلفي الاعتقاد . »[1]

يبدو أن خصومه الذين تضرروا من اصلاحاته في بغداد صاروا يشوهون سمعته ويلصقون به تهمة « الوهابية » ، وكانت تلك تهمة بغيضة جدا في نظر الدولة يومذاك[2] ، فأخذت علاقته باسطنبول تسوء يوما بعد يوم .

يذكر ساطع الحصري بعض التهم التي وجهها رجال الدولة في اسطنبول على سليمان الصغير ويعتبرها نموذجاً لما كانت عليه الدولة العثمانية يومذاك من انحطاط . فقد اتهموه أنه ألغى « اصول مصادرة الأموال » ، وأبطل الرسوم التي كان يجبيها القضاة من أصحاب الدعاوى اذ خصص لهم رواتب مقننة ، وحصر الاعدام داخل حدود القصاص الشرعي ، وقالوا انه خالف بهذه الاعمال النظم الاساسية المقررة في الدولة وانه فعل كل ذلك بتسويلات من علماء بغداد الذين كانوا يميلون الى المذهب الوهابي . ويقول المؤرخ التركي أحمد جودت باشا في التعليق على أعمال سليمان الصغير : لا شك في أن هذه الاعمال تدل على حسن النية غير أنه لم يكن من الجائز للوالي أن يقدم عليها من تلقاء نفسه ، ولا سيما ان ابطال تلك الامور في الوقت الذي كانت فيه جارية ومعمولا بها في سائر الولايات العثمانية هو بمثابة اعلان عن « ظلم دولته المتبوعة » من طريق التلميح الضمني ، فضلا عن ان اقدامه على ذلك يُعد تقليدا للوهابيين الذين كان الواجب عليه محاربتهم والتنكيل بهم[3] ...

---

(١) سليمان فائق (تاريخ بغداد) ــ ترجمة موسى كاظم نورس ــ بغداد ١٩٦٢ ــ ص ٣٧ .

(٢) انها تشبه تهمة « النازية » في العراق خلال الحرب العالمية الثانية وتهمة « الشيوعية » بعدها .

(٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٦٤ .

حملة حالت أفندي :

فرغ صبر رجال الدولة في اسطنبول ازاء سليمان باشا وصاروا يتحينون الفرص لعزله من ولاية بغداد ، وقد اتيحت لهم الفرصة عندما جهز سليمان باشا حملة ضخمة وسار بها نحو اورفة وماردين في الشمال بغية تأديب القبائل العاصية هناك ، فقد وصلت الى اسطنبول عرائض من سكان المناطق التي مرت بها الحملة يشكون فيها من أعمال القتل والنهب التي عانوها على أيدي الجنود[1] ، والواقع ان هذه الشكاوي لم يكن من شأنها أن تنال الاهتمام من رجال الدولة لو كان سليمان باشا مرضيا عنه ، فطالما وصلت اليهم مثل هذه الشكاوى من مختلف الولايات ـ على توالي الايام ـ فلم يكن مصيرها سوى سلة المهملات •

واكتشف رجال الدولة في سليمان باشا سيئة أخرى هو أنه لم يرسل الى اسطنبول شيئاً من الاموال المطلوبة منه ، فاتخذوا ذلك حجة بأيديهم للعمل على اسقاطه • أرسلوا اليه رجلاً عُرف بسعة الحيلة واتقان الدسائس والمؤامرات هو حالت أفندي آل رئيس الكتاب ، وحين وصل هذا الرجل الى بغداد خيّر سليمان باشا بين أمرين : إما دفع المبالغ المطلوبة منه بصورة منتظمة أو التخلي عن ولاية بغداد •

يبدو أن سليمان باشا لم يعر اهتماماً كافياً لما قاله حالت أفندي ، وكأنه كان معتمداً على قوته في بغداد حيث كان قد أنشأ له فيها جيشاً منظماً كما استطاع أن يكتسب محبة الاهالي بعدله وأعماله الاصلاحية • وقد أدرك حالت أفندي مصدر قوته فآثر أن يعود الى الموصل لكي يعمل من هناك على اسقاطه •

---

(١) أحمد علي الصوفي (المماليك في العراق) ـ الموصل ١٩٥٢ ـ ص ١٢٣ـ١٢٤ •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن سليمان باشا كان عند مروره بالموصل أثناء حملته الشمالية قد أساء الى أهل الموصل وأغضب أمراءها الجليليين ، وأرسل الى جميع العشائر يأمرهم بقتال أهل الموصل ونهب قراهم وأباح لهم دماءهم[1] ، ولذا كان أهل الموصل من أشد الناس عداوة لسليمان باشا فسعوا لتوسيع النفرة بينه وبين حالت أفندي وشجعوا على قتاله .

أعد حالت أفندي حملة كبيرة للزحف على بغداد ، وانضم اليها أهل الموصل كما انضمت عشائر كثيرة كطي وشمامك والعبيد والعزة والبيات ، وكذلك انضم اليها عبدالرحمن باشا بابان مع جماعته من الاكراد . وسار هذا الجيش المختلط حتى وصل الى قرية « خرما آباد » ـ أي خرنابات ـ بالقرب من بعقوبة ، وكان سليمان باشا قد أعد جيشاً هناك ، فوقف الجيشان أحدهما تجاه الآخر استعداداً للقتال .

معارك بغداد :

في الوقت الذي كان فيه سليمان باشا على رأس جيشه قرب خرنابات نشبت في بغداد معارك محلية من النوع المعهود ، وكان المخرض عليها رجل من أغوات الانكشارية اسمه عبدالرحمن أغا الموصلي ـ وهو جد الأسرة الأورفلية المعروفة الآن في بغداد ـ فقد كان هذا الرجل على اتصال بالجيش السلطاني وبرئيسه حالت أفندي ، فأخذ يجمع حوله الموصليين الساكنين في بغداد ويثير عصبيتهم على سليمان باشا ، واستطاع أخيراً أن يهاجم القلعة بمن معه من الانكشاريين والاهالي فاحتلها وقتل رئيس الانكشارية الذي كان فيها .

وحين سمع سليمان باشا بما جرى في بغداد أسرع ببعض قواته اليها ،

(١) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٩٣ .

وتمكن من استعادة القلعة ، فتمت له السيطرة على المدينة ، وعند هـذا أخذ يتعقب الموصليين وينتقم منهم ، فأمر أن لا يقيم ببغداد أحد من أهل الموصل ولو كان ساكناً فيها منذ أربعين سنة ، ثم قبض على نحو عشرين رجلاً منهم وأمر بضربهم بالسياط وسجنهم ، فاختفى من بغداد كل الموصليين ، وقد تمكن الكثير منهم أن يفروا من المدينة[1] .

مقتل سليمان باشا :

كان حالت أفندي قد انتهز فرصة انشغال سليمان باشا بأهل بغداد فتقدم بقواته نحو بغداد وعسكر على بُعد ساعة من الاعظمية . والغريب أن سليمان باشا كان يظن أن الحملة الموجهة عليه قد جرت بغير علم السلطان وأنها من تدبير آل الجليلي وأهل الموصل ، ولهذا أرسل قاضي بغداد ومعه رجل من وجهاء الموصليين الساكنين في بغداد اسمه « الحاج صالح أغا » بغية المفاوضة مع حالت أفندي فلم ينفعه ذلك شيئاً .

وفي عصر اليوم الخامس من تشرين الاول عام ١٨١٠ وقعت المعركة الفاصلة بين الجيشين على مقربة من الاعظمية ، ويقال إن المعركة انتهت عند المساء بنصر واضح لسليمان باشا ، وبات هذا ليلته وهو واثق أن النصر النهائي سيكون له ، ولكنه لم يكد يستيقظ في فجر اليوم التالي حتى وجد معظم جنوده قد تخلوا عنه ورجعوا الى بغداد تحت جنح الظلام بحجة أنهم سمعوا بورود الفرمان وأنهم لا يريدون أن يعصوا أمر خليفة المسلمين .

لم يبق مع سليمان باشا سوى ثلاثين رجلاً ، فاتجه بهم نحو الجنوب وعبر ديالى ، وهناك قُتل غيلة على يد بعض الأعراب من عشيرة الدفافعة من شمر طوقة ، وجاء القتلة برأسه الى حالت أفندي فأمر هـذا بسلخ

(١) المصدر السابق ، ص١١١

الرأس وبارساله الى اسطنبول عن طريق الموصل . ولما مر الرأس بالموصل فرح الناس به شماتة ، فكان يوم مرور الرأس بالموصل يوماً مشهوداً[1] .

فتنة لاحقة :

عندما دخل حالت أفندي الى بغداد منتصراً كان يحمل معه فرماناً من السلطان خاليا من الاسم ، وكان مخوّلاً أن يمـلأه بالاسم الذى يريده ، وقد وقع اختياره أخيراً على رجل قدير من المماليك هو عبدالله أغا الملقب بـ « التوتونجي » .

لم يمض على ذلك سوى شهر واحد حتى نشبت في بغداد فتنة جديدة ، وكان محركها عبدالرحمن أغا الذي كان محرك الفتنة السابقة كما أسلفنا . فقد كان هذا الرجل معتزاً بما فعل ضد الوالي السابق ويريد أن يكون له رأي في تعيين الوالي الجديد ، وهو في الواقع لم يكن راضياً عن عبدالله التوتونجي ويود أن ينصب مكانه سعيد بك الابن الاكبر لسليمان الكبير والذي كان يومذاك قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره .

اتصل عبدالرحمن أغا بالرجال الذين يعتمد عليهم تمهيداً للثورة ، ثم أعلن الثورة بمن كان معه من الانكشارية ، والتحق به المسلحون من الاهالي ، وتوجهوا نحو القلعة بغية احتلالها . وعند هذا انتشر الرعب في بغداد ، ونقل أصحاب الدكاكين بضائعهم الى بيوتهم مخافة أن تنهب ، واستنجد الوالي الجديد بعشيرتي الجبور والعقيل من سكان الكرخ ، فعبر اليه منهم نحو مائة مسلح ، واحتدمت المعركة خمس ساعات انهزم في آخرها أصحاب عبدالرحمن أغا فدخلوا بيوتهم وأغلقوا عليهم الابواب . أما عبدالرحمن أغا فقد التجأ الى « الباليوز » ـ أي القنصل البريطاني ـ فلم يتمكن هذا من حمايته مما اضطر الأغا الى الفرار من بغداد .

---

(١) المصدر السابق ، ص١١٧

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن المؤرخ الموصلي ياسين أفندي العمري حين ينتهي من ذكر هذه الوقائع لا ينسى أن يأتي ـ كعادته في كل مرة ـ بقول للشيخ محي الدين بن عربي ويعده نبوءة صادقة بما جرى ، فهو يروي عن كتاب « الشجرة النعمانية » قوله : « ... محو قد قرب ، لمن يضطرب ، فتنة تقوم وقتال يدوم ، تطفأ عن قريب ، من رأي مصيب ». فهذه العبارات تشير في نظر العمري الى مقتل سليمان باشا ، وولاية عبدالله باشا ، وغير ذلك من الأحداث التي جرت ، طبقاً لما يدل عليه حساب الحروف[1] . وليت لدينا الآن رجلاً كالعمري لكي يفسر لنا تنبؤات ابن عربي عن أحداث هذا الزمان :

غارات الوهابيين :

بينما كانت بغداد مشغولة بأحداثها الدامية على نحو ما ذكرناه آنفاً ، كان الفرات الاوسط مهدداً بخطر الغزو الوهابي حتى كان الرعاة هناك لا يستطيعون الخروج الى البادية لخوفهم على أغنامهم من الوهابيين[2] .

وقد سجل السيد جواد العاملي ذكرياته عن تلك الايام في آخر المجلد السابع من كتابه « منهاج الكرامة » حيث قال ما نصه : « وقد أحاطت الاعراب من عنيزة ـ القائلين بمقالة الوهابي الخارجي ـ بالنجف الاشرف ومشهد الحسين (ع) وقد قطعوا الطريق ونهبوا زوار الحسين(ع) بعد منصرفهم من زيارة نصف شعبان وقتلوا منهم جمعاً غفيراً ، وأكثر القتلى من العجم ، وربما قيل إنهم مائة وخمسون وقيل أقل ... وبقى جملة من زوار العرب في الحلة ما قدروا أن يأتوا الى النجف الاشرف . فبعضهم

---

(١) المصدر السابق ، ص١٢١

(٢) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ج١ ص ١٣٢ـ١٣٣ .

صام في الحلة وبعضهم مشى الى الحسكة • ونحن الآن كأنّا في حصار ، والاعراب الى الآن ما انصرفوا ، وهم من الكوفة الى مشهد الحسين (ع) بفرسخين أو أكثر على ما قيل • والخزاعل متخاذلون مختلفون ، كما أن آل بعيج وآل جشعم يتقاتلون ، كما أن والي بغداد جاءه وال آخر وأنه معزول وهما يتقاتلان • وقد عمت علينا أخبارهما لانقطاع الطرق • وبذلك طمعت عنيزة في الاقامة في هذه الاطراف ولا قوة الا بالله »[١] •

مقتل التوتونجي :

لم يدم حكم عبدالله باشا التوتونجي في بغداد غير سنتين ونصف السنة تقريباً ، وقد قضى تلك المدة القصيرة وهو في خوف دائم من سعيد بك وحزبه إذ كان الكثير من المماليك يميلون الى سعيد بك ويعطفون عليه وفاءاً لذكرى أبيه سليمان الكبير •

وفي أواخر عام ١٨١٢ هرب سعيد بك من بغداد وذهب الى سوق الشيوخ لاجئاً عند شيخ المنتفق حمود الثامر ، فأرسل الوالي عبدالله باشا الى الشيخ حمود يطلب منه تسليم سعيد بك فكان جواب الشيخ « أن الموت دون تسليم جاري »[٢] ، فلم يجد عبدالله باشا مناصاً من أن يجهز حملة كبيرة ويسير بها نحو سوق الشيوخ •

كان عدد المقاتلين العشائريين الذين أعدهم شيخ المنتفق لمساعدة سعيد بك يبلغ العشرين ألفا ، وحين وصل جيش الوالي الى مقربة من سوق الشيوخ نشبت معركة عنيفة بين الفريقين ، وقد استطاع الوالي بما كان لديه من مدافع أن يوقع الهزيمة بالعشائر فتشتت شملهم ولم يصمد مع

---

(١) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ج١ ص ٣٢٧ـ٣٢٨ •

(٢) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود) ـ اختصار أمين الحلواني ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ص١١٦ •

سعيد بك في ساحة المعركة سوى ثلاثين فارساً .

لم يبق على الوالي الا أن يكر كرته الاخيرة ليظفر بعدوه وينال النصر الحاسم عليه ، وهنا حدث له حادث يشبه ما حدث لسلفه سليمان الصغير فقد انقلب معظم قواد جيشه عليه فجأة وانحازوا الى جانب سعيد بك وكانت حجتهم في ذلك أنهم تذكروا نعمة أبيه سليمان الكبير عليهم وأنهم يريدون الوفاء له بالانتصار لابنه[1] . وكذلك انهزم آل قشعم الذين كانوا قد جاؤوا مع الوالي وقاتلوا الى جانبه[2] . ولم يبق مع الوالي غير مائتين من أتباعه المخلصين .

وانثالت العشائر على معسكر الوالي فنهبته نهباً ذريعاً ، ووقع الوالي أسيراً مع كهيته طاهر أغا فجيء بهما مقيدين الى سوق الشيوخ ، فقُتلا هناك ورُمي برأسيهما تحت أقدام سعيد بك[3] .

سعيد باشا :

عندما سمع قاضي بغداد بما جرى في المنتفق وبمقتل الوالي ، أسرع فأعلن الباشوية لسعيد وكتب الى اسطنبول لتصادق على ذلك بحسب العادة . وفي ١٦ أيار عام ١٨١٣ دخل سعيد « باشا » بغداد وبصحبته شيخ المنتفق حمود الثامر[4] . فاستقبله أهل بغداد استقبالا حافلاً . ثم عُقد في السراي اجتماع حضره القاضي والمفتي والقواد والاعيان وقرروا إسناد الولاية اليه وكالة الى حين وصول الفرمان السلطاني اليه[5] . وفي أواخر حزيران وصل الفرمان اليه بولاية بغداد مع الانعام عليه برتبة الوزارة حسب الاصول .

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص٢٥٩ .
(٢) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص١١٧ .
(٣) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص١٤١ .
(٤) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٣٣ .
(٥) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص١٤٢ .

كان سعيد باشا عند توليه الحكم يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، ولم يكن قبل ذلك قد مارس الحكم ، بل كان مترفاً من طراز أبناء الدلال الذين لا يعرفون من دنياهم سوى الانغماس في الملذات والفخار المزيف .

يقول ابن سند البصري : إن أمر سعيد باشا صار بيد حمود شيخ المنتفق كالطفل في يد وصيه ، وقد أعطاه سعيد باشا ما في جنوب البصرة من القرى جميعها وهو يقارب ثلث ايراد العراق ، وضحك لآل المنتفق الزمان ، وأطاعهم الحاضر والبادي ، وقصدهم الشعراء من جميع النواحي، وأجازوا بجوائز تفوق جوائز بني العباس ، وكنت لا تسمع في المجالس الا صفاتهم ومدحهم بما هو زائد عن حدهم ، بل عن حد الملوك . وطغى بنو المنتفق وبغوا وامتدت يد النهب منهم على سائر الناس خصوصاً على البصرة فان بعضهم يدخلون بيوت أهل البصرة نهاراً ـ فضلاً عن الليل ـ ويأخذون كل ما تصل اليه أيديهم ويبيعونه في السوق جهاراً نهاراً وصاحبه يراه ولا يستطيع أن يتكلم ، وكل من اشتكى الى الشيخ حمود لا تسمع شكواه لان عادة حمود نصرة الظالم[1] .

تمرد العشائر :

في الوقت الذي كانت فيه منطقة البصرة تحت سيطرة حمود شيخ المنتفق وعشيرته كانت منطقة الفرات الاوسط تعج بالفوضى ، فقد أعلنت عشائر الخزاعل وزبيد العصيان على الدولة فقطعت الطرق ونهبت القوافل التي كانت تسير بين الحلة وكربلاء والنجف ، مما شجع عشائر أخرى كشمر الجرباء والظفير على العصيان أيضاً فعمت الفوضى وانقطاع الطرق في كل مكان حتى وصل النهب والسلب الى الكاظمية وأطراف الكرخ

---

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص١١٩ .

وصار الناس في خوف على أنفسهم وأموالهم[1] .

ومما زاد في خطورة الحالة أن أربعين ألف زائر من الايرانيين ـ وكانت بينهم زوجة الشاه ـ حوصروا في كربلاء من قبل العشائر وأصبحت أموالهم وأرواحهم في خطر ، وكانت العشائر تنتظر خروج الزوار من كربلاء للوقيعة بهم ، فذُعر الوالي سعيد باشا من ذلك ذعراً شديداً خشية أن يصاب الزوار بضرر فتتخذ حكومة ايران ذلك حجة لتهديد العراق أو غزوه ، وقد تلومه الدولة على اهماله[2] . لم يجد سعيد باشا علاجاً للمشكلة الا بتعيين زوج أخته داود أغا في منصب الكهية على الرغم من كونه قد عزله قبلئذ من منصب الدفتردار بتأثير الوشايات .

ان داود أغا هذا هو الذي صار فيما بعد والياً على بغداد ـ كما سنأتي عليه في فصل قادم ـ وهو في الواقع من الرجال الأكفاء فاستطاع أن يضرب العشائر المتمردة ضربات قوية مزّق بها شملهم ، وأنقذ الزوار في كربلا ثم أرسل من يحرسهم في سفرهم الى النجف وفي عودتهم الى الكاظمية فايران ، ثم عزل شيخ زبيد وعين مكانه شاف الله الشلال المعروف باسم « شفلّح » .

موكب سعيد باشا :

وصل السائح البريطاني جيمس بكنغهام الى بغداد في ١٦ تموز من عام ١٨١٦ ، وقد أعطانا في الكتاب الذي ألفه عن رحلته وصفاً لموكب سعيد باشا عند مروره من أحد أبواب بغداد ـ والمظنون أنها الباب الشمالية المعروفة اليوم بباب المعظم ـ إذ قال :

« وحين طلعت الشمس وصلنا باب مدخل المدينة وقد تجمع خارجه

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٢٢٢ .
(٢) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص١٢٠ .

عدد كبير من الفرسان العرب والاتراك للمباراة كما وقف بالقرب منهم جمع أكبر من المشاة يمثلون حرس الباشا الذي كانوا يتوقعون عودته في أية لحظة من رياضته الصباحية على صهوة جواده ...

« وفي هذه الاثناء دخلت تلك الشخصية يتقدمها رعيل من حرسه المؤلف من المماليك الجورجيين وهم يرتدون فاخر الثياب ويمتطون الجياد الجميلة حسنة التجهيز ، ثم أعقب ذلك رعيل آخر من الجند المشاة كانوا يحملون البنادق الانكليزية التي اشتروها مع غيرها من الملابس من الانواع التي كان حرس المقيم البريطاني يستعملونها ، ولكنهم كانوا يضعون على رؤوسهم طاقيات كبيرة من الفرو كروية الشكل خشنة المظهر ، بينما كان سيرهم يدل على فقدان النظام والاتساق . كان القليل من الطبول والابواق القصبية هي الآلات الموسيقية الوحيدة ، وكانت الاصوات المنبعثة منها ليست مقبولة على أن شيئاً ما لم يقض على الرهبة التي أشاعها مرور الباشا لدى كل من شاهده وتلك حادثة بارزة دون ريب .

« كان على مقربة من الباب مقهيان كبيرتان امتلأت مقاعدهما بالمئات من المتفرجين ومع ذلك فلم يُشعل فيها غليون دخان ، ولا قُدم قدح من القهوة ، ولا انطلقت كلمة واحدة في تلك اللحظة الرهيبة . كان كل واحد من الحاضرين قد نهض من مقعده ، وراح يحني جسمه الى أمام أو يرفع يده الى شفتيه ثم يضعها على جبينه فقلبه بمنتهى الاحترام . ومع أن الباشا كان نادراً ما يدير رأسه أو عينيه عن النظر باستقامة الى أمام ، الا أنه كان يرد على تلك التحيات برشاقة عظيمة . وكان كل شيء يجري بمنتهى التؤدة واللياقة »[١] .

---

(١) جيمس بكنغهام (رحلتي الى العراق) ـ ترجمة سليم طه التكريتي ـ بغداد ١٩٦٨ ـ ص ١٨٣ـ١٨٤ .

عزل داود اغا :

كانت نابي خانم أم الوالي سعيد باشا تبغض داود أغا بغضاً شديداً على الرغم من كونه زوج ابنتها ـ أو لعلها كانت تبغضه لهذا السبب كما هو ديدن الحموات غالباً ـ وحين تولى داود أغا منصب الكهية أظهرت نابي خانم امتعاضها الشديد وصارت تلوم ولدها على هذا التعيين ، فلما ذهب ولدها لزيارتها وحاول تقبيل يدها حسب الاصول المتبعة رفضت هي تقديم يدها اليه وقالت له مؤنبة : كيف تتخذ داود كهية وأنت تعلم حق العلم أنه وأشباهه أعدائي منذ عهد بعيد ، يجب عليك أن تعزله حالاً والا فوجهي حرام عليك وحليبي غير محلل لك ، فلست أنت بولدي ولست أنا بوالدتك • فاضطر سعيد باشا تجاه هذا الاصرار الى عزل داود [1] ، ففقد بذلك رجلاً محنكاً كان من الممكن أن يكون عوناً له في الملمات •

أرادت نابي خانم أن تعين الحاج عبدالله ظاهري كهية لولدها • وكان هذا الرجل يتولى منصباً رفيعاً في عهد زوجها سليمان الكبير ثم اعتزل الوظيفة وذهب الى بلدة بوشهر في ايران ، فأرسلت اليه تستدعيه من هناك، وحين وصل الى بغداد ذهب لمقابلتها فيباب الحرم فجرت بينهما محاورة طريفة تصور لنا الوضع الاجتماعي والسياسي في بغداد يومذاك • وقد آثرنا نقل جزء من هذه المحاورة كما وردت بلهجتها العامية في كتاب « تذكرة الشعراء » لعبدالقادر الشهرباني •

بدأت نابي خانم المحاورة بقولها تخاطب الحاج عبدالله ظاهري : « إني أريد أن تباشر مشاغل ولدي سعيد باشا في جميع أمور الحكومة خارجاً وداخلاً وتصير كهية مرخص عنده كما كنت في أيام والده المرحوم سليمان باشا ، وانت من جراغات المتحيزين ، كنت عند المرحوم فبقي هذا

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المماليك في بغداد) ـ ترجمة محمد نجيب أرمنازي ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص ٤٤ـ٤٥ •

نجله يجب عليك أن تؤدي الحقوق مع نجله وتباشر أموره وخصوصه من كل الوجوه » . سكت الحاج عبدالله عن جوابها ، ولما ألحت عليه أخذ يعتذر لها عن قبول المنصب وصار يذكر الفرق في الاحوال بين أيام زوجها سليمان الكبير وأيام ابنها ، ومما قاله لها في هذا الشأن : « ... المرحوم كان أفلاطون زمانه ، كان معمر الاطراف والحواشي ، كان عنده رجال يخدمونه بالصدق ـ أدناهم كنت أنا ـ فالرأي والتدبير كنا نأخذه منه وما أحد منا كان يتكلم بكلام من غير إذنه لانه هو كان صاحب الرأي ... فكثر في أيام حكومته العلماء والشعراء وأهل الصنائع وكثرت البضائع وتعمرت البلاد ... وقل الاوباش من داخل البلد وتعمرت الجوامع والمساجد من كثرة الجماعة وامتلئت المدارس من طلبة العلم ، وقل الملاهي في داخل البلد ـ بالطبيعة لا بالنهي من طرف الحكم بل إنما صار تجلي من طرف الله ـ يكفيك اذا اقتضى الرجل يجعل فرح لختان أو زواج فما يأتي بآلة الملاهي حياءاً من الناس بل انما يعمل وليمة وإما يقري فيها مولود أم يقري كلام الله ... وأنتم اليوم تريدون أن أباشر الامور وأتعاطى سياسة الحكومة بمنصب الكهيوية فهذا ما تلزم راس لان اليوم على ما رأيت ولذلك أفندينا سعيد باشا كل أموره وخصوصه بيد أوباش مجتمعين على رأسه »[1] .

لم تقبل نابي خانم عذره وأصرت عليه اصراراً شديداً ، فرضي أخيراً أن يتولى المنصب مكرهاً ، واستطاع أن يسير في أمور الحكومة سيرة حسنة ولكن ذلك لم يدم غير أربعة أشهر تقريباً إذ أن الوالي وقع في عشق غلام مليح من أهل بغداد اسمه « حمادي العلوجي » فسيطر هذا الغلام عليه سيطرة تكاد تكون تامة فلم يكن يطيب للوالي سوى أن يقضي

---

(١) عبدالقادر الشهراباني (تذكرة الشعراء) ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ص ٤٧ـ٤٨ .

أوقاته بالقرب منه • وقد حاول الحاج عبدالله نصح الوالي دون جدوى فقدم استقالته من منصبه واعتزل في بيته ، ولم يؤثر فيه اذ ذاك أي الحاح من السيدة الوالدة نابي خانم •

تردي الوضع :

اشتهر حمادي العلوجي بلقب « ابن أبو عقلين » ولم يعرف السبب في تلقيبه بهذا اللقب ، والمظنون أن أحد آبائه جاء من « بعقلين » من قرى الشام فحرفها العامة في بغداد الى « أبو عقلين » ، والملاحظ أن هذه الكلمة بقيت متداولة بين عوام بغداد حتى عهد متأخر إذ يؤتى بها مثلاً على الرجل الذي يورط نفسه في المآزق •

يبدو على أي حال أن حمادي العلوجي كان يملك شيئاً من الذكاء وقوة الشخصية علاوة على ملاحته ، وقد أخذت سيطرته على الوالي سعيد باشا تزداد يوماً بعد يوم ، واستطاع أن يرتفع في المناصب حتى وصل أخيراً الى منصب الكهية وصار يأمر وينهى كما يشاء ، وكثر المتزلفون له والمادحون •

يقول المؤرخ سليمان فائق في شأن العلاقة العاطفية بين الوالي وحمادي : « أما محبته لحمادي أغا تلك المحبة التي بلغت درجة العشق والهيام والتي أصبحت حديث الخاص والعام بالاضافة الى ما كان يتمتع به المومى اليه من حسن وجمال فان كل ذلك قد حمل الناس على اتهامه بالانحراف الجنسي ولا دليل ينفي عنه تلك التهمة »[1] • وقد أدت هذه العلاقة المشبوهة الى تدهور الاحوال في العراق حيث انشغل الوالي بعشقه وأهمل شؤون الحكم ، فانتشرت الفوضى والاضطرابات هنا وهناك ، فتمردت بلدة مندلجين ـ أي مندلي ـ على الحكومة وطردت الضابط الذي

---

(١) سليمان فائق (تاريخ بغداد) ص٥٧ •

كان يتولى أمورها ، كما اشتد العداء بين سكان النجف حيث انقسموا الى فريقين « الشمرت والزقرت » وأخذ يقاتل كل منهما الآخر ، وامتـد لهيب العصبية القبلية الى كربلاء وثارت الحزازات بين أهلهـا فحـارب بعضهم بعضا(١) .

وصار التذمر ينتشر في صفوف المماليك في بغداد ، وكأنهم لم يهـن عليهم أن يروا شخصاً عادياً من سكان بغداد ، وابن علوجي ، ينتمي الى الطبقة الحاكمة التي هي من شـأنهم وحدهم ويتدخل في شـؤون الادارة العليا حتى تصل يده الى المتصرفين فيعزل وينصب منهم من يريد .

أصبح داود أغا زعيم المعارضة والتف حوله المتذمرون من المماليك وغيرهم . وفي ايلول من عام ١٨١٦ تمكن داود أغا من مغـادرة بغـداد خلسة ، يصحبه نحو مائتين من أتباعه ، وذهب الى كركوك حيث لقي من محمود باشا بابان ترحيباً وعوناً . وهناك أخذت حركته تنمو شيئاً فشيئاً ، والتحق به الكثير من أغوات بغداد .

داود ينال الفرمان :

استطاع داود أغا وهو في السليمانية أن يحصل من السلطان عـلى فرمان بولاية بغداد بدلا من سعيد باشا . وقد ساعده على ذلك في اسطنبول رجل من أولي النفوذ هو حالت أفندي آل رئيس الكتاب الذي عرفنـا شيئاً عنه من قبل ، فقد بذل هذا الرجل جهوداً كثيرة في سبيل عزل سعيد باشا من ولاية بغداد وتولية داود أغا مكانه .

ولحالت أفندي في هذا الشأن قصة طريفة جديرة بالذكر هنا ، فهو كان مديناً لصراف يهودي بغدادي يسكن اسطنبول اسمه حسقيل ، وكان

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص٢٦٩ .

لحسقيل أخ يسكن بغداد اسمه عزره ويريد أن يعينه في منصب « الصراف باشي » ـ أي رئيس الصرافين ـ عند سعيد باشا ، وقد كلّف حسقيل حالت أفندي أن يتوسط له في الأمر غير أن سعيد باشا رفض الاستجابة لوساطته مما أثار حنق حالت أفندي عليه وجعله يتحين الفرص للوقيعة به[1] .

كان رئيس الصرافين في بغداد ـ واسمه ساسون[2] ـ مدعوماً من قبل حمادي العلوجي ونابي خانم معاً ، ولذا كان من الصعب جداً زحزحته عن منصبه ما دام سعيد باشا في الحكم ، فاتفق حالت أفندي مع داود أغا على أن يساعده في الحصول على ولاية بغداد مقابل تعيين عزره في منصب رئيس الصرافين عنده[3] .

ويقال إن عزره قام من جانبه بعمل ساعد حالت أفندي في مسعاه ، فهو قد غافل الموظفين الذين يعملون في سك النقود النحاسية في بغداد فكتب على بعض القطع النقدية اسم سعيد باشا بدلاً من الطغراء السلطانية ثم تمكن من إرسال بعض تلك القطع الى أخيه حسقيل في اسطنبول ، وقدمها هذا بدوره الى حالت أفندي فكانت في يده ذريعة قوية نحو مقصوده حيث أظهر للمسؤولين في اسطنبول أن سعيد باشا يسك النقود باسمه بدلاً من اسم السلطان .

وفي تلك الآونة اجتمع أعيان كركوك وبعض أمراء الاكراد فكتبوا

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٢٣٠ .

(٢) ان ساسون هذا هو جد جد الأديب المعروف أنور شاؤول ، وهو كذلك والد داود ساسون صاحب الشركة التجارية المعروفة في بريطانيا والتي كان لها فرع في بغداد .

(٣) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ـ بغداد ١٩٦٧ ـ ج٢ ص١٢٩ .

الى السلطان عريضة يسترحمون منه أن يسند ولاية بغداد الى داود أغا ، فوصلت العريضة الى اسطنبول في الوقت المناسب إذ اتخذها حالت أفنـدي وسيلة للحصول على الفرمان المنشود[١] .

تعليل ابن سند :

إن هذا الذي ذكرناه عن كيفية حصول داود على فرمان ولاية بغداد يكاد يجمع عليه أكثر المؤرخين ، ولكن ابن سند البصري يحاول أن يشذ عنهم في ذلك وكأنه وجد فيه ثلباً لداود فأراد أن يأتي بتعليل آخر يرفع من شأنه . ولا ننسى في هذا الصدد أن ابن سند كتب تاريخه بايعاز من داود ومن أجل تمجيده .

يقول ابن سند في وصف خروج داود من بغداد : « ... ولما وصل كركوك ومعه من أتباعه نحو المائتين راسل الدولة العلية وكشف لها عن سوء سيرة سعيد باشا وشناعة سياسته وتقليد أزمة الممالك المهمة لأعـراب البادية أهل الظلم والغشامة الذين ديدنهم النهب والسلب وهو فخرهم في مجالسهم . وكان داود باشـا باقعة في التحريرات التركية والعربيـة والفارسية ينظم وينثر في الثلاث اللغات ، ويشهد له فصحاء كل من الثلاث اللغات بأنه إمام فيها . فلما بلغت رسائله الى الدولة تحيرّوا من فصاحتها وبلاغتها وما اشتملت عليه من الأمور السياسية ، فعلموا أن الـذي يكتب مثل هذه التحريرات هو الجدير بالرئاسة ، وهو الأحق بأن يتولى زمـام السياسة . وكان الاصطلاح في القرون الماضية عند الدولة العلية أن مقادير الرجال تعرف بمقدار تقدمهم في الكتابة والتحريرات والاسئلة والأجوبة المسـددة ... »[٢] .

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٢٣١ .

(٢) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .

ليس من المستبعد أن يكون لرسائل داود الى اسطنبول أثر في نيله الفرمان ، فالحذلقة اللفظية كانت ولا تزال ذات تأثير على عقول الكثير من الناس في هذه المنطقة من العالم ، ولكننا مع ذلك يجب أن لا ننسى جهود حالت أفندي وحسقيل وعزره في هذا السبيل . إن الرسائل مهما كانت ذات لفظ رنان لا يمكن أن ترتفع في تأثيرها الى مستوى « الأصفر الرنان » !

مقتل سعيد باشا :

حين وصل الفرمان الى يد داود أغا ــ وقد أصبح الآن باشا ــ أخذ يرسل دعاته الى بغداد وسائر أنحاء العراق لبث الدعاية له ، ثم تحرك من كركوك بقواته ومن تابعه من الاكراد نحو بغداد . ويقال إن سعيد باشا أدرك خطورة موقفه فآثر أن يرضخ للامر ويترك بغداد طلباً للسلامة غير أن عشيقه حمادي أغا ثناه عن عزمه وحثه على الصمود وعلى عصيان أمر السلطان[1] .

أرسل سعيد باشا الى حليفه حمود شيخ المنتفق يستنجد به ، فخف هذا لنجدته وجاء الى بغداد ومعه ألف وخمسمائة فارس فخيموا في جانب الكرخ . وفي ٧ كانون الثاني ١٨١٧ نشبت معركة حامية بين الفريقين خارج السور من جهة باب المعظم ، وقد لعبت مدافع القلعة دوراً مهماً في المعركة كما قام فرسان المنتفق بحركة هجوم مباغتة مما جعل النصر يميل الى جانب سعيد باشا ، فاضطر داود باشا الى الابتعاد بقواته عن بغداد نحو الشمال بغية الاستراحة وجمع الشمل[2] .

ظن سعيد باشا أن الخطر زال عن بغداد ، فسمح لشيخ المنتفق بالعودة مع فرسانه الى دياره ، وفُتحت أبواب بغداد وعادت الطمأنينة

---

(١) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص ١٥٤ .
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٣٧ .

الى السكان • ولكن ذلك لم يستمر طويلاً إذ أن وجود داود باشا مع قواته يهدد بغداد جعل أسعار الاطعمة فيها تميل نحو الارتفاع تدريجاً حتى بلغ سعر وزنة الحنطة ثلاثين قرشاً[١] ، وأخذ أنصار داود باشا المنتشرون في بغداد يبثون الاشاعات المهيجة فيالاسواق والمقاهي ويحرضون الناس على الثورة •

بدأت أولى بوادر الثورة في محلة باب الشيخ إذ خرجت المظاهرات منها وأمامها حملة الدفوف والأعلام وهم يستغيثون من سوء الحالة وضيق أسباب المعيشة وارتفاع الاسعار وانقطاع الطرق ، ثم عمت الفوضى وكثر السلب والنهب ، وراح المتنفذون يفعلون ما يشاؤون دون رقيب أو حسيب، مما اضطر الوالي أن يلجأ هو واتباعه الى القلعة حيث اتخذوا فيها موقف الدفاع[٢] • واستمرت الفوضى خمسة أيام كانت مفعمة بدوي المدافع وفرقعة البنادق وهوسات العقيليين وأناشيد الانكشاريين[٣] •

وفي الوقت الذي كانت فيه الحالة في مثل هذا التأزم علم سعيد باشا بأن حمادي أغا قد جرح وهو مطروح في احدى غرف القلعة الداخلية ، فأسرع اليه يواسيه وظل معه في الغرفة لا يفارقه غير مبال بما يجرى في الخارج • وحينئذ اجتمع أعيان بغداد وعلماؤها فكتبوا محضراً وأرسلوه الى داود باشا يحثونه على الاسراع الى بغداد لانقاذ الاهالي مما أصابهم •

وفي ٢٠ شباط ١٨١٧ دخل داود باشا بغداد ، فاستقبله الأهالي استقبالاً رائعاً وتعالت الاصوات من كل ناحية : « خير مقدم » و « مرحباً »[٤] ••• وأخذ سيد عليوي أغا رئيس الانكشارية يبحث عن

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٦٧ •
(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ •
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٣٨ •
(٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٤١ •

سعيد باشا بغية قتله ، فوجده لائذاً بحضن أمه فأهوى عليه بالبلطة حيث قطع عنقه فوراً من غير أن يهتم بتوسلات أمه وصـــريخها ، فتدحرج الرأس أمامها على الأرض بينما بقي الجسد وحده في يدها[1] • أما حمادي أغا فقد أُلقي القبض عليه ثم قُتل بعد أن عُذّب تعذيباً بشعاً طويلاً[2] •

يعلق سليمان فائق على مقتل سعيد باشا ــ وكان قد أدرك الحادثة ــ فيقول : « ••• وكان كل من يسمع بهذه الفاجعة يتملكه الحزن والأسف والألم العميق حتى أني على الرغم من كوني فتى حينذاك كان يتملكـــي الحزن والاكتئاب كلما أذكر هذه الحادثة ، وعلى الرغم من سفري الى الاستانة ثم اصطحابي لداود باشا فاني لم أتمكن من إخفاء استيائي وتأثري حتى في حضوره • وذات مرة ذُكرت الحادثة التي نحن بصـــددها في مجلس داود باشا وكان يضم أحد وجهاء بغداد من أبناء الربيعي فلم يتمالك كل من في المجلس نفسه وانخرط الجميع في البكاء • وقد حاول داود باشا أن يتصدى للدفاع عن نفسه وتبرير ما قام به فلم يسعفه النطق وسكت وكان سكوته دليلاً على تقصيره في هذا الشأن »[3] •

انظر أيها القاريء الى هؤلاء كيف يتألمون لمصيبة حلت بواحد من المترفين من أبنـــاء طبقتهم ، حيث قُتل في حجر أمه ، فهم يبكون كلمـــا ذكروها كأنما الدنيا ليس فيها سوى هذه المصيبة بينما هـــي تزخر بآلاف المصائب تقع كل يوم على رؤوس الكادحين الذين ليس لهم من يســـمع شكواهم أو يبكي لحالهم ــ ألا ما أبشع لؤم البشر !

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٣٨ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ •
(٣) سليمان فائق (المصدر السابق) ص ٥٩ •

الفصل التاسع

داود باشا

لم يُقدّر لاي والٍ في العراق ـ طيلة العهد العثماني ـ مثل ما قُدّر لداود باشا من حيث تأثيره الفكري والاجتماعي ، فقد ظل الكثير من العراقيين حتى عهد متأخر يذكرونه ويتحدثون عن مناقبه ـ أو مثالبه ـ ولا يزال في العراق أشخاص لهم مكانتهم العالية وهم يحملون وثائق تشير الى أنهم من « عتقاء داود باشا » وهم يفتخرون بها أو هم على الأقل لا يختزون منها •

نشأة داود باشا :

لم تختلف نشأة داود باشا كثيراً عن نشأة غيره من المماليك ، فهو من أهالي تفليس في جورجيا ، وُلد في عام ١٧٦٧ ، وأختطف من أهله يوم كان في الثالثة عشر من عمره ، فجاء به أحد النخاسين الى بغداد وعرضه للبيع ، فاشتراه أحد وجهاء بغداد ـ هو مصطفى بك الربيعي ـ غير أنه باعه بعد أيام لسبب لا نعرفه ، فصار داود يتنقل من يد الى أخرى حتى انتهى المطاف به الى يد الوالي سليمان باشا الكبير فأدخله هذا في زمرة مماليكه وأخضعه للتدريب الذي كان يخضع له سائر المماليك في تلك الأيام •

الظاهر أن داود كان صبياً موهوباً فهو يجمع الى وسامة الطلعة ذكاءاً لماحاً ومقدرة على استعمال السلاح ، فأعجب به سليمان باشا وجعله كاتباً خاصاً له ثم رفعه الى منصب « المهردار » ـ أي حامل الختم ـ وزوجه من احدى بناته[١] • ولم يكن هذا بالأمر الشاذ أو المستغرب فقد حدث

(١) أحمد علي الصوفي (المماليك في العراق) ـ الموصل ١٩٥٢ ـ ص ١٩١ •

مثل هذا في عهد المماليك غير مرة ، ثم صار عادة لدى بعض العراقيين إذ إن أحدهم قد يُعجب بصبي فيعطف عليه ويجعله صاحباً له لا يفارقه حتى اذا كبر الصبي زوجه من بنته •

إن زواج داود من بنت سليمان باشا أثار حسد الكهية علي باشا ، فلما تولى هذا الكهية الحكم بعد سليمان باشا اضطر داود أن يترك سلك الوظيفة ويلجأ الى جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ليكون طالباً للعلم فيه ، وبقي هناك طيلة ولاية علي باشا مثابراً على دراسة العلوم الدينية واللغوية• وكانت تلك الفترة ذات أثر كبير في تكوين شخصية داود وجعلت عهده حين تولى الحكم فيما بعد ذا طابع خاص به يميزه عن عهود غيره من الولاة •

عاد داود الى سلك الوظيفة الحكومية عندما تولى الحكم عبدالله باشا التوتونجي في عام ١٨١١ ، فقد عينه هذا في منصب « الدفتردار » ـ أي مدير الأمور المالية ـ ومما يلفت النظر أن داود أثناء قيامه بمنصبه الجديد لم يترك ما كان عليه في جامع الشيخ من دراسة أو تدريس ، وكأنه أراد أن يبرهن للناس أن الدنيا لم تغيّر من مسلكه الديني ، فصار يعقد الدروس الدينية في « القوناق » ـ أي في الدائرة الحكومية التي كان يعمل فيها ـ وكان الطلبة يحضرون اليه فيها فيلقي عليهم الدروس بعد صلاة العصر • وعندما صار والياً أخذ يلقي دروسه مرتين في الاسبوع ، حيث يقرأ في كتاب البخارى صباح الخميس ، ويقرأ في كتاب البيضاوي صباح السبت[١] •

علاقته بأسرته :

يبدو أن داود كان على اتصال بأسرته منذ أن بدأ يتولى المناصب العالية في بغداد ، ولهذا رأينا أحد اخوته يفد اليه على اثر تسلمه ولاية

(١) عبدالقادر الشهرباني (تذكرة الشعراء) ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ص ٢٢ ، ٤١ ، ٥٥ •

بغداد . ففي شهر أيار من عام ١٨١٧ وصل هذا الأخ الى بغداد فأسكنه داود باشا في الحرم ، وكان مسيحياً لا يتكلم سوى اللغة الكرجية والأرمنية واسمه « جيو » ، وقد غيّر اسمه فصار « سليمان » دون أن يغيّر دينه . وفي شهر آب من السنة ذاتها غادر بغداد عائداً الى بلاده بعد أن حوّل على السليمانية بعشرين ألف قرش[١] .

وذكر السائح البريطاني السر كير بورتر أنه عند وصوله الى بغداد في تشرين الأول ١٨١٨ ذهب بصحبة القنصل البريطاني المستر ريج لزيارة الوالي داود باشا في مقره ، ولما عرف داود باشا أنه قد مر في سياحته بجورجيا تملكه الحنين الى أهله وأخذ يسأله عن أحوال تلك البلاد وأخبره أن أباه وأمه وإخوته يسكنون في تفليس وهو يريد أن يرسل كتاباً الى حاكم جورجيا الروسي يوصيه فيه بأسرته . وقد أرسل داود باشا الكتاب فعلاً مع هدية ثمينة بيد أنها لم تصل الى المهدى اليه لأن الاكراد سلبوا الرسول الذي كان يحملها بالقرب من ماردين[٢] .

مشكلة العشائر

تولى داود باشا الحكم في بغداد في أواخر شباط من عام ١٨١٧ ، وكانت أهم مشكلة واجهها في السنة الأولى من حكمه هي مشكلة العشائر ، وقد عاني في معالجتها عناءاً شديداً وكادت تقضي عليه لولا مساعدة الظروف له .

رأينا في الفصل السابق شدة التنازع على الحكم الذي جرى بين المماليك خلال الخمسة عشر سنة الماضية ـ منذ وفاة سليمان الكبير حتى بدء ولاية داود باشا ـ وقد انتهزت العشائر العراقية تلك الفرصة ، وكانت

---

(١) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ـ بغداد ١٩٤٨ ـ ج٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ص ٢٧ ـ ٢٨ .

فرصة ذهبية بالنسبة لها ، فأخذت تسيطر على طرق القوافل وتفرض الأتاوات ، ويغزو بعضها بعضاً ، مما جعل المجتمع العراقي يرزح تحت وطأة التحكم العشائري الى درجة لا تطاق .

يقول رسول الكركوكلي : « وخلال الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في البلاد كان أكثر العشائر قد خرج عن الطاعة ، فلما تولى داود باشا مقاليد الحكم أذعن معظمهم من تلقاء أنفسهم الا عشيرة بني تميم وشمر الباوي والرفاعي والنجادة وبني عمير ، فان هؤلاء قد اتفقوا فيما بينهم وتجمعوا بمكان قريب المحمودية وراحوا يشنون هجماتهم على أبناء السبيل يقتلون ويسلبون بالرغم من قربهم من مركز الحكومة ... »[1] . فجهز داود باشا ثلاث حملات ضد تلك العشائر واستطاع أن يمزق شملها ويستولى على أموالها ومواشيها .

وبعد نجاح داود باشا في حملاته ضد العشائر المتمردة ظن أنه قادر أن يقضي على عادة الغزو بين العشائر قضاءاً نهائياً ، ولعله أراد أن يقلد الوهابيين في ذلك ، فأصدر أمراً عاماً وجهه الى العشائر العراقية كافة يمنعهم به من غزو بعضهم بعضاً « لأنهم مسلمون وأن الاسلام يحرم الغزو تحريماً قاطعاً » . وحاول داود باشا أن ينفّذ أمره هذا بالقوة الرادعة ، فلم يكد يسمع عن غزو قامت به احدى عشائر شمر على عشيرة الحديديين حتى أرسل حملة لتأديب العشيرة الغازية ، وأخذ منها خمسمائة بعير عقاباً لها . ثم أرسل حملة أخرى لتأديب آل يسار في الفرات الأوسط على إثر غزوة قاموا بها على احدى العشائر[2] .

---

(١) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص٢٧٧ .

(٢) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود) ـ اختصار أمين الحلواني ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ص ١٣١-١٣٢ .

إن هذا الذي فعله داود باشا في محاولة منع الغزو بين العشائر يشبه ما فعله حسن باشا في عام ١٧٠٤ ، وما فعله ناظم باشا في عام ١٩١٠ ، وقد فشلوا جميعاً فيما حاولوه . إن العشائر لا يمكن أن تترك عادة الغزو الا اذا استبدلت به غزواً آخر أكثر غنماً منه ، وهذا هو ما حدث فعلاً لدى القبائل النجدية اثناء الحركة الوهابية ـ كما أشرنا اليه في فصل سابق ـ إذ هم وجدوا في « الجهاد في سبيل الله » و « غزو الكفار » خير ما يعوضهم عن الغزوات الصغيرة التي اعتادوا عليها من قبل .

النزاع مع ايران :

كثيراً ما كانت منطقة كردستان مبعث نزاع بين العراق وايران ، فاذا حدث تنافس على الحكم بين أمراء الأكراد هنالك أسرع بعضهم الى حكومة ايران يستنجد بها على خصمه ، وقد تنتهز حكومة ايران الفرصة أحياناً فترسل قواتها لمساعدة هذا الفريق أو ذاك من الأمراء المتنازعين ، وقد يؤدي ذلك الى نشوب الحرب بين البلدين ، وهذا هو ما وقع فعلاً في أواخر عام ١٨١٧ ـ أي قبل أن تنتهي السنة الأولى من ولاية داود باشا .

يمكن القول على أي حال إن العراق كان مهدداً بالغزو الايراني منذ عام ١٨٠٥ حين عُيِّن الشاهزادة محمد علي مرزا حاكماً على كرمانشاه ، فقد اشتهر هذا الرجل بقوة شخصيته وشدة طموحه وشراسته ، وأخذ منذ بداية تعيينه ينظم جيشه على الطريقة الأوربية ويعده اعداداً حديثا ، وكاد يهاجم العراق في عهد سعيد باشا لو لم يتدخل السفير البريطاني في ايران ويقنع الشاه باحترام الحدود القديمة[1] .

وفي أوائل ١٨١٨ استغل الشاهزادة نزاعاً وقع بين امراء آل بابان ،

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٢٤٣ .

واستنجاد بعضهم به ، فوجه ثلاثة جيوش يستهدف بها احتلال بغداد : أحدها من جهة السليمانية بقيادة محمد علي أغا البياتي ، والثاني من جهة مندلي بقيادة حسن خان الفيلي ، والثالث من جهة بدرة وجصان بقيادة كلهر علي خان وكلب علي خان •

وفي هذا الوقت الذي كان فيه الخطر يهدد بغداد ، فر منها صادق بك ـ أخو الوالي السابق ـ والتجأ دخيلاً الى شفلح الشلال شيخ زبيد ، وكأنه أراد أن يفعل مثلما فعل أخوه في عهد الوالي عبدالله باشا التوتونجي حين التجأ الى شيخ المنتفق على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق • وقد رحب به الشيخ شفلح كما انضم اليه جاسم الشاوي الذي كان داود باشا يريد قتله ، فتوافرت لديه بذلك قوة عشائرية لا يستهان بها وأخذت تشن الغارات على القرى والمدن وتقطع طرق القوافل والسفن بين بغداد والبصرة على طريقة « اضرب واهرب »[١] •

كانت تلك أحلك الأيام على داود باشا إذ اجتمعت عليه الأخطار من كل جانب ، ولكنه صمد لها صموداً عجيباً وأثبت أنه من أولئك الرجال الذين تلمع كفاءتهم عند اشتداد الازمات • أدرك داود باشا أنه لا يستطيع أن يقاتل القوات الايرانية والعشائرية في آن واحد ، فلجأ الى الحيلة حيث استخدم طريقة « فرق تسد » مع العشائر المتمردة وذلك بأن سلط على الشيخ شفلح الشلال اثنين من خصومه الذين ينافسونه على الرئاسة وهما علي البندر وشبيب الدرويش ، واستطاع هذان الرجلان بمن معهما من الاتباع أن يتغلبا على شفلح ويهزما قواته ، ففر هو وصادق بك وجاسم الشاوي والتجأوا الى عشائر عفج في الفرات الأوسط •

وبعد أن استراح داود باشا من هذه الجهة توجه نحو مقاومة الجيوش الايرانية الغازية • والظاهر أنه آثر استرضاء الشاهزادة وعقد الصلح معه ،

---

(١) أحمد على الصوفي (المصدر السابق) ص١٥٩ •

فوافق على معظم الشروط التي قدمها الشاهزادة من أجل الصلح ومنها إبقاء محمود باشا بابان حاكماً على السليمانية[1] • وبعد مراسلات ومفاوضات استمرت شهرين تم عقد الصلح بينهما ، ولكنه كان صلحاً موقتاً لم يدم طويلاً كما سيأتي بعد قليل •

ثورة عشائرية أخرى :

لم يتمتع داود باشا بالراحة ـ بعد تلك الأيام الحالكة ـ سوى أشهر معدودة • ففي خريف ۱۸۱۸ جاءت من بادية الشام عشيرة بدوية تدعى « الصقور » ، وهي من عنزة ، فوصلت الى مقربة من بلدة المسيب وأخذت تعيث بالأمن هناك وتقطع الطرق ، فوجه اليها داود باشا قوة عسكرية بقيادة خازنه يحيى أغا ، والتقى هذا بعشيرة « الصقور » في موضع يقع غرب المسيب فدارت الدائرة عليه وأوقعت به العشيرة هزيمة منكرة •

لم يكد ينتشر نبأ هذه الهزيمة التي حلت بجيش الحكومة حتى بدأت بعض العشائر تتجرأ وتعلن تمردها على الحكومة وتقطع الطرق • ففي الشمال أعلن العصيان مشكور الزوين شيخ شمر ، كما أعلنته عشائر عفج وجليحة وآل فتلة في الجنوب ، وأخذت عشيرة الظفير تهدد زوار العتبات المقدسة بين النجف وكربلاء وتقطع عليهم الطريق ، وصار عباس الحداد رئيس « الزقرت » في النجف يهاجم خصومه « الشمرت» بغية وضع النجف كلها تحت سيطرته •

بدأ داود باشا حركاته القمعية بالشمال فوجه كهيته القدير محمد أغا بقوة كبيرة نحو عشيرة شمر ، واستطاع الكهية بعد مسيرة ثماني عشرة ساعة أن يفاجيء العشيرة بهجوم صاعق ، ففر أفراد العشيرة بأرواحهم وتركوا

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار (داود باشا والي بغداد) ـ القاهرة ۱۹٦۸ ـ ص ۱٦۷ـ۱٦۸ •

للجيش جميع أموالهم فكانت غنائم الجيش آنذاك ثمانية آلاف شـــاة وخمسمائة ناقة ومائتي ذلول ، علاوة على الخيام وما فيها[1] .

وفي اليوم الاول من شهر تشرين الثاني ١٨١٨ تحرك الكهية محمد أغا بقواته من بغداد قاصداً الفرات الأوسط لتأديب العشائر المتمردة هناك ، وكان يصحبه بعض الاكراد برئاسة عبدالله باشا بابان ، وعشـــيرة عقيل الكرخية ، كما ساندته عشيرة الخزاعل وآل بعيج . وعلى مقربة من بلدة الكفل التقى ببعض رؤساء « الصقور » وكان عددهم ثمانية عشر رجلاً ، منهم حمدان القعيشيش وابن هذال زيد الحميدي ، وقد توسط شـــيخ عقيل بينهم وبين الكهية وأخذ لهم الأمان منه . وسار هؤلاء في معية الكهية حتى وصلوا الكوفة ، وهناك أمر الكهية باعتقالهم وارسالهم مكبلين بالقيود الى بغداد . وقد غضب شيخ عقيل من ذلك غضباً شديداً فأخذ يصـرخ محتجاً ، لأنه كان الوسيط في أخذ الأمان لهم ، غير أن صـرخاته ذهبت أدراج الرياح[2] .

وتوجه الكهية بعدئذ نحـو عشـائر عفج وآل فتله ، وجرت معهـم معارك طاحنة ـ لا سيما حول قلعة شخير الغانم ـ كان النصر فيها حليف الكهية ، وغنم الجيش ألف طغار من الحبوب ، كما فرض خمسين ألف قرش غرامـــة على كل من جليحة وآل فتلة وجعل جبايتهـــا في عهدة الخزاعل[3] .

قضية عباس الحداد :

كان عباس الحداد في أول أمره يمتهن الحدادة كمـــا يبـــدو من اسمه ، وعند هجوم الوهابيين على النجف في عام ١٨٠٢ لمع اسمه مـــن

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ج٦ ص٢٥٧ .

(٢) عبدالعزيز نوار (المصدر السابق) ص١٠٤ .

(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٦٢ .

زمرة الشجعان الذين دافعوا عن البلدة وأنقذوها من الخطر • وقد استعان به الشيخ جعفر كاشف الغطاء بعدئذ وجعله على رأس جماعة من الشبان المسلحين ليكونوا على إهبة الدفاع عن البلدة عند وقوع أية غارة عليها في المستقبل • والظاهر أن قوة عباس الحداد تطورت بمرور الايام حتى صارت أخيرا بمثابة شرطة إجرائية للشيخ جعفر تنفذ أوامره في حكم البلدة وفي تطبيق أحكام الشرع فيها ، فاذا أراد الشيخ أن يستدعي أحداً اليه أو يفرض عقوبة على أحد أرسل الحداد لاجراء اللازم •

وحدث ذات يوم أن جاءت الى الشيخ امرأة تُدعى « أم السعد » ـ وهي أخت السيد محمود رئيس قرية الرحبة ـ تشكو اليه من جور أخيها لأنه امتنع من تزويجها هي واختها على الرغم من كثرة خطابهما إذ كان يعد ذلك نوعاً من « القيادة » ويستنكر أن يقع التناكح في داره حتى بين الحيوانات • فأرسل الشيخ جلوازه الحداد مع زمرة من أتباعه الى السيد محمود يطلب منه الحضور الى مجلس الشرع ، ولكن السيد محمود رفض إطاعة أمر الشيخ مما أدى الى نشوب مشاجرة بينه وبين الحداد • ثم قُتل السيد محمود أثناء ذلك ، والمظنون أن الحداد هو الذي قتله • وعند هذا هب كليدار النجف الملا محمد طاهر يطالب بثأر السيد محمود لأنه كان ينتسب اليه بصلة الخؤولة • فكان ذلك ايذاناً ببدء النزاع المعروف في النجف بين « الزقرت » و« الشمرت » ـ هؤلاء يتبعون الكليدار وأولئك يتبعون الحداد ـ وبذا انشق سكان النجف الى فريقين متناحرين ، وكثيراً ما كانا يتقاتلان بالبنادق من فوق المآذن وسطوح المنازل المرتفعة[1] •

وعندما تولى داود باشا مقاليد الحكم في بغداد أسرع اليه عباس الحداد ، ورمى بنفسه في باب الحرم ، متوسلاً اليه أن يوليه حكم النجف

---

(١) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) ـ النجف ١٩٥٨ ـ ج١ ص ٣٣٠ـ٣٣٤ •

بصورة رسمية ، فوافق داود باشا على ذلك ومنحه ما أراد[1] . ولكن عباس الحداد لم يراع هذا الفضل الذي أسداه اليه داود باشا ، حيث رأيناه يعلن الثورة مع الثائرين حالما وصل اليه نبأ هزيمة جيش الحكومة تجاه عشيرة الصقور . فوجّه الكهية اليه صالح أغا الكردي مع « بيرقين » - أي سريتين من الجيش - وانتهى أمر الحداد أخيراً بمقتله ، فأرسل صالح أغا رأسه الى الكهية ، وأرسله هذا بدوره الى داود باشا .

فرح الانتصار

بعد أن أنهى الكهية محمد أغا أعماله « التأديبية » في الفرات الأوسط ، ترك فيه ثلاثين « بيرقاً » من جنوده ، وأربعين « بيرقاً » من عشيرة عقيل ، للمساعدة على حفظ الأمن وجباية الغرامة ، ثم قفل راجعاً الى بغداد . وفي بداية عام ١٨١٩ كان وصول الكهية الى بغداد فاستقبل فيها استقبال الفاتحين وخلع عليه داود باشا خلعة فاخرة مكافأة له .

وفي تلك السنة شرع داود باشا بتشييد الجامع الكبير الذي عُرف فيما بعد باسم « جامع الحيدرخانة » والذي لا يزال قائماً يشرف على شارع الرشيد بالقرب من ساحة الميدان ويُعد من أوسع وأفخم مساجد بغداد . ويبدو أن داود باشا بنى هذا الجامع من باب الشكر لله على نجاته من تلك الأيام الحالكة التي مرت به .

مرت سنة ١٨١٩ على داود باشا بسلام ، انما هي لم تكد تقترب من نهايتها حتى وصلت الأنباء الى بغداد تشير الى تحرك عشائر الدليم نحو العصيان بالتحالف مع زوبع والجميلة والبو عيسى . وفي بداية عام ١٨٢٠ تحرك الكهية محمد أغا بقواته من بغداد متوجهاً نحو عشائر الدليم ، وعند وصوله اليهم نشبت معركة شديدة بين الفريقين استمرت طيلة النهار ،

---

(١) يعقوب سركيس (المصدر السابق) ج٢ ص ٣٤٢-٣٤٣ .

وقد وصفها الشيخ رسول الكركوكلي إذ كان معاصراً لها فقال : « وما هي الا جولات حتى تغلبت عليهم ـ قوات الكهية ـ ومزقت جموعهم ، وقتلت الكثيرين منهم ، وغرق معظم الذين ألقوا بأنفسهم الى نهر الفرات اثناء هزيمتهم ، واستولت الحملة على أموالهم ومواشيهم ، وسبت عيالهم وذراريهم ، ثم اتجهت نحو عشائر الجميلة والزوبع والبو عيسى لترابطهم سراً مع عشائر الدليم ، وطاردتهم الى نواحي شفاثة وظفرت بهم ، وبعد معاقبتهم واستيفاء ما بذمتهم من رسوم وأموال أميرية عادت الحملة . وبعد هذه الواقعة هدأت الأحوال ، وانتظمت الأمور ، وخيم السلام على بغداد ، وراح الشعراء يتسابقون الى مدح الوالي والثناء عليه لحزمه وحسن ادارته »[١] .

والظاهر أن داود باشا أراد أن يجعل الفرح في تلك السنة مضاعفاً ، فعزم على ختان ولده طورسون يوسف بك بمناسبة بلوغه السابعة من عمره . فأقيمت المهرجانات الفخمة سبعة أيام ، وأقبلت الوفود من كل مكان لتقديم التهاني ، ونُصبت خيمة جميلة في ساحة السراي وبُسطت الموائد للقاصي والداني . وقد خُتن مع « المحروس » ما يزيد على ألف طفل من الايتام ، وخلع الباشا على العلماء والاشراف حللاً بديعة الاوصاف . وانتهز الشعراء المناسبة فنظموا القصائد في تهنئة الباشا ومدحه، وهم صالح التميمي وفوزي ملا محمد أمين وعبدالله البصري وعثمان بن سند وغيرهم[٢] .

النزاع مع المستر ريج :

في عام ١٨٢٠ اشتد النزاع بين داود باشا والقنصل البريطاني المستر ريج ، ولكي نفهم جذور هذا النزاع يجب أن نرجع قليلاً الى الوراء

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٦٦ .

لندرس شيئاً من سيرة المستر ريج هذا منذ أن عيّن قنصلاً في بغداد عام ١٨٠٨ .

يمكن القول إن المستر ريج هو أول من عمل على تمكين النفوذ البريطاني في العراق ، وقد نجح في ذلك نجاحاً باهراً حتى أصبحت شخصيته في بعض الاحيان أقوى من شخصية الوالي حيث أدرك الناس أن الولاة في تبدل دائم ، وقد يقتل أحدهم الآخر ، بينما يبقى المستر ريج في منصبه لا يتغير . ولهذا كان الناس لا يقيمون وزناً لوعود باشواتهم وأعيانهم الا اذا كانت مدعومة بضمان المستر ريج[1] ، وكانوا يسمونه « الباليوز » ـ وهي لفظة ايطالية بمعنى القنصل ـ وصار اسم « الباليوز » على كل لسان في بغداد .

إن من الوسائل التي اتخذها ريج لتدعيم نفوذه في المجتمع البغدادي هو اعتماده على المظاهر الزاهية والمواكب الفخمة ، فقد أدرك أن منزلة الانسان في هذا المجتمع انما تقاس بما تحف به من الابهة والفخامة ، ولهذا جعل للقنصلية حرساً من الفرسان بملابس مزركشة ، ولهم طبولهم وأبواقهم ، وهم يسيرون في موكب مهيب عند خروج « الباليوز » الى مكان ما وعند عودته منه ، وكثيراً ما يقف المتفرجون من أهل بغداد على جانبي الطريق وهم مدهوشون بروعة الموكب .

وعندما تولى داود باشا الحكم في بغداد خرج المستر ريج بموكبه ليهنيء الوالي الجديد بمنصبه ، ولعله كان يظن أن هذا الوالي كغيره من الولاة السابقين غير أنه اكتشف خطأ ظنه بعد زمن ليس بالبعيد .

في عام ١٨٢٠ أعلن داود باشا فجأة مضاعفة الرسوم المفروضة على الصادرات والواردات البريطانية ، ولما احتج المستر ريج على ذلك قائلاً

---

(١) كلوديس جيمس ريج (رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠) ـ ترجمة بهاء الدين نوري ـ بغداد ١٩٥١ ـ ص ٢٠ .

بأن للبريطانيين حقوقاً معينة أقرتها اسطنبول أجاب داود باشا بأنه لا يقبل بأي حق أوربي خاص ببغداد . وأسرع ريج فاتخذ اجراءاً مضاداً لعمل داود باشا وذلك أنه أمر نائبه في البصرة بمنع السفن الواردة من الهند من الدخول الى ميناء البصرة كما أمره بمنع السفن الداخلة من الخروج[1] . ثم أعلن ريج عزمه على الرحيل الى بومبي من أجل عرض القضية على المسؤولين هناك ولكن داود باشا منعه من ذلك وأمر جنوده بفرض الحصار على دار القنصلية البريطانية .

كانت القنصلية يومذاك على نهر دجلة في جانب الرصافة ـ على مقربة من جسر الاحرار الحالي ـ وكان يقف الى جانبها في النهر يخت مسلح لحمايتها . فوضع داود باشا تجاهها على الضفة المقابلة من النهر مدفعاً على استعداد لقصف القنصلية . ولم يقف ريج ازاء ذلك موقف المستكين ، بل أراد أن يثبت لأهل بغداد أنه لا يزال ذلك « الباليوز » صاحب الحول والطول الذي يعهدونه .

صمم ريج أن يدافع عن القنصلية بما لديه من حرس وقواسين ، وصادف أن كان في ضيافة القنصلية يومذاك عدد من ضباط شركة الهند فأشركهم ريج في خطة الدفاع . وقسم الدار الى قطاعات وزع عليها قواته ، ووضع الاستحكامات حولها ، وأشرف بنفسه على جميع مواقع الدفاع كأنه قائد عسكري كبير يشرف على معركة فاصلة ، أو كأنه « نابليون » ينتظر « واترلو » أخرى[2] .

يبدو أن داود باشا أدرك ما سوف تؤدي اليه هذه البادرة من مشكلة دولية فأرسل بعض موظفيه الى ريج ليفاوضوه ، ولكن ريج استقبلهم

---

(١) محمد بن أحمد الحسيني (رحلة المنشي البغدادي) ـ ترجمة عباس العزاوي ـ بغداد ١٩٤٨ ـ ص ١٨ .

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (المصدر السابق) ص ٢١٠ .

بغضب ورفع في وجوههم العصا ثم طردهم من الدار طرداً مخزياً . وأرسل داود باشا الى ريج وفداً آخر مؤلفاً من الدفتردار والصراف باشي عزره ، فنجح هذا الوفد في مهمته وتم الاتفاق على أن يمنح داود باشا لريج رخصة الخروج من العراق ، وأن يكتب ريج مقابل ذلك مذكرة يعترف فيها بأنه عومل معاملة حسنة وأنه انما يغادر العراق بمحض ارادته[1] .

يقول السيد محمد أغا المنشي ـ الذي كان يعمل كاتباً عند ريج ـ ان ريج كان قادراً أن يستولي على بغداد في تلك الحادثة لأن الانكشارية كانوا من أعوانه وكذلك كان أعيان بغداد وعامة الناس ، ولكنه لم يفعل ذلك لانه كان محباً للسلام وغير ميال للشحناء واثارة القلاقل[2] .

يدل هذا القول على أن ريج كان وثيق الصلة بالانكشارية وبأعيان بغداد وأن هؤلاء كانوا قد وعدوه بالمعونة عند نزاعه مع الوالي ، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن ريج كان قد وضع خطة سياسية بعيدة المدى عميقة الجذور في سبيل وضع العراق تحت النفوذ البريطاني ولكن داود باشا فوّت عليه الفرصة وخيّب أمله .

مهما يكن الحال فقد غادر ريج بغداد في ١١ أيار ١٨٢١ حيث أقله اليخت الخاص الى البصرة ، فوصلها بعد ثمانية أيام ، ومن هناك ركب سفينة بريطانية الى بوشهر ، ثم ذهب الى شيراز لمشاهدة آثار « تخت جمشيد » القريبة منها . وقد لقي ريج حتفه في شيراز إذ أصابه وباء الهيضة الذي انتشر هناك على حين غرة .

عينت الحكومة البريطانية الكابتن تيلر ليخلف ريج في قنصلية بغداد ، وكان هذا يعمل قبلئذ في البصرة في وظيفة « نائب قنصل » . وقد

(١) المصدر السابق ، ص ٢١١ .
(٢) محمد بن أحمد الحسيني (المصدر السابق) ص ٢٠ .

اتبع تيلر مع داود باشا سياسة تختلف عن سياسة سلفه ، فساد الصفاء والود بينهما على وجه من الوجوه .

وباء « الكوليرا » :

أشرنا آنفاً الى انتشار وباء الهيضة « الكوليرا » في شيراز حيث مات به المستر ريج ، ولابد لنا من أن نذكر هنا أن هذا الوباء جاء من الهند عن طريق السفن ، وقد انتشر في بداية الامر في مدن الخليج كبندر عباس وبوشهر ، ثم وصل الى البصرة في أوائل شهر آب من عام ١٨٢٠ . والظاهر أن العراقيين لم يكن لهم عهد بهذا الوباء منذ زمن بعيد ، إذ كانوا قد اعتادوا على وباء الطاعون في الغالب ، وحين جاءهم وباء الهيضة استغربوا منه ولم يعرفوا له دواءاً ، وأطلقوا عليه اسم « الهواء الاصفر » و « أبو زوعة » . وقد أعطانا ابن سند وصفاً له ــ وكان يسكن البصرة يومذاك ــ فقال ما نصه :

« وفي تلك السنة حصل وباء عظيم في البصرة كاد أن يفني أهل البصرة ، وكثير من البيوت مات أهلها جميعاً وقُفلت بالضبة ، وكثير من الاموات يجدونهم في الطرقات ولا يعلمون من أي الجهات هم ، وأغلب الناس فروا الى البادية ، وهو طاعون كالذي ذكر الامام النووي أن من علاماته القيء والاسهال . وهذا الوباء كان كذلك يبتلي صاحبه بالقيء والاسهال المفرط ، وصاحبه لا يبول فاذا بال سلم واستمر في البصرة من آخر شوال الى آخر ذي القعدة ، الا إن شدته من أول ذي القعدة الى اثني عشر منه ، ثم كان تارة يشتد وتارة يخف الى أن انعدم . وصاحبه تعتريه حرارة عظيمة ظاهراً وباطناً ، وقد ألقى بعض المصابين به نفسه في الماء البارد فلم يفده شيئاً وقضى نحبه . وتحيرت فيه الاطباء وما علموا له دواءاً أصلاً كما أنهم لم يتحققوا أسبابه على اليقين ، بل كل من الحكماء يبدي سبباً للوباء يخالف ما يقوله الحكيم الآخر ، وهذا دليل على عدم الوقوف

على الحقيقة لأن الحق واحد لا يختلف فيه ، وما هذا الا لكون أدلتهم ظنية »[1] .

واشتدت وطأة الوباء في البصرة في منتصف شهر آب ، ثم أخذ يسري شمالا فاجتاح سوق الشيوخ والعرجة والسماوة والنجف وكربلاء والحلة حتى وصل الى بغداد ، ومنها انتقل نحو كركوك والسليمانية . وقد فاتح داود باشا رجال القنصلية البريطانية للتعاون معهم على درء الخطر ، فتقدم « حكيم الباليوز » ـ أي طبيب القنصلية ـ ببعض الأدوية المضادة للوباء مع النصائح والارشادات التي تساعد على الوقاية منه ، فتُرجمت المعلومات من اللغة الانكليزية الى التركية ووزعت على الجهات المختصة للعمل بها[2] .

الغزو الايراني :

بينما كان العراق يعاني من وباء الهيضة الوافد اليه من الهند بدأ يهدده من ايران وباء من نوع آخر هو الجيوش الغازية .

كان هناك مائة سبب ـ كما يقول لونكريك ـ لعودة النزاع بين العراق وايران ، منها سوء معاملة الاتراك للزوار الايرانيين في العراق والتجاء بعض أمراء بابان الى الشاهزادة محمد علي مرزا حاكم كرمانشاه . وقد زار الشاهزادة أباه فتح علي شاه ليستأذنه في غزو العراق ، فوجد هناك السفير الروسي خير مشجع له على ذلك ، وبهذا أذن الشاه لابنه أن يفعل ما يشاء[3] .

كان عبدالله باشا بابان من جملة أمراء الاكراد الذين التجأوا الى

---

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٢٩٨ .
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٤٤ .

الشاهزادة في كرمانشاه ، فأصدر الشاهزادة أمراً بتعيينه حاكماً على السليمانية بدلاً من ابن أخيه محمود باشا الذى كان معيناً بأمر من داود باشا • وقد أخذ عبدالله باشا يهاجم الحدود العراقية من جهة خانقين ، ثم توجه بعدئذ بقوة كبيرة نحو السليمانية بغية فتحها ، وكان الشاهزادة يدعمه من ورائه بجيش ضخم يضم خمسة عشر ألف فارس ، ثم انضم اليه من العراق كيخسرو بك رئيس عشيرة الجاف •

أرسل داود باشا الى السلطان في اسطنبول يعلمه بالخطر المحدق به ، فأجاب السلطان باعلان الحرب على ايران ، وبعث الى داود باشا نجدة من « الهايته » تتألف من خمسة آلاف ألباني • فأضاف داود باشا هذه النجدة الى قواته ووجهها مع أربعين مدفعاً نحو السليمانية بقيادة الكهية محمد أغا • وقد وصل الكهية بجيشه الى زنكباد في ايلول ١٨٢١ ، وبعد أن انتظر فيها أربعين يوماً تحرك على طريق كركوك نحو السليمانية ، وهناك على مقربة من السليمانية جرت معركة بين الفريقين أصيب فيها جيش الكهية بهزيمة شنعاء ، ويقال إن الهزيمة كانت مدبرة من قبل الكهية نفسه إذ كان قد اتفق سرا على ذلك مع الشاهزادة بعد أن وعده الشاهزادة بأن يعينه والياً على بغداد عند فتحها •

انفتح الطريق أمام الجيش الايراني بعد تلك الهزيمة ، فأخذ يتقدم نحو بغداد حتى وصل الى قرية « هبهب » ، وهي على مسيرة يوم واحد من بغداد ، فسار الرعب في بغداد وارتفعت الاسعار وأخذ المئات من الناس يهربون منها نحو الحلة والفلوجة[1] • ثم وصلت بعض طلائع الجيش الايراني الى خان بني سعد الذي يبعد عن بغداد بمسافة خمسة عشر ميلا ، وأيقن الكثيرون أن بغداد على وشك أن تسقط أو تقع تحت وطأة حصار عسير • وانتهزت الفرصة بعض العشائر المجاورة فأخذت تقطع الطرق

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ •

وتغير على القرى ، وقد تعرضت قرى الدجيل لمثل تلك الغارات[1] .

وفي تلك الآونة بالذات كان وباء الهيضة قد وصل بغداد ثم أخذ يسري نحو الشمال ، فانتشر في صفوف الجيش الايراني حتى أصيب به الشاهزادة نفسه ، وكان ذلك لداود باشا بمثابة فرج من السماء . وقد أدرك الشاهزادة أنه غير قادر على الاستمرار في الحرب فأرسل الى الشيخ موسى كاشف الغطاء يطلب منه التوسط لعقد الصلح مع داود باشا ، وكان الشيخ قد تولى الزعامة الدينية في النجف بعد وفاة والده الشيخ جعفر ، فجاء مع حاشيته الى بغداد ونجح في عقد الصلح بين الفريقين المتحاربين ، ولهذا اشتهر الشيخ موسى بين الناس بلقب « مصلح الدولتين » .

ولم يكد الشاهزادة يصل الى مقره في كرمانشاه حتى مات ، وحين وصل نبأ موته الى بغداد عم الفرح في الاوساط الحكومية إذ كان هذا الرجل مصدر إقلاق لحكومة بغداد ، وللدولة العثمانية كلها ، طيلة خمسة عشر عاماً[2] . وقد حاول حسين مرزا ابن الشاهزادة المتوفى — والذي خلف أباه في حكم كرمانشاه — أن يعيد الكرّة على العراق فأرسل جيشاً ضخماً لغزوه ، وتقدم الجيش الايراني عبر الحدود العراقية حتى وصل الى بلدة شهربان ، وكان الحاج طالب[3] يقود الجيش العراقي إزاءه ، غير أن وباء الهيضة بدأ يهدد الجيش الايراني كما فعل في المرة الاولى مما اضطره الى الانسحاب من العراق والعودة الى ايران .

وفي عام ١٨٢٢ عقد مؤتمر أرضروم وفيه تم الصلح بين الدولتين الايرانية والعثمانية حيث اتفق الفريقان على تسوية القضايا التي كانت تثير

---

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص ١٤٧ .
(٢) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص ١٧٤ .
(٣) تولى الحاج طالب منصب الكهية بعد محمد أغا الذي التحق بالجيش الايراني ، وهو والد سليمان فائق و جدّ حكمت سليمان .

الخصومة بينهما كقضية الحدود وضرائب التجار ومعاملة الزوار الذين يقصدون العتبات المقدسة[1] • وبهذا استراح داود باشا من مشكلة كبرى كانت تقض مضجعه دائماً •

مسيو ديفو :

بعد أن اطمأن داود باشا من زوال الخطر الايراني بدأ يهتم بتقوية الجيش وتدريبه على النظم الحديثة ، وكأن الحرب الاخيرة قد علمته درساً بليغاً حيث أدرك به قيمة النظم الحديثة في تشكيل الجيوش • وكان أول عمل قام به هو استقدام ضابط فرنسي اسمه المسيو ديفو للعمل من أجل هذا الغرض •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن المسيو ديفو كان من ضباط نابليون الذين تركوا فرنسا بعد سقوط رئيسهم ، وكان قبل استدعائه من قبل داود باشا يعمل في تدريب جيش الشاهزادة في كرمانشاه ، وهو يشبه في ذلك ضابطاً نابليونياً آخر اسمه المسيو سيف كان قد استخدمه محمد علي باشا في تدريب جيشه في مصر وهو الذي اشتهر فيما بعد باسم « سليمان باشا » •

كان مسيو ديفو كما وصفه أحد الذين شاهدوه : « رجلاً فارع الطول ، نحيف القوام ، وفي الستين من عمره ، وهو أسمر الادمة بسبب تعرضه لشمس الشرق طويلا ، ويعلو شفته العليا شاربان أبيضان كثيفان ، وعلى عينيه حاجبان كثيفان أيضاً • إن بزته تشعرك بأنه عسكري فرنسي حق ، وأزرار سترته مزينة بالتاج الانبراطوري والحروف الاولى من اسم نابليون ، ويتدلى من ثقب الزر صليب لويس المرغوب ، وسراويله التركية الواسعة تدل على السلك العسكري التركي الذي يخدم فيه الآن •

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٩ ـ ١٨٢ •

وتعلو رأسه قبعة صغيرة تميل نحو أذنه اليسرى »[١] ٠

نشط المسيو ديفو في تدريب الجيش العراقي ، وفي تكثير عدده ، وتمرينه على الاسلحة الحديثة ٠ وقد ســاء ذلك المستر تيلــر القنصل البريطاني إذ لم يهن عليه أن يرى ضابطاً فرنسياً يتولى مثل هذه الوظيفة في العراق بينما كان يطمع أن يتولاها ضابط بريطاني[٢] ٠

واشترى داود باشا مصنعاً للبنادق من أوربا وجلب الفنيين لادارتها ، كما أسس مصانع المنسوجات لتفي بحاجات الجيش ، ورصــد المرتبات المنتظمة للجنود لكي تغنيهم عن فرض الاتاوات على الرعية حسب عادتهم القديمــة ٠

تقليد محمد علي :

يبدو أن داود باشا جعل من محمد علي باشا والي مصر قدوة له ، وحاول تقليده لاسيما من حيث ادخال المخترعات الاوربيــة الحديثــة في البلاد ٠ كتب المبشر البريطاني غروفز الذي كان يسكن بغــداد يومذاك يقول : « كل شيء كان يدل على تغلغل النفوذ الاوربي ٠٠٠ ولم يكن هذا الاتجاه في استعمال الاساليب الاوربيــة والتحسينات بارزاً في الشــؤون العسكرية فحسب ، بل في أمور أخرى أكثر أهمية منها ٠ فقد كانت رغبة الباشا عظيمة في ادخال الملاحة البخارية في هذين النهرين الجميلين ٠٠ واني أشعر في الحقيقة بأن الباري ســبحانه وتعالى قــد أدخل انقلابات عظيمة في قلب هذه الامة »[٣] ٠

قيل إن من جملة الامور التي استحدثها داود باشا في العراق هو أنه

(١) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ترجمــة فؤاد جميــل ومصطفى جواد ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ج٢ ص ١٤٠ ٠

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (المصدر السابق) ص ٣٢٢-٣٢٣ ٠

(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٦٣ ٠

أصدر أول جريدة في بغداد باسم « جرنال العراق » ، فكانت تطبع في مطبعة حجرية باللغتين العربية والتركية ، وتوزع على قواد الجيش وكبار الموظفين وأعيان المدينة ، كما تعلق نسخ منها على جدران السراي ، وكانت تحتوي على وقائع العشائر وأخبار الدولة العثمانية وأوامر الوالي والاصلاحات الواجب اجراؤها وما أشبه[١] .

من الممكن القول إن داود كان مفتوح الذهن تجاه كل اختراع نافع مهما كان مصدره . يروى أن رجلاً ايرانياً خبيراً بصنع الآلات اسمه المرزا عبدالمطلب جاء الى بغداد وتعهد لداود باشا بأن يصنع « طلومبة » ترفع الماء من النهر ويستغنى بها عن البكرات المعتادة التي تسمى بـ « الكرود » . وقد اهتم داود باشا بأمره وخصص له عدداً من الحدادين والعمال ليساعدوه في صنع الآلة ، وبعد مدة وجيزة أتم المرزا صنعها فسميت « جرخ يوسف » نسبة الى طورسون يوسف بك ابن داود باشا ، وخرج أهل بغداد يتفرجون عليها ويتعجبون . وقد أنعم داود باشا على المرزا بخلعة ومال جزيل وأمره أن يقيم في بغداد لكي يتعلم الناس الصنعة منه وأجرى له مرتباً[٢] . ويرجح في ظني أن تلك الآلة هي التي عرفت في العراق بعدئذ باسم « الناعور » ، وانتشرت في بعض المناطق منه انتشاراً واسع النطاق .

مشاهدات سائح :

في شهر آذار من عام ١٨٢٤ وصل الضابط البريطاني جورج كيبل مع رفاق له الى بغداد ، وقد سجل لنا في مذكرات رحلته صوراً طريفة عن المجتمع البغدادي وعن شخصية داود باشا ننقل بعضها فيما يلي على سبيل الايجاز .

---

(١) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ١٩٥٥ ـ ص١٠ .
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

وصل كيبل ورفاقه الى بغداد من الجنوب عن طريق دجلة ، ويقول كيبل ان ملابسهم الغريبة لفتت أنظار الناس الذين كانوا واقفين على سيف النهر ، وكان بينهم عدد من النسوة ولكنهن لم يجسرن على رفع النقاب عن وجوههن ، ومنهن من رفعن الصوت عالياً • وعندما وصلت السفينة الى مقربة من باب بغداد استقبلهم قواسان من قواسي القنصلية البريطانية وطلبا منهم أن يتريثوا في أماكنهم الى أن يأتي موكب الاستقبال لكي يرافقهم الى دار القنصلية • يقول كيبل إنه لم يشأ أن يستجيب لطلبهما وقرر هو ورفاقه المشي على الاقدام في داخل بغداد فحملق القواسان فيه دهشة اذ هما لم يستطيعا أن يتصورا رجلا بريطانياً يهين كرامته ويمشي في الشوارع على قدميه • وقد وصل الموكب بعد ساعة وهو يضم خيلاً عليها أغطية من القطيفة المزركشة بالفضة ولها أعنة مزينة على أحسن وجه ، فامتطى كيبل ورفاقه ظهور الخيل وساروا في الشوارع يتقدمهم أحد القواسين ممتطياً صهوة جواده وبيده عصاه الرسمية وهي من فضة وفي رأسها كرة موشاة مزركشة بثقوب[١] •

ان هذا يدل على مبلغ اهتمام القنصلية البريطانية بمظاهر الابهة والفخفخة ، وهي المظاهر التي كان « المرحوم » ريج يحرص عليها كل الحرص على نحو ما أسلفنا القول فيه ، وقد ظل خليفته تيلر مستمراً على الاهتمام بها • والواقع أن أي رجل ذي مكانة لا يستطيع أن يستغني عنها في مثل تلك الظروف • فقد اعتاد الناس على رؤية الكبراء يركبون الأفراس المطهمة وتحيط بهم المواكب والحاشية والعبيد ، وكلما تضخمت مظاهر الأبهة حول الرجل ارتفعت منزلته في نظر الناس ، ولا تزال بقية من تلك العادة موجودة تؤثر في أعماق النفوس حتى يومنا هذا •

وزار كيبل مع رفاقه داود باشا في السراي ، وذكر كيف استقبلهم

(١) ريجارد كوك (المصدر السابق) ص ١٣٨ ــ ١٣٩ •

أولاً – على مبعدة من السراي – وفد الانكشارية ، حتى اذا دخلوا ساحة السراي الفسيحة وجدوا فيه جنود الباشا مصطفين ، وعند مرورهم بباب السراي الثانية استقبلهم ضباط الباشا ثم مروا بصفين من الانكشارية وهم واقفون مكتوفي الايدي لا يبدون حراكاً . وكانت قاعة الاستقبال شرقية الأثاث ومزينة بعدد كبير من المرايا المثلثة فكان منظرها باهراً عجيباً ، وكان داود باشا جالساً في أحد أركان القاعة متكئاً على وسائد ...

ووصف كيبل داود باشا فقال : إنه رجل تظهر عليه امارات الطيبة ، وعمره بين أربعين وخمسين سنة ، وهو ذو خلق جذاب . ولكن كيبل يعود فيقول : إن ببغداد اشاعة تدور مفادها أن ضحايا طموح داود باشا وطمعه بلغ عددهم ألفاً وخمسمائة شخص على الأقل ، « وقد حاولت في أثناء المقابلة أن اكتشف من خلال سحنته اللطيفة أثراً لمثل هذه الجريمة الفظيعة ، ولكن ذلك كان من غير جدوى »[1] .

اجتذاب العلماء والادباء :

تميز عهد داود باشا بكثرة ما بُني فيه – أو جُدِّد بناؤه – من المساجد والمعاهد الدينية ، قيل إنها بلغت ثمانية وعشرين معهداً . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن أم داود باشا التي كانت تسكن تفليس سمعت بما كان ابنها يبني من معاهد اسلامية فصارت هي من جانبها تبني معاهد مسيحية كالبيع والديارات[2] . والظاهر أنها – وهي المسيحية المخلصة – أرادت أن تستغفر ربها لنفسها ولابنها فأخذت تفعل ما يرضي ضميرها الديني تعويضاً عما كان يفعله ابنها الذي اعتنق الاسلام .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٩ – ١٤١ .

(٢) انستاس ماري الكرملي ، في كتاب عبدالقادر الشهرباني (المصدر السابق) ص ٦ .

ولم يكتف داود باشا ببناء المعاهد الدينية ، بل أخذ أيضاً يجتذب اليه الشعراء والمؤلفين والفقهاء وأرباب الطرق الصوفية ، ويغدق عليهم النعم والجوائز . يقول الشيخ رسول الكركوكلي ، وهو أحد المؤلفين الذين غمرهم داود باشا بفضله : « وأخذ العلماء من جانبهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤدون واجباتهم بفخر واعتزاز وحمية ، وكثر منهم الوعاظ ينصحون ويرشدون ويرغّبون ويرهّبون ، ويوجهون عباد الله الى الجادة المستقيمة والى التمسك بالأخلاق وتقوى الله والتحلي بالآداب ومحاسن السلوك والعادات ، وقد انطلقت ألسن الشعراء بمدح الوزير والثناء على أعماله بمختلف اللغات ، وقد جمعتُ هذه القصائد والمدائح في مجموعة سأبرزها للناس في كتاب على حدة . ولقد كان لشقيقي خضر أفندي والأربللي عبدالله أفندي القدح المعلى في هذا الباب ، ونالا من لدن الوزير ما يليق بهما من الاكرام لشعورهما الفياض ، وخصص للاول راتباً شهرياً قدره ثلاثة آلاف قرش ، وعيّن الثاني حاكماً على أربيل وهو كل ما كان يصبو اليه ويتمناه »[١] .

يعتبر عصر داود باشا بداية اليقظة الحديثة في الأدب العراقي[٢] ، وقد ارتفع فيه اسلوب الشعر وأخذ ينمو نمواً جديداً ، ونبغ شعراء كانوا قادة الشعر العراقي خلال القرن التاسع عشر كعبدالغفار الأخرس وصالح التميمي وعبدالباقي العمري وعثمان بن سند البصري[٣] . وهذا في الواقع نتيجة طبيعية لما كان داود باشا يغدقه على الشعراء من مكافآت مغرية . أضف الى ذلك أن داود باشا نفسه كان يتذوق الشعر ويطرب

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٢٧٩ .

(٢) داود سلوم (تطور الفكرة والاسلوب في الادب العراقي) ـ بغداد ١٩٥٩ ـ ص ٩ .

(٣) يوسف عزالدين (الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر) ـ بغداد ١٩٥٨ ـ ص ٥٥ .

له لانه أمضى شطراً كبيراً من حياته في دراسة اللغة العربية وآدابها أثناء طلبه العلم في جامع الشيخ عبدالقادر •

الجانب الآخر :

يجب أن لا ننسى أن داود باشا في الوقت الذي كان فيه يغدق الأموال على العلماء والأدباء كان من الجانب الآخر يقسو على الرعية في الجباية ويجور عليهم بشكل غير مألوف • وصفه سليمان فائق الذي كان معاصراً له في أيام صباه فقال : « ومما يؤسف له كثيراً أنه في زمن حكومته حصل منه حيف وظلم في أمور كثيرة فلم يخل من أن ينعت به ، ولم يكن كريماً سخياً ، وتجاوز الحد في جلب المال وادخاره فأفرط ، ولا تزال الرسوم التي طرحها على بغداد يئن من ثقلها الأهلون ، فاستمر أخلافه على استيفائها مع أنها لم تكن معروفة قبله ولا مسموعاً بها »[1] •

ووصفه مؤرخ آخر فقال : « ••• وأما وقائعه فما تذكر لقبحها ولمزيد ظلمه ••• وليس له مادة حسنة كي يعتني المؤرخون بذكرها حتى لو أننا نذكر من تعديه على عباد الله لأفضى الى كفره وانكاره • أسس أشياء من الظلم ما تخطر على قلب فرعون وكان بخيلاً جداً مع زيادة أمواله ، يغصب الناس أموالهم ظلماً وعدواناً ••• كان يغصب أموال الناس بواسطة حاج أفندي الكردي ••• »[2] •

ويتفق المؤرخون الغربيون مع الشرقيين في هذا الوصف الذي وُصف به داود باشا • فقد قال عنه لونكريك : إن كرمه كان مصحوباً بجشع مسنون[3] • وقال كوك : « ولقد كلف الازدهار الظاهري الذي اتسمت به الادارة مبلغاً كبيراً من النفقات ، وتراءى البذخ في السراي

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٣٣٠ •
(٢) المصدر السابق ، ج٦ ص ٣٣١ •
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٣٩ •

لشعب يزداد عيلة على إملاق ، وداست الضرائب عمال المدينة الفقراء ، وكانت شديدة الوطأ إلا على رجال القبائل الثائرين الذين كانوا يتهربون منها ... » . وأشار كيبل الى أن داود باشا كان يعمد الى المبايعات في السوق بين حين وآخر ، وأنه خفض قيمة العملة الى النصف(١) .

ويروي السائح الفرنسي فونتانيه قصة لا ندري مبلغ صحتها ، انما هي على أي حال تنسجم مع ما عُرف عن داود باشا من استهتار بالرعية وأموالها . وخلاصة القصة أن أخاً لداود باشا ـ وهو غير الأخ الاول « جيو » الذي أشرنا اليه سابقاً ـ جاء الى بغداد أثناء ولاية أخيه واعتنق الاسلام فأعطاه أخوه داراً ومالاً ورتب له خداماً ثم اشترى له من السلطان رتبة « مير ميران » فصار اسمه « حسين باشا » . ولما نفد ما عنده من المال ـ اذ كان سكيراً ـ ذهب الى أخيه داود باشا يطلب منه نقوداً ، فصرخ أخوه في وجهه قائلاً « تطلب نقوداً ولا تعرف أن تحصل عليها ! ألست أخاً لداود باشا ! أليس هناك من يمكن أن يدخلك منه المال ! » ، فخجل « حسين باشا » من غباوته وبدا له أن يستفيد من كلام أخيه فقبض على يهودي وأخذ يضربه بالعصا ضرباً مبرحاً ثم سلبه كل ما يملك ، وصار يعاود مثل هذا العمل مرة بعد أخرى ، مما اضطر أخاه أن يبعده عن بغداد فعينه حاكماً على البصرة . وهناك في البصرة أخذ « الأخ الكريم » يحاول الاستيلاء على أموال الناس معتقداً أن هذا حقه ، ولكنه أخفق فاستولى على أملاك الحكومة ، بل على أملاك أخيه ، وقد وجد سفينة مغشاة بنحاس فنزعه عنها لبيعه . وهكذا فعل بالسفن التي كانت في الميناء . وحذراً من أن تؤدي هذه المعاملة الى ثورة أستدعى الى بغداد(٢) .

وكان داود باشا بالاضافة الى ذلك يميل الى حياة الترف والمظاهر

---

(١) ريجارد كوك (المصدر السابق) ج٢ ص ١٣١ ، ١٣٩ـ١٤٠ .
(٢) يعقوب سركيس (المصدر السابق) ج٢ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ .

الباذخة . وقد ذكر السياح الذين شاهدوا السراي الذي شيده داود باشا في بغداد أنه كان ينافس في الفخامة سراي اسطنبول[١] . وأشار السر كير بورتر الى أن ترف داود باشا كان على طرف نقيض مع فقر الناس وشقائهم في بغداد ، ففي ولائمه وملاهيه يتردد ذكر صحون وملاعق الذهب والأكواب النادرة ومناديل الحرير والموسلين المطرز وأباريق الفضة والعطور[٢] .

فذلكة اجتماعية :

يتضح مما ذكرناه آنفاً أن داود باشا كان من طراز السلاطين القدامى أرباب « العصور الذهبية » المعروفة ، إذ هو يقسو على الناس في جباية المال ثم يمنح جزءاً مما يجبيه الى العلماء والادباء . وهذه طريقة ناجحة عملياً وان كانت في حقيقتها مخالفة للشرائع الدينية ولما يقتضيه مبدأ العدالة الاجتماعية .

ان الحاكم حين يغدق الأموال على العلماء والادباء يكسب بهم ألسنة بارعة تنطق بمديحه ، فهم يأخذون بالتغني بمناقبه في مؤلفاتهم وقصائدهم . أما جماهير الناس وهم الذين يرزحون تحت وطأة الاغتصاب والظلم فليس لديهم من ينطق بلسانهم أو يدافع عنهم ، وكثيراً ما يتأثرون هم أنفسهم بما يذيعه الادباء والعلماء في مدح الحاكم فيصدقون به ، وينسبون المظالم التي حلت بهم الى القضاء والقدر أو يعللونها بأنها عقوبة من الله على ذنوبهم .

ان « القلميين »[٣] هم الذين يصنعون الأفكار وينشرونها بين

---

(١) ريجارد كوك (المصدر السابق) ج٢ ص ١٣١ .

(٢) داود سلوم (المصدر السابق) ص١١ .

(٣) ان هذا اصطلاح اتخذته موقتاً لتعريب لفظة (Publicists) الانكليزية والتي تعني الكتاب والادباء والشعراء والفنانين والفقهاء وغيرهم من أصحاب صناعة القلم .

الناس ، وفي مقدورهم أن يجعلوا الأبيض أسود ، والاسود أبيض ، فاذا استرضاهم الحاكم واجتذب قلوبهم بجوائزه ومجاملاته صار في نظرهم أعدل خلق الله طراً وأفضلهم وأزكاهم ، أما اذا أهملهم أو أغضبهم فالويل له عندئذ « من الله والناس أجمعين » .

إن الحاكم الذي يريد أن يسير في سياسته على طريقة علي بن أبي طالب فيساوي بين الناس في العطاء لابد أن يكون مصيره الفشل ، ذلك لأن « القلميين » القادرين على توجيه الرأي العام سينفضون عنه ويذهبون الى خصمه وقد يندفع وراءهم جماهير الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

إننا حين نرى « القلميين » في عهود متأخرة يحبون علياً ويمدحونه يجب أن لا ننسى أنهم لو كانوا في زمانه لفعلوا العكس من ذلك ، ودليلنا على هذا هو أنهم ظلوا دائبين على مدح سلاطين زمانهم ، وكلما ازدادت جوائز أولئك السلاطين لهم ازدادوا هم من جانبهم في تدبيج أفانين المديح .

مشيئة القدر :

دام حكم داود باشا في العراق زهاء خمسة عشر عاماً وهي مدة تساوي عدد اسمه في حساب الحروف كما يقول سليمان فائق[1] . وكان في وسع داود باشا أن ينال الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وأن يؤسس ملكاً له ولأسرته من بعده ، على منوال ما فعل محمد علي باشا في مصر . فهو قد أدرك طبيعة المجتمع العراقي وكيف يسوس الناس ، واستطاع كذلك أن يعدّ جيشاً مدرّباً لا يستهان بقوته ، غير أن الظروف عاكسته أخيراً فهدمت الحلم الذي كان يراوده طويلاً .

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المماليك في بغداد) ـ ترجمة محمد نجيب أرمنازي ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص ٥١ .

ليس في هذه الدنيا بشر يخلو من الأخطاء ، والخطأ البشري قد يكون في بعض الأحيان بسيطاً ولكنه قتال يودي بصاحبه • وقد اقترف داود باشا خطأً من هذا الطراز في عام ١٨٣٠ حين تورط في قتل المبعوث الذي أرسله السلطان اليه ـ على نحو ما سنذكره في الفصل القادم ـ مما جعله يدخل في مشكلة مع السلطان كانت القاضية عليه • والظاهر أنه اغتر بنفسه وبقوته فتسرع في عمل كان هو في غنى عنه ، ولو أنه صبر قليلاً فلم يتسرع في قتل المبعوث السلطاني لانتهت الأمور حسبما يروم من تلقاء نفسها •

إن محمد علي باشا استطاع في عام ١٨٣٢ أن ينزل بالجيوش العثمانية ضربات ماحقة ، وكاد جيشه أن يصل الى مقربة من اسطنبول بقيادة ابنه ابراهيم ، ولو كان داود باشا أثناء ذلك لا يزال حاكماً في العراق لتمكن من التعاون مع محمد علي باشا على تحقيق هدفهما المشترك، ولربما تغير من جراء ذلك مجرى التاريخ في العراق وبعض البلاد العربية الأخرى • وقد صدق من قال : « تقدرون وتضحك الاقدار ! » •

الفصل العاشر

نهاية الانكشارية والمماليك

منذ منتصف القرن الثامن عشر بدأت عاصمة الدولة العثمانية تشهد صراعاً عنيفاً بين المحافظين والمجددين ، هؤلاء يريدون السير في تيار الحضارة الحديثة وأولئك يعدون ذلك كفراً • وهذه هي أول مرة يحدث فيها مثل هذا الصراع في العالم الاسلامي ، ثم أخذ الصراع يمتد بعدئذ وينتشر في مختلف البلاد الاسلامية شيئاً فشيئاً •

إن السبب الذي جعل اسطنبول تسبق البلاد الاسلامية كلها في هذا الشأن هو أنها مدينة ذات موقع جغرافي عجيب ، إذ هي تقع وسطاً بين الشرق والغرب ، فتستمد من الشرق تراثها القديم بينما هي تتلقى من الغرب التيار الحديث • ومن الطبيعي اذن أن يحدث الصراع بين هذين الاتجاهين فيها على وجه من الوجوه •

كانت قضية التعليم العسكري من أوائل القضايا التي ثار حولها الصراع بين المحافظين والمجددين في اسطنبول ، وقد برزت هذه القضية للوجود عندما أدرك ساسة الدولة العثمانية أنهم يجب أن يواكبوا الحضارة الأوربية بعلومها وفنونها لكي يستطيعوا السير في مضمار الحياة الحديثة ، وكان هذا الادراك قد اتضح لديهم حين وجدوا جيوشهم غير قادرة أن تصمد تجاه الجيوش الأوربية في المعارك وأنها كانت تصاب في معظم الاحيان بالهزائم المنكرة •

من أهم خصائص الدولة العثمانية أنها قامت في بداية أمرها ـ كما رأينا في فصول سابقة ـ على أساس العصبية الدينية والجهاد في سبيل الله ،

وهي قد نجحت في ذلك نجاحاً عظيما حين كانت الحروب تعتمد بالدرجة الأولى على الحماس والعصبية • ولكن طبيعة الحروب قد تغيرت في العصر الحديث حيث أصبحت تقوم على العلم والتقنية أكثر مما تقوم على الحماس والعصبية • ومن هنا انبعثت المشكلة التي أخذت الدولة العثمانية تعانيها في عهودها الأخيرة •

أشرنا في فصل سابق الى مبلغ اهتمام السلاطين العثمانيين بالمدافع – في بداية اختراعها – حتى تفوقوا بها على جميع الدول التي دخلت في حرب معها ، ولكننا يجب أن لا ننسى هنا أن استعمال المدافع لم يكن في ذلك الحين بالأمر العسير ، فقد يكفي فيها أن تكون ضخمة ذات قنابل كبيرة ، ثم تُصوب على الأسوار أو الجيوش تصويباً تقريبياً ، لتحدث الأثر المطلوب • إن هذا لم يعد كافياً بعد أن تطورت فنون المدفعية لدى الدول الأوربية وبدأ استخدام أحدث النظريات الرياضية وجداول اللوغارتمات فيها ، ولهذا كانت المدافع الأوربية تنزل بالجيوش العثمانية خسائر فادحة من مسافات بعيدة دون أن تتمكن المدافع العثمانية من الرد عليها •

من أحداث الصراع :

كان أول السلاطين العثمانيين الذين حاولوا إصلاح الجيش وتدريبه على الفنون الحديثة هو السلطان مصطفى الثالث الذي تولى الحكم في عام ١٧٥٧ ، فقد أخذ يستعين ببعض الخبراء والضباط الاوربيين لتدريب الجنود على الأساليب العسكرية الحديثة ، وكان ذلك ايذانا بظهور المعارضة ضده إذ هب الانكشاريون ينتقدون هذا الاتجاه الجديد ويستنكرونه ، وصاروا يقولون : إن ولي الله الحاج بكتاش قد بارك جماعة الانكشارية عند تأسيسها ودعا لهم بالنصر الدائم ، ولهذا فان بركته ودعاءه يغنيهم عن كل تعليم[١] •

---

(١) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) – بيروت ١٩٦٠ – ص ٧٧ ·

واشتدت معارضة الانكشاريين في عهد السلطان سليم الثالث الذي تولى الحكم في ١٧٨٩ ، فقد كان هـذا السلطان بمزاجه وتدريبه من المصلحين ، وشرع بسلسلة من الأعمال الاصلاحية في مختلف أجهزة الدولة ، فأوقف سوء الاستعمال في أمور الاقطاع ، وألغى طريقة « الالتزام » في جباية الضرائب ، وشجع الطباعة وترجمة الكتب من اللغات الأجنبية ، وأرسل البعثات الى أوربا[١] . ولكن العمل الذي أحنق الانكشاريين أكثر من غيره هو أن السلطان أدخل في الجيش ما يسمى ب « النظام الجديد » وهو نظام يقوم على أساس التعليم العسكري وفق الأساليب الأوربية ، فقد هب الانكشاريون لمقاومة هذا النظام ، يؤيدهم المتعصبون من رجال الدين ، وأخذوا يشنّعون عليه بما مفاده أن التعليم العسكري من الأمور التي لم يعرفها الاسلام وأن الفتوحات الاسلامية كلها تمت من غير تعليم ، وذلك علاوة على أن النظام الجديد بدعة وكل بدعة حرام ، وأنه من بدع الكفار وأن الأخذ به يؤدي الى التشبّه بهم وقد منع الاسلام من ذلك إذ قال : إن من تشبّه بقوم فهو منهم[٢] .

وفي عام ١٨٠٧ ثار الانكشاريون على السلطان سليم فحاصروه في قصره ، ثم استحصلوا فتوى شرعية هذا نصها : « هل يحق للسلطان ، الذي يحارب مسلكه وأنظمته القواعد الدينية المقدسة التي نص عليها القرآن الكريم ، البقاء على العرش ؟ الجواب : كلا » . فخلعوا السلطان بناءاً على هذه الفتوى ، ثم قتلوه بعدئذ ، ونصبوا مكانه سلطاناً جديداً يلائم رغباتهم . ولكن دعاة الاصلاح قاموا بثورة مضادة برئاسة مصطفى باشا البيرقدار فزحفوا على العاصمة واستولوا على الحكم ثم نصبوا على العرش

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٧٩ .

شاباً يبلغ من العمر السادسة عشرة هو السلطان محمود الثاني الذي قدر له أن يكون من أعظم سلاطين آل عثمان وأكثرهم تأثيراً في مجرى التاريخ العثماني .

السلطان محمود الثاني :

هناك مقياسان لقياس عظمة الرجال : أحدهما ينظر الى كفاءة الرجل وقوة شخصيته قبل أن ينظر الى مدى نجاحه الفعلي في الحياة ، بينما الآخر يفعل العكس من ذلك إذ هو يقيس الرجل بأعماله الناجحة ويغض النظر عن مواهبه الشخصية . ونحن إذ نريد دراسة سيرة السلطان محمود حسب المقياس الاول نجده عظيماً من غير شك . يصفه المؤرخ كريسي فيقول : إنه كان في الغالب محاطاً بالظروف السيئة ولكنه لم يتخاذل إزاءها أو يترك الكفاح ، وإن ذكراه تستحق الاحترام لدى أولئك الذين يقيسون عظمة الرجل حسب بعد نظره وجهوده الفعالة دون أن يكترثوا لنجاحه أو فشله اللذين يخضعان للظروف[1] .

تولى السلطان محمود العرش في ٢٨ تموز من عام ١٨٠٨ ، وجعل مصطفى باشا البيرقدار وزيره الأعظم ، وقد عمل هذا الوزير بنشاط في سبيل اصلاح الجيش وفي القضاء على عناصر الشغب والفوضى فيه . وقد سكت الانكشاريون ورجال الدين المؤيدون لهم في بداية الأمر ، حيث أظهروا الموافقة على ما جرى ، ولكنهم في ١٤ تشرين الثاني أعلنوها ثورة شعواء ثم أحاطوا بدار الوزارة فأضرموا النار فيها مما أدى الى موت الوزير فيها حرقاً . وانتشرت الفتنة في أنحاء اسطنبول واشتد القتال بين الانكشارية وجنود السلطان ، واشتعلت النيران في عدة مناطق من المدينة كما انفجرت المستودعات العسكرية الضخمة المليئة بالعتاد والبارود .

---

(1) Edward Creasy (History of Ottoman Turks) — Beirut 1961 — P. 492.

واضطر السلطان محمود تجاه ذلك أن يصـــدر فرماناً يعلن فيه إلغـاء « عادات الافرنج » التي استحدثت في نظام الجيش ، ويشجبها ويلعنها ، ثم أعاد كل قديم على قدمه •

يبدو أن السلطان محمود فعل ذلك لكي يعطي لنفسه مهلة يستطيع أن يتهيأ بها للكفاح من جديد وفي ظروف أفضل • وفي رأي المؤرخ محمد فريد : أن السلطان اضطر للاذعان لطلبات الانكشـارية لكي يتمكن من إنقاذ اسطنبول من الدمار العاجل اذ هي كادت تقع كلها طعمة للنيران في ذلك الوقت[1] •

إبادة الانكشاريين :

ظل السلطان محمود يترقب الفرصة لضرب الانكشاريين • وفي عام ١٨٢٦ ـ أي بعد ثمانية عشر عاماً من توليه الحكم ـ وجد الفرصة سانحة اذ كانت سمعة الانكشاريين قد وصلت إذ ذاك الى الحضيض من جـراء الهزائم المتتابعة التي لحقت بهم في حروب البلقان وأوربا الشرقية •

وضع السلطان خطة متقنة لابادة فرقهم الموجودة في اسطنبول ، وقد بدأ الخطة باستحصال فتوى شرعية مؤداها أن الجيش الاسلامي يجب أن يخضع للتدريب المنظم لكي يتمكن من مقاتلـة الكفار ، ثم أوعز بفرض التدريب على بعض الفرق الانكشارية • ولم يهن على الانكشـاريين ذلك طبعاً فاجتمعوا كلهم في أحد الميادين وأعلنوا الثورة على السلطان ثم تقدموا بجمعهم نحو السراي • وكان السلطان قد استعد لهم إذ نصب في مكان ما عدداً من المدافع تحت قيـادة رجل يعتمد عليه اســـمه ابراهيم ويلقب بـ « قره جهنم » ـ أي جهنم السوداء ـ وقد استقبل ابراهيم هذا حشـــود الانكشاريين بقصف مركز من مدافعه بحيث صاروا كأنهم في جهنم فعلاً •

(١) محمد فريد (تاريخ الدولة العلية العثمانية) ـ القاهرة ١٩١٢ ـ ص ١٩٩ •

فتراجعوا نحو ثكناتهم بعد أن سقط منهم كثير من القتلى ، ولكن ابراهيم لاحقهم وأخذ يصب قنابله على ثكناتهم فهدمها وأشعل النار فيها • خرج منهم بعض الشجعان وبأيديهم السيوف غير أنهم قُتلوا قبل أن يفلحوا في الهرب • وحاول قليل منهم طلب الرحمة دون جدوى • وفي النهاية لم يسلم من الانكشاريين أحد • فكانت مذبحة منظمة دبرت باتقان[1] •

وجرت في كثير من المدن التركية الأخرى مذابح للانكشاريين تشبه مذبحة اسطنبول ولكن على نطاق أضيق • وأرسل السلطان الى الولاة في جميع أنحاء المملكة يأمرهم بالغاء الجيوش الانكشارية في مناطقهم وباحلال « النظام الجديد » محلها •

ضربة البكتاشية :

بعد الانتهاء من إبادة الانكشاريين توجه السلطان محمود نحو الطريقة البكتاشية يريد تقليم أظافرها باعتبارها مباءة الانكشاريين وركيزتهم الروحية ، فاجتمع رجال الدين مع مشايخ الطرق الصوفية الأخرى - بايعاز من السلطان - وأفتوا بأن التعاليم البكتاشية مخالفة للشريعة الاسلامية ، واستند السلطان على هذه الفتوى فأمر بهدم التكايا البكتاشية الموجودة في اسطنبول ، وتسويتها بالأرض ، ومصادرة الكتب الموجودة فيها • وأخذت الاشاعات على اثر ذلك تنتشر بين الناس حول زندقة البكتاشيين واستهانتهم بالقرآن حتى قيل إن المصحف في تكاياهم كان موضوعاً في أماكن غير لائقة ، وإن الأباريق كانت مغطاة بأوراق منه •

وتقرر أن يُقتل بعض مشايخ البكتاشية ويُبعد الآخرون الى أماكن نائية ، وعند هذا بدأت الوشايات تروج بين الناس إذ صار يستعملها كل من له خصم يريد التخلص منه • وفي رأي المؤرخ التركي جودت باشا أن

---

(1) Edward Creasy (op. cit.) P. 504 — 505.

كثيراً من الناس أُبعدوا بتهمة انتمائهم الى الطريقة البكتاشية وهم أبرياء منها • وتحولت أملاك البكتاشيين الى الطريقة النقشبدية[1] •

مصيرهم في العراق :

كان الفرمان السلطاني بإبادة الانكشاريين قد وصل الى بغداد في أواخر الصيف من تلك السنة • يقول لونكريك : إن والي بغداد داود باشا أخفى الأمر مؤملاً حلول فرصة يجدد فيها ولاءه وطاعته للسلطان ويحسّن علاقته به ثم يقضي على القوة الوحيدة الموجودة في ولايته من غير أن تكون تابعة له[2] •

وفي يوم معين جمع داود باشا الانكشاريين في ساحة السراي ــ وكانوا ثمانية عشر سرية ــ وكان قد أعد جنوده من المماليك وما يلزمهم من المدافع للسيطرة على الساحة • ثم أوعز بقراءة الفرمان السلطاني ، فقوبل الفرمان بدهشة شديدة ووجوم • وفي هذه اللحظة الدقيقة بدرت من داود باشا بادرة لم تكن متوقعة منه ، فهو بدلاً من أن يأمر باطلاق الرصاص أخذ يخاطب الانكشاريين الموجودين في الساحة بلهجة مؤثرة ــ والدموع تترقرق في عينيه ــ طالباً منهم أن يطيعوا أمر السلطان وأن ينخرطوا في نظام الجيش الجديد الذي أسسه السلطان • ولم يكد الانكشاريون يسمعون ذلك منه حتى نزعوا من على رؤوسهم « القلبق » دليلاً على الطاعة وأخذوا يتهافتون على تسجيل اسمائهم في النظام الجديد • وقد جرى مثل ذلك في الحلة والبصرة وغيرهما من مدن العراق •

وكان للبكتاشية تكية في محلة الجعيفر في جانب الكرخ من بغداد ، فأوعز داود باشا باخلاء التكية منهم ، وقد كُلّف السيد طه الحديثي

(1) John Kingsley Birge (The Bektashi Order of Dervishes) — Bristol 1937 — P. 77—78.

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٦١ ــ ٢٦٢ •

بالقيام بادارة التكية غير أنه عُزل عنها بعد أيام قلائل إذ اتهم بأنه منهم • ويعلق ابن سند البصري على ذلك قائلاً : « فبعد أن كانت التكية ملعنة للصحابة أصبحت دار الحديث »[1] •

بداية النزاع مع داود باشا :

بعد أن فرغ السلطان محمود من أمر الانكشاريين والبكتاشيين التفت الى أمر المماليك في بغداد ، والظاهر أن التقارير التي وردت اليه من بغداد دلت على أن داود باشا لم يكن صادق النية في القضاء على الانكشاريين طبق الأوامر التي صدرت اليه •

وفي سنة **١٨٢٨** لاحظ السلطان في داود باشا تقصيراً واضحاً في تنفيذ أوامره ، ففي تلك السنة كانت روسيا قد أعلنت الحرب على الدولة العثمانية تأييدا لثورة اليونان ، ونُودي بالنفير العام في جميع الاقطار العثمانية وطُلب من كل وال أن يقدم للدولة معونة مالية حسب قدرته ، فكان المقرر على داود باشا أن يقدم ستة آلاف كيس[2] ، ولكنه امتنع عن ارسال هذا المبلغ • ففُسّر امتناعه في اسطنبول بمثابة اعلان عصيان على الدولة واعتبر كأنه تخلى عن سيده السلطان في أحرج المواقف وأساء الى هيبته[3] •

في صيف **١٨٣٠** أرسل السلطان محمود الى بغداد رجلاً يثق به يدعى صادق افندي وخوله مسؤولية العمل على التخلص من داود باشا

---

(١) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود) ـ اختصار أمين الحلواني ـ القاهرة ١٣٧١ هـ ـ ص ١٦٢ •

(٢) الكيس في تلك الايام كان على نوعين : كيس الفضة وهو يحتوى على خمسمائة قرش ، وكيس الذهب ويساوي ما قيمته عشرة آلاف قرش أي أنه يعادل عشرين كيس فضة • والمظنون أن المبلغ الذي قُرر على داود باشا قُدر بأكياس الذهب ، وهو بلا شك مبلغ ضخم في معيار تلك الايام •

(٣) عبدالعزيز سليمان نوار (داود باشا والي بغداد) ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٢٤٤ •

بأية وسيلة تُتاح له • ويبدو أن صادق أفندي لم يكن أهلاً للمهمة التي كُلّف بها ، فقد كان الجدير به أن يترفق ويتكتم عند القيام بمهمته نظراً لما كان يتمتع به داود باشا من دهاء وكثرة أعوان ، غير أنه آثر أن يسلك مع داود باشا منذ البداية مسلك التعجرف والاستهانة •

أحسّ داود باشا أن صادق أفندي لا يتردد أن يقتله اذا هو لم يطع أمره سلماً ، ولهذا قرّر داود باشا أن يتغدّى بخصمه قبل أن يتعشى خصمه به • جمع داود باشا مستشاريه الذين يثق بهم وهم : محمد افندي المصرف ، وسليمان أغا الميراخور ، والصراف باشي اسحق اليهودي• ووضع بالاتفاق معهم خطة محكمة لقتل صادق افندي •

كان صادق أفندي يسكن في دار الضيافة الواقعة في محلة الصابونجية، وفي ٢٠ تشرين الاول ليلاً أحاطت بالدار كتيبة من الجنود ثم اقتحمها محمد أفندي المصرف وسليمان أغا الميراخور يصحبهما رمضان أغا حاجب داود باشا ومعه عريف ضخم الجثة اسمه خالد أغا • فأيقظوا صادق أفندي من النوم وقالوا له « تشهّد » ، وهذه كلمة تقال لمن يُراد قتله لكي ينطق بالشهادتين قبل لقاء ربه •

عندما رآهم صادق أفندي عازمين على قتله انهار انهياراً عجيباً ، فارتمى على قدمي سليمان أغا متضرعاً ، وأخذ يسألهم العفو[1] ويبدي استعداده لعمل أي شيء يريدون منه فلم ينفعه ذلك شيئاً ، وتقدم العريف خالد أغا فنزع الشال من محزمه بهدوء ووضعه على عنق « الأفندي » فقضى بسرعه على حياته وتوسلاته معاً[2] •

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المماليك في العراق) ـ ترجمة محمد نجيب أرمنازى ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص ٥٨ •

(٢) جيمس بيلي فريزر (رحلة فريزر) ـ ترجمة جعفر خياط ـ ـ بغداد ١٩٦٤ ـ ص ١١٩ •

صدى المقتل :

في الصـــباح التالي أعلن أن مبعوث السـلطان قد أصيب بمرض « الهواء الاصفر » ، وأنه طريح الفراش في دار الضيافة ، وأخذ داود باشا يرسل في كل يوم طبيباً يتظاهر بأنه ذاهب لمداواة « الأفندي » ، وكذلك أرسل أشخاصاً للسؤال عن صحته[1] • ثم جيء بشخص فأُلبس ملابس « الأفندي » وطيف به مرة أو مرتين في شوارع بغداد لكي يقضوا على أية إشاعة تدور بين الناس حول مقتله •

لم تنفع هاتيك التظاهرات التمثيلية شيئاً ، فقد أخذت الاشاعات تنتشر بين سكان بغداد حتى وصلت الى مسامع القنصل البريطاني تيلر[2] • وصار الناس يتوقعون صراعاً بين داود باشا والسلطان فتهافتوا على شراء المـواد الغذائية مما أدى الى ارتفاع أسعارها ، وخشيت بعض الأقليات مغبة هـذا الصراع فآثرت أن تترك بغداد قبل نشوب القتال •

وكان لمقتل صادق أفندي صدى مدوٍ في اسطنبول وفي مختلف الولايات العثمانية • وكان محمد علي باشا والي مصر يومذاك يعد قواته للهجوم على بلاد الشام واعلان عصيانه على الدولة العثمانية ، فانتهز الفرصة وأرسل الى السلطان يعلن استعداده لبعث جيش الى العراق ليقبض عـلى داود الذي دنّس يديه بدم مبعوث السلطان[3] • والمظنون أن محمد علي أراد بذلك الحيلة وربما كان يأمل أن يكلفه السلطان بتوجيه حمله ضد داود باشا فيتمكن بذلك من الوصول الى مقصده بأيسر السبل • ومهما يكن الحال فقد فوت السلطان على محمد علي غرضه ، وكلف على رضا باشا والي حلب بقيادة الحملة على داود باشا •

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ج ١ ص ٢٠٦ •

(٢) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص ١٢٠ •

(٣) عبدالعزيز سليمان نوار (مصر والعراق) ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ١٣٥ •

الطاعون في بغداد :

حشد علي رضا باشا جيشاً كبيراً وتحرك به من حلب في اوائل شباط من عام ١٨٣١ • ولم تكد الاخبار تصل الى بغداد حول تحرك هذا الجيش نحوها حتى بدأ فيها طاعون فظيع ، وقد قلب هذا الطاعون جميع الخطط التي وضعها داود باشا لمقاومة الجيش القادم وجعل بغداد كالريشة في مهب الرياح لا تملك من أمرها شيئاً •

يمكن القول إن هذا الطاعون كان أفظع وباء حل بالعراق عبر تاريخه الطويل ، وقد ظل المعمرون من أهل بغداد يتحدثون عن مآسيه حتى عهد متأخر ، وفي بغداد الآن سوق يسمى « السوق الجائف » وهو انما سمي بهذا الاسم لأنه امتلأ بالموتى اثناء الطاعون واشتدت التتونة فيه الى درجة لا تطاق • ولابد لنا في هذه المناسبة من أن نقف عند هذا الطاعون لنتحدث عن بعض أحداثه مما يتصل بالحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في بغداد حينذاك •

جاء هذا الطاعون من الشمال • فمنذ شهر تموز عام ١٨٣٠ كانت بغداد على علم بتفشي الطاعون في تبريز ، وبعد شهرين وردت الأخبار عن وصوله الى كركوك ، فطلب داود باشا من طبيب القنصلية البريطانية اعداد منهج للحجر الصحي بغية منع الوباء من التقدم نحو بغداد • وقد أعد الطبيب المنهج ولكن المتزمتين من رجال الدين في بغداد أفتوا بأن الحجر الصحي مخالف للشريعة الاسلامية ، ومنعوا داود باشا من اتخاذ أي عمل لصد سير الوباء ، ولهذا كانت القوافل الواردة من ايران وكردستان تدخل الى بغداد بكل حرية[1] •

وفي أواخر أذار من عام ١٨٣١ ظهرت أول إصابة طاعونية في بغداد ، وكانت في محلات اليهود القذرة ، ثم أخذ الطاعون يسري نحو المحلات

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٦٧ •

الأخرى . وقد ذكر سليمان فائق الذي كان في بغداد يومذاك : إن عدد الجنائز التي أخرجت من أبواب المدينة في أواخر شهر آذار بلغ الألف ، وفي أواسط شهر نيسان بلغ العدد ثلاثة آلاف جنازة يومياً حسب ما ضبط في سجلات الموظفين ، ثم لم يبق من الموظفين بعدئذ من يقوم بالتسجيل(١) .

وقد عمد الاوربيون الذين كانوا في بغداد ، والمسيحيون المتصلون بهم ، الى حجر أنفسهم في بيوتهم لا يخرجون منها وذلك بعد أن جهزوا أنفسهم بما يلزمهم من مواد التموين . وكانوا اذا اضطروا الى أخذ شيء من الخارج سحبوه الى فوق من الشبابيك ثم أمسكوه بالملاقط ودخنوه قبل البدء باستعماله . ولهذا كانت الاصابات بينهم قليلة نسبياً ، وكانت تأتي اليهم عن طريق القطط أحيانا . أما سائر السكان فقد استسلموا للقدر وأخذ الطاعون يحصدهم حصداً حتى قيل إن عدد الموتى في اليوم الواحد بلغ أخيراً تسعة آلاف .

والغريب أن اللصوص انتهزوا الفرصة فصاروا يدخلون البيوت لينهبوها دون أن يخشوا أحداً من أصحابها لأنهم إما أن يكونوا قد ماتوا أو هم على وشك الموت . ومن النوادر التي تُروى عن تلك الايام هي أن رجلاً رأى في منامه كأن الملائكة كانوا يمرون في الزقاق يسجلون عدد الذين سيموتون في كل بيت ، وقد وجد أن العدد الذي سُجّل عن بيته يطابق تماماً عدد عائلته ، ولما كان أفراد عائلته قد ماتوا جميعاً ما عداه أيقن انه لابد مائت قريباً . وحين استيقظ من النوم استعد للموت فغسل بدنه ولبس الكفن ثم تمدد نحو القبلة . وشاءت المصادفة أن يدخل في تلك اللحظة الى البيت لص ، وظن اللص أن صاحب البيت ميت غير أنه فوجىء به على حين غرة وهو ينهض صارخاً به ، فوقع اللص ميتاً من هول المفاجأة . وعند هذا أيقن صاحب البيت أن عدد الموتى الذي سُجل عن بيته قد تم ،

(١) انظر جريدة البلاد البغدادية بعددها الصادر في ١٩٥٦/٥/١١ .

فلا داعي لموته اذن ، فبقي على قيد الحياة يحمد الله على نعمته •

ينبغي أن لا ننسى أن الكثير من الناس ماتوا دون أن يصابوا بالطاعون، بل استولى عليهم الخوف فأماتهم • ولهذا اعتاد العامة في العراق أن يسموا الوباء بـ « الوهم » • والظاهر أن الرجل الذي تحدثنا عن قصته آنفاً كاد يموت بسبب « الوهم » ثم تخلص من الموت بسبب « الوهم » أيضاً • ولعل من المناسب أن أذكر هنا أن هذا الرجل هو والد جد كاتب هذه السطور •

مشاهدات غروفز :

كان يسكن في بغداد أثناء الطاعون مبشر بريطاني اسمه غروفز ، وكان قد فتح فيها مدرسة لأيتام النصارى ، فلما بدأ الطاعون طلب منه القنصل البريطاني الانتقال معه الى ريف البصرة تجنباً للعدوى ، فأبى غروفز وقرر البقاء في بغداد متوكلاً على الله • وقد سجل غروفز مشاهداته عن تلك الأيام الرهيبة في كتاب صدر في لندن عام ١٨٣٢ • ويُعد كتابه هذا أدق تسجيل لاحداث الطاعون في بغداد •

أغلق غروفز داره ، وكان يسكن معه فيها اثنا عشر شخصاً من بينهم معلم أرمني وأسرته ، وكانت في مقابل شبابيك داره دربونة تؤدي الى ثمانية بيوت ، ومن هذه البقعة الصغيرة كانوا يشاهدون الجثث تنقل الى الخارج يوماً بعد يوم حتى صعد عددها الى سبع عشرة جثة • وكانت الشوارع قد خلت من المارة فلا يُرى فيها سوى حملة الموتى أو الذين يأخذون الأكفان لهم والسقائين الذين يأخذون الماء لغسل الجثث •

وفي اليوم الرابع والعشرين من نيسان خرج غروفز من داره لزيارة القنصلية البريطانية فلم يصادف في طريقه أحداً عدا الذين يحملون الجثث والأشخاص المصابين ، وكانت صرر الملابس من مخلفات الموتى ملقاة بالقرب من كثير من الأبواب ، وقد أُغلقت ساحة الجامع الكبير إذ لم يبق فيها

مكان لدفن أحد فصار الناس يحفرون القبور في جوانب الطرق ، وحتى في الطرق نفسها ، وفي كل بقعة فارغة أخرى • وبينما كان غروفز يسير في الشوارع بملابسه الكهنوتية شاهدته نساء عربيات فأبدين إيماءات غريبة تلفت النظر وكأنهن كن يخاطبن بها الله متعجبات من بقاء الافرنج والكفار مثله على قيد الحياة بينما كان يموت ذلك العدد الكبير من المسلمين •

وذكر غروفز أن الموت أصبح مألوفاً عند الناس بحيث كانوا يدفنون أقرب الناس اليهم من غير اكتراث ظاهر ، ثم وصل الحال أخيراً الى أن الناس أخذوا يتساقطون في الطرقات فلا يدفنهم أحد فتأتي الكلاب تنهش أجسادهم وربما كان بعضهم أثناء ذلك لا يزال يعالج سكرات الموت • وكان أشد المناظر ايلاماً وجود المئات من الأطفال الصغار في الطرقات وهم يتصارخون ، بعد أن ماتت أمهاتهم ، فيختلط صراخهم بزمجرة الكلاب التي تنهش جثث الموتى[1] •

ظاهرة اجتماعية :

وهناك ظاهرة اجتماعية لوحظت في كل وباء يجتاح العراق ، كما لاحظها غروفز في هذا الوباء على وجه من الوجوه ، وهي شدة اهتمام الناس بغسل الميت وتحنيطه وتكفينه وإجراء كل ما أمرت به الشريعة الاسلامية في هذا الشأن • إنهم اعتادوا أن يخالفوا أوامر الشريعة في حياتهم العملية كل يوم فلا يبالون ، ولكنهم عند الموت يحرصون كل الحرص على اتباع الشريعة مع العلم أن غسل الميت في وقت الوباء يزيد من انتشار عدواه بينهم •

والأغرب من هذا أن الكثير من الناس يسرعون الى شراء مواد التحنيط والتكفين لأنفسهم وأفراد عائلاتهم حالما يسمعون بانتشار الوباء بينهم

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص ٩٣ ـ ١١٤ •

استعداداً للموت ، فهم يخافون أن يُدفنوا من غير ذلك وكأنهم يتصورون أن الله سيرميهم في نار جهنم اذا وجدهم غير محنطين ولا مكفنين •

في الايام الأولي من انتشار الطاعون في بغداد ازداد الطلب على « مواد الموت » ، فارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشا • وذكر غروفز أن أحد الباعة استغل نكبة الناس فأخذ يبيع قطن الأكفان بأسعار مرتفعة ، ثم مات هو نفسه ، فلم يبق في المدينة شيء من هذه المادة • وارتفع سعر الحبال الى أربعة أضعاف سعرها الأصلي •

واشتد الطلب على الماء أيضاً لحاجة الناس اليه في غسل الموتى • والظاهر أن السقائين اغتنموا الفرصة كما اغتنمها باعة الاكفان والحبال • فاذا طولب أحدهم بقربة من الماء كان جوابه أنه يأخذها لغسل جثة أحد الموتى • وقد اضطر بعض الناس أن يذهب بنفسه الى النهر من أجل جلب الماء ليغسل به طفلاً ميتاً[١] •

من مذكرات سليمان فائق :

كان سليمان فائق في بغداد في بداية انتشار الطاعون ، وكان يومذاك شاباً ، وقد سجل بعض ذكرياته عن تلك الأيام ، وهي ذكريات لا تخلو من دروس اجتماعية ويمكن اعتبارها متممة لتلك التي سجلها غروفز •

يقول سليمان فائق : إنه عندما بلغت الجنائز اليومية بين الستمائة والسبعمائة جنازة زاد خوفه واضطرابه وذهب الى والده يستأذنه في الخروج الى البادية فراراً من الطاعون ، ولكن والده أجابه قائلاً : « يا بني لا يجوز الفرار من الوباء ، فان الذين ماتوا هاربين يصبحون عصاة ، فلنبق في المدينة فمن مات منا أصبح شهيداً وأما من نجا بنفسه فيصبح من السعداء » • وقد بذل سليمان جهده من أجل إقناع والده على تغيير رأيه مبرهناً له خطأ

(١) المصدر السابق ، ص ٩٨ ـ ٩٩ •

رجال الدين الذين حرّموا الحجر الصحي وأن الشريعة الاسـلامية لا تؤيدهم في ذلك • وبعد ان اقتنع والده برأيه قال له : « يا بني ليس من اللائق لحقوقنا القديمة ومناسباتنا العامة أن أترك داود باشا وأخرج ، فاخرج انت واذهب أما انا فسأمكث هنا متوكلاً على الله ، وان شاء الله تعالى فاني معتزم السفر الى الآخرة مع هذه القافلة الطيبة دون أن أقتل في أواخر عمري بسيف السياسة » • وخرج سليمان مع أفراد العائلة ومعه بعض سكان بغداد فخيموا في الصحراء على مقربة من بعقوبة •

كان سليمان فائق يغير موضع خيامه مرة كل أربعة أو خمسة أيام حذراً من العدوى ، وقد نجا منها فعلاً هو ومن كان معه ، فلم يمت منهم سوى الذين أرسلوا الى القرى لطحن الحبوب • وعندما خف الطاعون عزم سليمان أن يسرع في العودة الى بغداد ، ومما دفعه الى ذلك خطر النهب من قبل بعض العشائر المحيطين بهم ، فقد كان محمد البردي شيخ شمرطوقه يرسل رجالاً من عشيرته حول المخيم بغية نهبه • والظاهر أنهم انتهزوا فرصة الطاعون هناك كمثل ما انتهزها اللصوص في بغداد •

وعندما وصل سليمان فائق مع أهله الى مشارف بغداد لاحظ أن المدينة محاطة بالمياه من جهاتها الأربع ، لأن النهر كان قد فاض في أواخر أيام الطاعون ولم يكن في المدينة من يقدر على مكافحته فأغرق الكثير من محلاتها ، فاستأجر سليمان قفة وركبها مع أهله وساروا بها داخل المدينة حتى وصلوا الى الموضع المسمى بـ « حمام الراعي » ، وهناك نزلوا من القفة وبدأوا يسيرون على أقدامهم •

يقول سليمان إنهم لم يجدوا في الطرقات التي مشوا فيها أي انسان حتى أن أمه قالت لمن معها من النساء : « أيتها البنات ، لا يوجد أحد في الطريق فلمَ نسير وقد أسدلنا هذا النقاب ؟» ، فرفعت النساء النقاب ــ أي البيجة ــ عن وجوهن وسرن نصف ساعة من غير أن يشاهدن انساناً •

وعند وصولهم الى محلة النصارى شاهدوا امرأة تطل عليهم من نافذة احدى الدور ، وأخذت المرأة تستفسر منهم عن حالهم ثم التفتت نحو داخل الدار تخبر من فيها بوجود بشر في الطريق لا يزالون على قيد الحياة • وقد سأل سليمان المرأة عن سر بقائها هي وأهل بيتها أحياءً مع العلم أنه لم يشاهد في جميع الطرقات التي مرّ بها أحداً ، فأجابته المرأة قائلة : « نحن نصارى ، وقد جئنا الى هنا ونحن بضع عائلات وأقمنا الحجر على أنفسنا ، وكنا في بداية الحجر واحداً وأربعين شخصاً بالتمام فأصبحنا بحمد الله ثلاثة وأربعين وذلك بولادة طفلين • وبما أننا لم نر بشراً منذ مدة يمر من هذا الشارع فعندما شاهدناكم علمنا أن الطاعون قد ولى ففرحنا لذلك » •

وبعد وصول سليمان فائق هو والنساء الى دارهم ، ذهب لزيارة داود باشا في مقره فوجده في دائرة الحرم مطروحاً في الفراش وهو في غيبوبة لاصابته بالطاعون • وبعد مرور بضعة أيام تحسنت صحته بعض التحسن• وعند ظهور اللصوص في المدينة وانتشار الحوادث المخلة بالأمن أخذ داود باشا يعين الموظفين ويشرف على شؤون الحكومة بالرغم من ضعف صحته •

وكانت جثث الموتى إذ ذاك لا تزال مطروحة في البيوت والاسواق والطرقات ، وبلغ تعفن الهواء حداً لا يطاق ، فعين داود باشا جنوداً لتنظيف بغداد وجعل مقداراً من المال لنقل كل جثة • فأُلقيت آلاف الجثث في دجلة من غير تكفين وتجهيز ، وكانت أكثر الجثث تُشد من أرجلها بالحبال وتُربط بذيول الحيوانات السائبة التي لم يكن لها مالك ، فتسحبها الحيوانات وهي مقلوبة على وجوهها حتى شاطىء النهر[1] •

بغداد تعلن الطاعة :

لم تكد بغداد تسترجع أنفاسها من وطأة الطاعون ، ويعود الذين

(١) انظر جريدة البلاد البغدادية بعددها الصادر في ١٩٥٦/٥/١١ •

هربوا منها الى بيوتهم ، حتى انتشر الخبر بأن طلائع الجيش السلطاني القادم قد وصلت الى بساتين الكاظمية وهي على بعد أميال قليلة من شمالي بغداد .

كان علي رضا باشا قائد الجيش السلطاني لا يزال في الموصل ، وقد أرسل من هناك طلائع من قواته بقيادة قاسم باشا العمري ومعه صفوق شيخ شمر وسليمان الغنام من شيوخ عقيل . وحين وصل قاسم باشا الى مقربة من بغداد أرسل رسله الى علماء بغداد وأعيانها يحرضهم على إطاعة السلطان وعلى طرد الوالي المعزول داود باشا ، وكان قاضي بغداد الذي هو أخو قاسم باشا يبذل جهوداً كبيرة في هذا السبيل .

يبدو على أي حال أن داود باشا كان في قرارة نفسه ينوي الاستسلام للجيش القادم ، فقد كان لا يزال يعاني من عقابيل المرض الذي أصيب به، ولم يبق معه من خدمه وحرسه سوى نفر قليل لا يتجاوز عدده الخمسين. وفي ذات يوم فوجيء داود باشا بمظاهرة صاخبة تأتي من محلة باب الشيخ، يتقدمها رؤساء المحلة ، وهم يهتفون بهتافات معادية له ، ثم أحاطوا بالسراي وشرعوا يشعلون النار في أحد أبوابه . وعند هذا انبرى أحد عبيد داود باشا ـ دون علم منه ـ فأطلق على المتظاهرين بضع رصاصات أدت الى جرح بعضهم وفرار الباقين .

يقول سليمان فايق : إن المتظاهرين لم يكن لهم غرض من مجيئهم الى السراي سوى اعلام داود باشا بعزله حسب الفرمان الوارد من السلطان ، ولهذا تراجعوا وذهب كل واحد منهم الى داره[1] .

أدرك داود باشا حراجة موقفه فخرج مع عبده الحبشي فيروز تحت جنح الظلام والتجأ الى دار حبيبة خانم . وعندما شاع خبره في الصباح التالي جاء اليه وفد من الأعيان والعلماء فأخرجوه من تلك الدار بكل

---

(١) سليمان فائق (تاريخ بغداد) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٨٢ .

احترام وذهبوا به الى دار صالح بك بن سليمان الكبير لكي يكون وديعة لديه حتى يجرى تسليمه الى الوالي الجديد عند قدومه •

وجاء قاسم باشا العمري من الكاظمية فدخل بغداد حيث استقبله السكان بمختلف طبقاتهم وأدخلوه الى السراي « محفوفاً بالعزة والاجلال »[١] • واعتقد قاسم باشا أن كل شيء قد انتهى وأن بغداد أصبحت في قبضة يده فأرسل الى علي رضا باشا في الموصل يدعوه للمجيء الى بغداد سريعاً لكي يتولى مقاليد الحكم فيها •

تحول عجيب !

في صباح ١٣ حزيران ١٨٣١ عندما كان قاسم باشا العمري في السراي ينتظر تسليم داود باشا اليه ، سمع ضوضاء شديدة تنبعث من الخارج • وبعد قليل تبين له أن جماهير غفيرة تحيط بالسراي تريد مهاجمته وعلى رأسها محمود أفندي النقيب ، وكانت الجماهير مؤلفة من الأهالي والمماليك وجماعة كبيرة من عشيرة عقيل التي تسكن الكرخ • واستطاعت الجماهير أن تستحوذ على مخزن السلاح ثم أخذت تمطر السراي بالرصاص والقنابل •

كان مع قاسم باشا في داخل السراي سليمان الغنام ومعه زهاء ثلاثة آلاف من عشيرة عقيل ، وأخذ هؤلاء يدافعون عن السراي • ومعنى هذا أن عشيرة عقيل كانوا فريقين أحدهما يدافع من الداخل والآخر يهاجم من الخارج • وفي المساء شعر سليمان الغنام بأنه يقاتل مع الجانب الخاسر فأسرع مع جماعته الى الخزينة فكسروا أقفالها ونهبوها ، ثم أشعلوا النار في السراي وخرجوا منه يحملون منهوباتهم متجهين نحو باب المعظم ، ومن هناك ألقوا بأنفسهم الى النهر فعبروه سابحين الى جانب الكرخ ، وقد غرق بعضهم أثناء العبور •

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المماليك في بغداد) ص ٦٥ ـ ٦٦ •

وانثالت الجماهير المحيطة بالسراي فدخلته ناهبة مدمرة ولم تترك فيه شيئاً من تلك النفائس التي كان داود باشا حريصاً على اقتنائها • وكان الكثير من النقود وأدوات الذهب والفضة تُشاهد مطروحة في الازقة بعد أن سقطت من أيدي العقيليين الهاربين فتهافت عليها الغوغاء يتكالبون عليها • وفي أثناء هذا الاضطراب لم يُعرف مصير قاسم باشا العمري ، وفي رواية فريزر أنه حينما تخلى عنه حرسه الخاص اقتاده أحمد أغا « التفنكجي باشي » الى بئر قريبة وألقاه فيها(١) •

الواقع أن هذا التحول في سلوك الجماهير البغدادية أمر عجيب يلفت النظر ، فهم قد انقلبوا بين عشية وضحاها من موقف الطاعة لأمر السلطان الى موقف العصيان عليه ، فما هو السبب في ذلك ؟ حاول سليمان فائق تعليل الحادث ــ وهو قد كان شاهد عيان فيه ــ فأشار الى الأعمال الفظيعة التي قام بها الأعراب من أتباع سليمان الغنام وصفوق على أثر دخول قاسم باشا العمري الى بغداد حيث أخذ هؤلاء يرتكبون المنكرات وينهبون الدور ويتعرضون بالنساء ، حتى أن صفوق أمر أتباعه بأن يأتوه بأرملة سليمان أغا ، وأن يبحثوا عنها في كل مكان ، زاعماً أن علي رضا باشا وهبها له(٢) • إن هذه الفظائع في رأي سليمان فائق هي التي جعلت جماهير بغداد تثور على قاسم باشا وتتحدى أمر السلطان بعد أن كانت قد أعلنت الطاعة له •

البغداديون يتحدون :

مهما يكن الحال فالملاحظ أن سكان بغداد أصبحوا ــ بعد حادث الهجوم على السراي ومقتل قاسم باشا ــ متحدين جميعاً ، وهذه أول مرة يقف فيها أهل المحلات البغدادية صفاً واحداً لا اختلاف بينهم • وقد أسرع الأعيان والعلماء على عادتهم فكتبوا العرائض الى السلطان يرجون منه اسناد

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص ١٢٢ •
(٢) سليمان فائق (تاريخ بغداد) ص ٨٣ ــ ٨٤ •

الولاية الى داود باشا ، أو الى صالح بك ، ويعلنون استعدادهم لدفع مبلغ كبير اليه ولزيادة الجزيـة السـنوية من ألف كيس الى عشـرة آلاف كيس[1] •

وعندما علم علي رضا باشا بالأمر حث المسير بقواته نحو بغداد • وفي بداية شهر تموز ١٨٣١ وصل الى مقربة من بغداد وعسكر في بساتين الصليخ ، وأخذ يشدد الحصار علي المدينة ، فجرت معارك غير قليلة بينه وبين أهل بغداد •

كان أهل بغداد يقاتلون على مستويين : أحدهما نظامي تحت قيادة مسيو ديفو ومن معه من قواد داود باشا والمماليك ، والآخر أهلي لا يخضع لقيادة أو تنظيم وهو يمثل سكان المحلات البغدادية الذين يقودهم رؤساؤهم والأشقياء المغاوير •

لا شك أن أهل المحلات أبدوا بسالة لا يستهان بهـا أثناء القتال ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يسيئون الى أنفسهم من حيث لا يشعرون كما هي عادة الغوغاء دائماً • فهم قد يندفعون في القتال من غير هدف أو خطة ، تحت تأثير صيحة يهتف بها أحد مغاويرهم فيسيرون وراءه كالأغنام وهـم لا يدرون لماذا ساروا والى اين يذهبون •

حدث ذات مرة أن تجمهر جمع كبير منهم عند باب المعظم ، وكانت أصوات الرصاص والقنابل تلعلع في الجو ، فتحمست جماعة منهم للقتال • ويبدو أن تلك الجماعة كانت مؤلفة من الشجعان المحليين الذين يحبون أن يثبتوا رجوليتهم في المعارك ، فأصروا على فتح باب السور وعلى الخروج منه لمقاتلة قوات علي رضا باشا ، وكان يشجعهم على ذلك حسـن أغا بن

---

(١) يوسف عزالدين (داود باشا ونهايـة المماليك في العراق) ـ مستل من مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ـ شباط ١٩٦٠ ـ ص١٦ ـ ١٧ •

عليش أفندي • وقد حاول رضوان أغا – وهو من المماليك المعروفين بالتروّي والحكمة – أن ينصحهم ويبين لهم مغبة عملهم الطائش فلم يأبهوا له وقابلوه بتهكم وشتموه[1] ، ثم اندفعوا خارجين • والظاهر أنهم نجحوا في بداية الأمر حيث استولوا على طابية على ساحل النهر وغنموا سلاحها ومدفعين كانا فيها ، فأغراهم ذلك إذ تحولوا نحو طابية أخرى تقع على طريق الاعظمية ، وهناك فاجأهم أحد عشر فارساً من « الهايته » فهزموهم هزيمة شنعاء ، وصار « الهايتة » يطاردونهم حتى أوصلوهم الى باب المعظم • وحين شاهد الجمهور الذين كانوا واقفين هناك هزيمتهم انثالوا هم من جانبهم يفرون الى الداخل نحو جهة المقاهي وصار يدهس بعضهم بعضاً ، وقد سقط منهم من جراء ذلك قتلى وجرحى كثيرون •

مذبحة المماليك :

ما إن حل شهر ايلول حتى أصبحت الحالة في داخل بغداد لا تطاق من شدة الحصار ، فقد شح الطعام شحة بالغة ، وصارت المنهوبات تعرض علناً للبيع من دون خوف أو خجل •

وكان دعاة علي رضا باشا منتشرين بين سكان بغداد يثبطون عزيمتهم عن المقاومة ويدعونهم الى طاعة السلطان • وفي ليلة ١٤ إيلول كان صبر السكان قد نفد فبادر رجل من التجار اسمه الحاج خليل ، ومعه جماعة تؤيده ، ففتحوا باب السور الجنوبية[2] ، وسمحوا للجيش السلطاني بالدخول منه ، وتم بذلك احتلال بغداد • وحينئذ عم الفرح في المدينة فهبطت الأسعار مائة ضعف • وفتحت الدكاكين أبوابها ،ووقفت الجرائم عند حدها[3] •

---

(١) سليمان فائق (المصدر السابق) ص ١٠٠ •
(٢) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص ١٢٢ •
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٧٦ •

وضع علي رضا باشا خطة متقنة لقتل المماليك تشبه من بعض الوجوه تلك التي وضعها محمد علي باشا في مصر ، فهو عند دخوله الى بغداد اتخذ اسلوب المصالحة والتوفيق مع الجميع ، وتظاهر بالرضا عن المماليك وولى بعضهم مناصب عالية ، ولكنه كان يضمر لهم نية الغدر الماحق • وفي ذات يوم دُعي المماليك مع جماعة من أعيان بغداد وعلمائها الى اجتماع في ديوان الباشا بحجة الاستماع لقراءة الفرمان الذي وصل مؤخراً من اسطنبول ، وكان السراي حينذاك قد امتلأت سطوحه وشرفاته وأروقته بالجنود المسلحين • وبعد أن تناول المدعوون القهوة ودخنوا « الجبوق » ، وبينما كان الفرمان على وشك أن يُقرأ ، قام رجل اسمه علي أغا فأهاب بالجنود الألبانيين الذين كانوا مستعدين أن يقتل كل واحد منهم من كان بجانبه من المماليك • ولما تردد هؤلاء في القيام بعملهم صرخ بهم علي أغا : « ما بالكم ؟ لماذا تترددون ؟ أضربوا ـ فاما أن تقتلوهم أو تُقتلون أنتم » ، ثم انتضى سيفه وأهوى به على المملوك الذي كان بجانبه • وقبل أن يتمكن المماليك من انتضاء سيوفهم للدفاع عن أنفسهم ، قُضي عليهم جميعاً[1] • وكان من بين القتلى اشخاص كانوا قد انشقوا على جماعتهم وانضموا الى جانب علي رضا باشا قبل دخوله بغداد ، فلم يشفع لهم ذلك عنده •

وصدر الأمر بعدئذٍ بقتل جميع المماليك اينما وُجدوا ، ويروي شاهد عيان كيف جرى مقتل صالح بك ابن سليمان الكبير ، وهو من الذين لم يحضروا وليمة الذبح ، فقد أسرع اليه جمع من الجنود بينما كان راكباً حصانه ، وانهالوا عليه ضرباً وطعناً فنطق بعبارة « آمنت بالله » وبالشهادتين ثم خر الى الأرض صريعاً • فتقدموا منه وحزّوا رأسه ثم تركوا جثته عارية في أحد الازقة لا يسترها شيء[2] •

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص ١١٦ •
(٢) سليمان فائق (المصدر السابق) ص ١١٦ •

ومما يلفت النظر أن داود باشا الذي كان أصل البلاء لم ينله شيء من الأذى بل أرسله علي رضا باشا بكل احترام الى اسطنبول ، وهناك حصل على حظوة السلطان وتولى من بعد ذلك بعض الولايات والمناصب الكبيرة •

رأي للمناقشة :

نشر الدكتور عبدالعزيز نوار منذ عهد قريب مقالاً في مجلة الهلال القاهرية تعرض فيه للمعارك التي وقعت بين أهل بغداد والقوات السلطانية التي كان يقودها علي رضا باشا وقد جاء في هذا الصدد برأي يستحق المناقشة لما له من صلة وثيقة بأوضاع المجتمع العراقي في ذلك الحين •

خلاصة رأي الدكتور نوار هي أن أهل بغداد إنما ثاروا في عام ١٨٣١ ضد جيش السلطان لأنهم كانوا يحسون بدافع وطني وقومي يدفعهم الى ذلك ، فهو يقول في ذلك ما نصه : « ••• إن رغبة السلطان محمود الثاني العثماني في أن يطرد المماليك من العراق كانت قد أعمته عن حقيقة التطور التقدمي الذي وضح في العراق خلال حكم داود باشا آخر ولاة المماليك في العراق ••• ولكن القضاء على داود باشا لم يكن بالأمر السهل نظراً لأنه كان قد كسب ثقة أهل العراق بصفة عامة ، وثقة الطبقة المثقفة في بغداد بصفة خاصة لأنه كان والياً مصلحاً وعالماً متبحراً في علوم الفقه وشديد العناية بترقية اللغة العربية وآدابها ••• ولذلك وقف أهل بغداد الى جانب داود عندما بعث السلطان العثماني محمود الثاني بجيش كبير بقيادة علي رضا لطرد داود من بغداد ، لأن داود في نظر أهل بغداد هو أجدر من الأتراك العثمانيين بحكم بغداد ، وأنه على السلطان أن يحترم مشيئة أهل البلاد في تعيين حاكمهم • ولهذا شارك الأهالي داود باشا في الاستعداد للدفاع عن البلاد ضد جيش السلطان ••• وهكذا أثبت أهل العراق أن المسألة ليست صراعاً بين داود والسلطان بقدر ما هي دفاع عن

حق أهل البلاد في اختيار الوالي الجديد بحكمهم ... »[1] .

إن من يقرأ هذا الرأي الذي جاء به الدكتور نوار يخيل له أن أهل بغداد في تلك الأيام كانوا يحملون وعياً وطنياً ناضجاً ، وأنهم حين شهروا السلاح ضد جيش السلطان إنما كانوا يدافعون عن حقهم في تقرير مصيرهم تجاه تعسف الحكم العثماني . نسى الدكتور نوار ، أو تناسى ، أن العراقيين لم يكونوا آنذاك يعرفون شيئاً من المفاهيم والمصطلحات السياسية التي تملأ أذهان الناس في أيامنا هذه ، فهم لم يكونوا يدركون ما هي « الوطنية » أو « القومية » أو « الحرية » أو « الاستقلال » أو « حق تقرير المصير » أو ما أشبه مما يلهج به الرأي العام في العصر الحديث . جل ما كان يفهمه الناس في تلك الأيام هو العصبية المحلية أو القبلية ، وما يتصل بها من عادات الثأر والنخوة وغيرها من القيم المنبعثة من أعماق الثقافة الاجتماعية السائدة .

في رأيي أن معارك عام ١٨٣١ لم تكن تختلف من حيث محتواها الاجتماعي عن معارك المحلات التي زخر بها تاريخ بغداد في عهد المماليك ، كل ما هنالك من فرق هو أن أهل بغداد في المعارك الأخيرة كانوا جبهة واحدة ضد جيش السلطان بينما كانوا في معاركهم السابقة يقاتل بعضهم بعضاً ، ولكننا يجب أن لا ننسى أنهم في جميع معاركهم ـ الاولى والأخيرة ـ كانوا يندفعون في القتال من جراء انتفاضة غوغائية يقودها رؤساء المحلات أو أشقيائهم دون أن يعرفوا السبب الحقيقي الذي يختفي وراء حركتهم .

ان هذه ظاهرة اجتماعية نلاحظها في العراق وفي أي بلد آخر يعيش في مثل ظروفه الاجتماعية ، فقد يكفي لقيام حركة ما في احدى المحلات أن ينبري أحد الشجعان من أولي الصوت الجهوري واللسان اللاذع

---

(١) انظر مجلة الهلال القاهرية بعددها الممتاز الصادر في ١٩٦٥/٢/١ ـ ص ١٩ .

فيهتف في أهل المحلة مستنجداً بهم ، وعند هذا يجد الكثيرون من أهل المحلة أنفسهم مندفعين في الاستجابة لـه من حيث يريدون أو لا يريدون ، فيشهرون أسلحتهم ويجرون بها في الازقة • وقد يزداد اندفاعهم حين يلمحون النساء ينظرن اليهم أو يزغردن لهم ، وهم اذ ذاك قد يرمون بأنفسهم الى الموت من حيث لا يشعرون •

وقد يحدث أحياناً أن يندفع أهل المحلة في ثورة عارمة وهم لايعرفون بوضوح لما ثاروا • فهم قد يركضون وراء صيحة النخوة ، ويحسبون أن الأمر بسيط لا يعدو أن يكون على شاكلة المعارك المحليـة المعتادة ، ثم تجرفهم الأحداث بتيارها خطوة وراء خطوة ، واذا بهم يجدون أنفسـهم أخيراً في خط النار تجاه قوات ساحقة لا قبل لهم بهـا ، وحينذاك قـد ينقلبون على أعقابهم يلوذون بأذيال الفرار ويدوس بعضهم بعضا •

يخيل لي أن هذا هو ما حدث فعلاً في بغداد ١٨٣١ • فقد خرج الأهالي من باب المعظم يحاربون جيش السلطان ، والظاهر أنهم كانوا اذ ذاك تحت وطأة الحماس الذي أثاره فيهم بعض رجال المماليك من أمثال حسن أغا • ولو أنهم كانوا منذ البداية تحت تأثير رجال آخرين فلربما كانت حماستهم موجّهة نحو تأييد جيش السلطان بدلاً من محاربته •

من المؤسف أن نجد بعض كتابنا وباحثينا في هذه الأيام يسـيرون في تفسير أحداث التاريخ على نفس الطريقة التي سار عليها الدكتور نوار • فهم يحاولون أن يصبغوا تلك الأحداث بالصبغة التي يشتهونها بغض النظر عن اختلاف الزمان والمكان • إنهم بعبارة أخرى يفسرون أحداث الماضي في ضوء ما يريدون أن تكون عليه تلك الاحداث ، وليس في ضوء ما هي عليه في الواقع •

الملاحق

القيت في هــذه السنة والتي قبلهــا بضــع محاضرات عامــــة ، في بعض الجمعيات والنوادي ببغداد ، حول موضوع المجتمع العراقي في المرحلة الراهنة التي يمر بها ، كما القيت بحثا في الموضوع نفسه في المؤتمر العالمي السادس لعـلم الاجتماع الذي انعقد في ايفيان عام ١٩٦٦ ، وقـــد اعددت بحثا آخر لالقائه في مؤتمر الادباء العرب الســابع الذي انعقد ببغداد في نيسان الماضي غير ان ظروفا خاصة حالت دون تقديمه للمؤتمر ۰ وقد رأيت من المناسب ان اكتب هذه الملاحق اضع فيها خلاصة لتلك المحاضرات والبحوث عسى ان يكون ذلك ذا نفع للقارىء على وجه من الوجوه ۰ وليسمح لــي القارىء اذا وجد في هذه الملاحق شيئا من التكرار لبعض ما ورد من آراء في كتبي السابقة او الجزء الحالي من هــــذا الكتاب ۰ فالمقصود من هـــذه الملاحق ان تعطي صورة مجملة لمختلف الآراء التي توصلت اليها حول طبيعة المجتمع العراقي وكيف تتكون شخصية الفرد فيه ۰

الملحق الاول

التغير والتناشز الاجتماعي

العالم كله الآن يعاني تغيراً اجتماعياً هائلا لم يعهد له مثيلا من قبل في جميع أطوار التاريخ ، فقد أنتج العلم في العصر الحديث مخترعات عظيمة في وسائل المواصلات والسفر والنقل والاعلام والنشر بحيث صارت العزلة الاجتماعية وما يتبعها من ركود اجتماعي غير ممكنة في أي مجتمع مهما كان نائياً أو محاطاً بالجبال الشاهقة •

كان السفر في الماضي بطيئاً وشاقاً حتى قيل في أحد الامثال العربية : « السفر قطعة من سقر » ، ولهذا كانت العزلة الاجتماعية هي الطابع الغالب على معظم المجتمعات البشرية ، أما الآن فقد انقلبت الآية وصار الاتصال والتزوار والاحتكاك بين المجتمعات من الامور الشائعة ، وهذا لابد أن يؤدي بدوره الى ظهور التغير في كل مجتمع قليلا أو كثيراً • إن من النادر أن نجد الآن مجتمعاً قادرا على المحافظة على عزلته الاجتماعية دون أن يتأثر بما يجري في العالم من زخم حضاري عنيف • رأينا منذ عهد قريب كيف حاول إمام اليمن الاسبق يحيى حميدالدين أن يعزل اليمن عن المؤثرات الخارجية فأخفق ، وكذلك أخفق اللاما في التيبت ، وأخفق غيرهما كثيرون •

بداية التغير في العراق :

بدأ الاتصال الحضاري في العراق منذ عهد داود باشا حين حاول هذا الوالي أن يُدخل الى البلاد بعض المخترعات والنظم الاوربية ، وقد تابعه في ذلك بعض من جاء بعده من الولاة كرشيد باشا « أبو المناظر »

ونامق باشا • وفي العقد السابع من القرن التاسع عشر ظهرت البواخـــر النهرية في العراق ، وامتدت اليه خطوط التلغراف ، فكانت تلك أموراً عجيبة في نظر الناس حاروا في تعليلها وكانت لهم بمثابة هزة فكرية فتحت أذهانهم نحو آفاق لم يكونوا يحلمون بها من قبل •

وفي عام ١٨٦٩ افتتحت قناة السويس فكانت أهميتها الاجتماعيـــة للعراق عظيمة جداً إذ هي قربت المسافة البحرية بين العـــراق وأوربا ، ويسرت السفر ونقل البضائع بينهما تيسيراً كبيراً • وشاء القدر أن يتولى ولاية بغداد في تلك السنة رجل مصلح ذو ولع بالاعمار والتجديد هـــو مدحت باشا • ولم يدم عهد هذا الوالي سوى سنتين تقريباً غير أنه أحدث في العراق ، وخاصة في بغداد ، ما يشبه الثورة ، وظل الناس يذكرونـــه سنوات عديدة • ومن طريف ما يُذكر في هذا الصدد أن عجوزاً مـــن سكان الكرخ حين شهدت عربات « الترام » التي أسسها مدحت باشا بين بغداد والكاظمية فتحت فمهـــا دهشـــة وصـــاحت : « بس عـــلى المـــوت ما يقدرون ! » • إنها حين رأت عربة ذات طابقين تسير على سكة ، ويجرها زوج من الخيول ، حسبت ان هذا أقصى ما يمكن أن ينتجه العقل البشري من إبداع عجيب •

وفي عام ١٩٠٨ حين وصلت الى بغداد أول سيارة خرج أهل بغداد عن بكرة أبيهم ليتفرجوا عليها ويتعجبوا منها ، وأخذ الكثيرون منهـــم ينظرون تحت السيارة ليكتشفوا قوائم الحصان المختفي في بطنها عـــلى زعمهم ، فهم لم يستطيعوا أن يتصوروا عربة تسير من غير حيوان يجرها • وبعد قليل سمعوا أن الافرنج اخترعوا عربة تطير في الهواء فكان ذلـــك آخر ما تحتمله عقولهم ، ثم جـــاء السيل العرم من المخترعات المذهـــلة بعدئذ ، يتلو بعضها بعضاً ، فانهار كل حاجز بين المعقول وغير المعقول في نظرهم ، وصار كل شيء لديهم ممكنا • وكان هـــذا إيذانا ببدء المرحلة

الراهنة التي انقلبت فيها جميع المقاييس الفكرية والاجتماعية •

التناشز الاجتماعي :

قد يصح أن نعد الحرب العالمية الاولى حدثاً يفصل بين عهدين متمايزين في العراق هما عهد التغير البطيء وعهد التغير السريع ، وهناك فرق كبير جداً بين ذينك العهدين من حيث نتائجهما الاجتماعية • فمن خصائص التغير البطيء أن المجتمع يتكيف له ويتلائم معه بمرور الايام فلا يظهر فيه صراع عنيف أو تناقض بين القديم والجديد على منوال ما يظهر أثناء التغير السريع •

لا ننكر أن التغير السريع الذي حدث في العراق منذ الحرب العالمية الاولى قد أفاد المجتمع كثيراً ، حيث أدخل فيه معالم الحضارة الحديثة خلال وقت قصير ، وقفز به الى الامام من الناحية المادية قفزة لا يستهان بها ، ولو قارنا وضع العراق الآن بما كان عليه قبل نصف قرن لوجدنا فرقاً عظيماً من حيث المستوى العمراني والاقتصادي والسكاني والصحي والعلمي وغيرها ، ولكننا يجب أن لا ننسى أن هذا التقدم الحضاري الكبير قد أنتج في الوقت نفسه مشاكل اجتماعية كبيرة أهمها في نظري مشكلة « التناشز الاجتماعي » • فمن طبيعة الحياة أن ليس فيها شيء ينفع الناس دون أن يحتوي على ما يضرهم في الوقت نفسه ، وقد أخطأ الطوبائيون حين تخيلوا حياة خالية من المشاكل أو الشرور فتلك حياة لا يمكن أن توجد على وجه هذه الارض أو هي بالاحرى لا تنسجم مع طبيعة الانسان•

من طبيعة التغير السريع أنه لا يؤثر في جميع أجزاء الكيان الاجتماعي على درجة واحدة ، فكثيرا ما يكون هناك جزءان مترابطان ثم يحدث التغير في أحدهما دون أن يحدث في الآخر ، أو هو قد يحدث في أحدهما أسرع مما يحدث في الآخر ، فيؤدي ذلك الى صراع أو توتر أو تناقض

بينهما ، وهذا هو ما أسميته بـ « التناشز الاجتماعي » •

الواقع أن المجتمع العراقي في مرحلته الراهنة يعاني من تناشزات عديدة ، وقد أحصيتها ذات مرة فوجدتها تزيد على الاربعة عشر تناشزاً ، وربما كانت هي أكثر من ذلك • ولست هنا بصدد استقصاء هذه التناشزات انما أود أن أذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر :

تناشز الحقوق والواجبات •

إن الحقوق والواجبات كما لا يخفى جانبان متواسقان ومترابطان ولا يجوز أن ينفك أحدهما عن الآخر في الحياة العملية ، وقد كانت العصبية القبلية أو المحلية في العهد العثماني قائمة على مثل هذا التواسق بين الحقوق والواجبات ، فالفرد يتوقع من عشيرته أو محلته أن تقف الى جانبه في الملمات ، وتنجده اذا تخاصم ، وتأخذ بثاره حين يُقتل ، والمفروض فيه أن يكون من جانبه مستعداً للقتال معها في المعارك والمساهمة معها في الديات ، وهو قد يرمي بنفسه الى الموت في سبيلها دون أن يسأل : لماذا ؟

عندما جاءت الحضارة الحديثة الينا جلبت معها مفهوماً للعلاقات الاجتماعية يختلف عن المفهوم الذي اعتدنا عليه سابقاً ، هو مفهوم «الوطن» بدلا من مفهوم « العشيرة » أو « المحلة » ، وصارت الحكومة بمؤسساتها وقوانينها هي التي يجب أن يخضع لها الفرد بدلا من الخضوع للعرف العشائري القديم • وهنا نشأ أحد مظاهر التناشز الاجتماعي فينا • فنحن حفظنا الحقوق التي لنا على الحكومة ، وأخذنا نتحمس لها ونهتف بها ونخطب فيها ، ولكننا نسينا أن الحكومة لها في نفس الوقت واجبات على الفرد يجب أن يقوم بها •

من طبيعة الانسان بوجه عام أنه سريع الى إدراك ما له من حقوق تجاه غيره ، أما الواجبات المتصلة بتلك الحقوق فهو يحاول أن ينساها ،

أو يتهرب منها ، أو يتقاعس عنها ، ثم يجد تبريراً لما فعل على وجـه من الوجوه • إن الانسان بعبارة أخرى أسرع الى المطالبة بحقوقه منـــه الى القيام بواجباته ، وهذا هو ما فعله الفرد العراقي حين جاءت اليه الحضارة الحديثة بمفاهيمها ومبادئها •

كان العراقيون في العهد العثماني يعتبرون الحكومة عدوة لهم ، فهم يفتخرون بعصيان أوامرها ، ويحتقرون من يتعاون معها وقد ينظرون اليه كما ينظرون الى جاسوس ، واذا جاءهم هارب من الحكومة ولجأ عندهم « دخيلا » فالمفروض فيهم أن يخفوه ويدافعوا عنه ويضللوا رجال الحكومة عنه • وقد بقيت هذه العادات الاجتماعية شـــائعة بين الناس حتى هـــذه الساعة ، ولا يزال الكثيرون منهم لا يحتقرون من يخالف القانون ، أو يكسر مصابيح الشارع ، أو يخرج على صف الانتظار ، أو يعاون الاشقياء واللصوص ، وربما احترمه بعضهم واعتبروه رجلا قوياً يتحدى الحكومة ولا يخاف •

في العراق ظاهرة اجتماعية عامة نكاد نلاحظها في كل مكان هي أن الفرد العراقي ميال الى انتقاد حكومته ووضع اللوم عليها في كل ما لا يعجبه من أمور الحياة ، وكثيراً ما يقارن حكومته بالحكومات الراقية حضاريـــاً ثم يأخذ بالتأفف والشتم • إنه يريد من حكومته أن تكون أرقى حكومـــة في الدنيا ولكنه ينسى أنه لا يتعاون معها ولا يطيع قوانينها ، أو هو بعبارة أخرى يريد منها أن تكون كحكومة السويد مثلا بينما هو يسلك تجاههـــا كما كان أبوه يسلك تجاه الحكومة العثمانية • إنه حفظ الحقوق التي له على الحكومة كالمواطن السويدي ولكنه لا يقوم مثله بالواجبات التي لهـــا عليه • ولست أقول هذا من باب الدفاع عن الحكومة العراقية ، بل هـــي حقيقة اجتماعية يجب أن تقال !

تناشز المدارس والوظائف :

كان النظام الطبقي في العهد العثماني مغلقاً أو شبه مغلق ، فالولد يمتهن حرفة أبيه في الغالب ، وكان الشعار السائد بين الناس : « ما يصيبك الا نصيبك » • وحين فُتحت بعض « المكاتب » ـ أي المدارس الحديثة ـ في أواخر ذلك العهد لم يدخل فيها سوى أبناء الموظفين ، أو « الافندية » كما كانوا يسمونهم ، وقليل من أبناء المتصلين بهم من الوجهاء • أما عامة الناس فلم يُدخلوا أبناءهم في « المكاتب » إذ لم يخطر ببالهم أن أبناءهم يمكن أن يكونوا « أفندية » في يوم من الايام ، أضف الى ذلك أن الشائع بينهم هو أن « المكتب » يفسد الاولاد ، ومن هنا نشأ المثل الدارج : « ذب الكتب من إيدك شغل المكتب ما يفيدك » •

ولكن هذا الوضع انقلب رأساً على عقب بعد مرور سنوات معدودة على انتهاء الحرب العالمية الاولى ، فقد صار الاقبال على المدارس من مختلف طبقات السكان كأنه تيار هائل يتضخم عاماً بعد عام ، وأصبح كل من يدخل المدرسة يطمح أن يكون في المستقبل « أفندياً » يشار اليه بالبنان • واختفى شعار « القسمة والنصيب » من أذهان هذا الجيل حيث حل محله شعار : « كل من جد وجد » و « كل من سار على الدرب وصل » •

الواقع أن الحكومة العراقية قد توسعت في دوائرها وتنوعت منذ بداية تأسيسها حتى الآن ، وقد استطاعت بشيء كثير من الصعوبة أن تستوعب المتخرجين من المدارس ، سنة بعد أخرى ، ولكن هذا التوسع في الدوائر الحكومية لا يمكن أن يجارى النمو الهائل في عدد المتخرجين ، ولابد أن يأتي يوم تتوقف الدوائر عن استيعاب أي موظف جديد الا بنطاق ضيق جداً ، ويخيل لي أن هذا اليوم قريب أو هو على وشك أن يحل •

إن عدد تلاميذ المدارس الابتدائية في العراق اليوم يزيد على المليون ، مع العلم أن عدد سكان العراق كله لا يزيد على العشرة ملايين • وهؤلاء

التلاميذ كلهم يأملون أن يدخلوا المدارس الثانوية بعد تخرجهم من المدارس الابتدائية ، وأن يدخلوا الكليات بعدئذ ، وأن يحصلوا على الوظائف اللائقة بهم أخيراً • وهم اذا فشلوا في دراستهم كانوا مشكلة لانفسهم وأهليهم ، واذا نجحوا كانوا مشكلة للحكومة • فليس من السهل عليهم أن يعودوا الى مهن آبائهم ، وليس من السهل عليهم كذلك أن يعودوا الى عقيدة « القسمة والنصيب » ؟ وليس في هذه الدنيا حكومة تستطيع أن تجعل جميع رعاياها « أفندية » من أولي « الياقات » البيضاء !

تناشز المرأة والرجل :

جاءتنا الحضارة الحديثة بمفاهيم وقيم من حيث علاقة المرأة والرجل تختلف كل الاختلاف عن تلك التي اعتدنا عليها في الجيل الماضي ، فقد كانت المرأة آنذاك لا يجوز أن تبدي رأيها علانية في أمر زواجها ، إن أهلها هم الذين يفاوضون في زواجها ويساومون على مهرها ، وليس لها الا أن تقول « نعم » ، أما اذا امتنعت عن النطق بهذه الكلمة فقد تُتهم بأنها « عاشقة » وقد ينهال ولي أمرها عليها بالعصا ، أو يذبحها بالخنجر •

كان نظام الزواج في الماضي يقوم على مفهوم « الخطبة » وهو الآن في تحول سريع نحو مفهوم « الحب » • إن المرأة الحديثة بعد أن تعلمت وتوظفت أصبحت لا ترضى لنفسها أن تكون موضع مساومة لا ارادة لها فيها ، فهي تريد أن يكون أمرها بيدها تختار لنفسها من تشاء ، وهي تقصد بهذا أنها تريد أن تتزوج من يبادلها الحب والغرام •

صار « الحب » أسطورة شائعة بين فتيات هذا الجيل وفتيانه ، وكأنه حلم من أحلام الحياة لا يمكن للانسان أن يعيش بدونه • وقد ساعدت المخترعات الحديثة على شيوع هذه الاسطورة ، كالحاكي والسينما والمذياع ومكبر الصوت والمسجل ، فأمست أغاني الحب تلعلع في كل مكان ويترنم

بها حتى الكهول من أمثال كاتب هذه السطور •

وأخيراً جاء التلفزيون ـ أو التلفاز كما أحب أن أسميه ـ فكان أعظمها تأثيراً إذ هو بمثابة سينما ومرقص ومغنى يأتي الانسان بها الى بيته فينشأ عليها الاطفال ذكوراً واناثاً • وسيأتي يوم نطلق فيه على هؤلاء الاطفال حين يكبرون اسم « جيل التلفزيون » كمثل ما أطلقنا على الاطفال الذين ولدوا بعد الاحتلال البريطاني اسم « أولاد السقوط » •

إن أبناء هذا الجيل ينشأون على رؤية التلفاز في بيوتهم ، حيث يشهدون به في كل يوم فيلماً أو تمثيلية أو أغنية أو رقصة وهي كلها تهتف « الحب •• الحب •• الحب ••• » ، فتنغرز أسطورة الحب في أعماق قلوبهم • وهم لا يكادون يبلغون الحلم حتى يبدأوا يحاولون تقليد ما شهدوا في التلفاز من أفانين العشق ، فالفتى ينشد فتاة أحلامه ، والفتاة تنشد فتى أحلامها ، وهم يظلون يحلقون في عالم الاوهام السعيدة الى أن يأتيهم يوم يرتطمون فيه بصخرة الواقع التي لا محيص عنها ، إنها صخرة التناشز الاجتماعي الذي يحيط بهم من حيث لا يشعرون •

مشكلة هؤلاء أنهم تغيروا بمفاهيمهم العائلية تغيراً سريعاً ، بينما عماتهم وخالاتهم وعجائز محلتهم لم يزلن محافظات على مفاهيمهن القديمة أو هن لم يتغيرن فيها الا قليلا • فالفرد من الجيل الجديد قد يندفع في سبيل الغرام وهو يحسب أن عجائز المحلة قد وقعن في الغرام مثله •

وهناك ناحية أخرى من هذا التناشز يحدث في أعماق الفرد نفسه ، فالفتى قد يندفع في الغرام مع فتاة ويغريها بمعسول كلامه ، حتى اذا استجابت له وأرادت الزواج به انتفضت التقاليد العائلية القديمة من أعماقه ، فنسي وعوده المعسولة لتلك الفتاة ، وأخذ يبحث عن فتاة أخرى تلائم تلك التقاليد ، وربما أرسل الخاطبات ليخطبن له على طريقة الآباء والاجداد •

إن الافلام التي تعرض على شاشة التلفاز أو السينما تمثل في الغالب

العادات الاجتماعية السائدة في بلاد الغرب ، فالمفروض في الفتى الغربي الذي يغازل فتاته أنه يحبها فعلا وأنه يبتغي الزواج بها ٠ أما الفتى العراقي فقد تعلم مظاهر هذه العادة قبل أن يتعلم العادة نفسها ، إنه يحاكي الفتى الغربي في المرحلة الاولى من الحب حين يناغي فتاته بأناشيد الغرام ، ويغدق عليها الوعود الخلابة ، ولكنه عندما ينوي الزواج ينسى ذلك كله ويأخذ بالبحث عن زوجة « صالحة » لا تعرف الحب والهيام ٠ إن الفتى العراقي يمكن أن يوصف بأنه « جيمس سنيوارت » في ظاهره ، و « حاج عليوي » في باطنه ٠ إنه مزدوج في شخصيته ولا يدري أنه مزدوج !

تناشز الدين والجيل الجديد :

كان رجال الدين في العهد العثماني منسجمين مع الوضع الاجتماعي الذي يعيش فيه عامة الناس ، فلا تناشز بينه وبينهم ، وكان أكثر الناس يلجأون الى رجال الدين في حل مشكلاتهم العائلية والاجتماعية وغيرها ، ولم يكن هناك أفضل وأقدر من رجال الدين في حل تلك المشكلات إذ هم كانوا يمثلون الفئة « المثقفة » في ذلك العهد علاوة على كونهم يمثلون الدين وتعاليمه المقدسة ٠

وحين جاءت الحضارة الحديثة الى العراق ، ونشأ جيل جديد عليها ، ظهرت فجوة واسعة في العقلية والنظرة الى الحياة بين رجال الدين والمتعلمين من الجيل الجديد ٠ وهناك أسباب عديدة لهذه الفجوة نذكر منها ما يلي :

أولا : موقف التزمت الشديد الذي وقفه رجال الدين في بداية الامر تجاه ما جاءت به الحضارة الحديثة من أفكار ونظم وأزياء ، فقد حرّموا مثلا المدارس والوظائف ، كما حرموا القبعة والسفور وحلق اللحية ، وقراءة الجريدة وتعلم اللغات الاوربية ، والقول بكروية الارض وأن المطر من البخار ، وكثير غير ذلك ٠ إن تيار الحضارة قوي جارف لا يستطيع أحد الوقوف في وجهه ، وقد اندفع في تياره المتعلمون من الجيل الجديد

غير مكترثين لتحريم رجال الدين • ومما يلفت النظر أن أبناء رجال الدين أنفسهم قد اندفعوا بتيار الحضارة أيضاً فدخلوا المدارس كغيرهم من أبناء الناس وحلقوا لحاهم وقرأوا الجرائد وتوظفوا ، ثم تزوجوا البنات السافرات ••• الخ •

ثانياً : كان من أهم ما يشغل تفكير رجل الدين في الماضي هو التفريق بين الحلال والحرام ، وبين الطاهر والنجس ، وحين نقرأ مجلدات الفقه الضخمة نجدها لا تخرج عن نطاق هذين الموضوعين الا قليلا ، وقد يستغرب القارىء حين يعلم أن « الطهارة » تستغرق حيزاً كبيراً جداً من مجلدات الفقه وأوقات الفقهاء مع العلم أن هذا الموضوع لم يأت عن النبي فيه سوى أحاديث معدودة ولكن الفقهاء فرعوا فيها وفصلوا ، جيلا بعد جيل ، حتى وصلوا بها الى هذا التضخم الهائل العجيب • ومشكلة رجال الدين اليوم أن المتعلمين من الجيل الجديد لم يعودوا يحتاجون الى مثل هذه القضايا ولا يسألون عنها كما كان آباؤهم يفعلون ، فالواحد منهم لا يهتم بالنجس والطاهر ، وقد يبول واقفاً من غير « خرطات » ، كل ما يهتم به هو وجود الجراثيم التي تنقل الامراض ولا يبالي بما سواه • فمادة الكحول مثلا هي في نظره طاهرة لانها تقتل الجراثيم بينما هي في نظر رجل الدين في غاية النجاسة • فما أبعد الشقة بينهما يا ترى !

ثالثاً : لا يزال رجال الدين يجرون في كتاباتهم وخطبهم على قواعد المنطق الارسطوطاليسي القديم ، وهو منطق يصلح للجدال انما هو لا يصلح لاكتشاف الحقائق أو التثبت منها • إنه منطق الادلة المتكافئة حيث تستطيع أن تبرهن به على صحة أي رأي وعلى صحة نقيضه في آن واحد • يظهر هذا بوضوح في الجدال الطائفي الذي لا يزال بعض رجال الدين يشغلون أنفسهم به ، فالرجل منهم يأتي بعشرات الادلة « العقلية » و « النقلية » يريد أن يبرهن بها على صحة العقيدة التي نشأ عليها ، مع العلم أنه لو كان نشأ في بيئة طائفية أخرى لكانت أدلته « العقلية »

و « النقلية » من طراز آخر • إن كثيراً من الكتب التي يصدرها رجال الدين في هذه الايام هي من هذا النمط ، وهي تكلف أموالا وجهوداً غير قليلة ولكنها لا تنتج الفائدة المطلوبة منها إذ لم يتحول أحد من الطائفة التي نشأ فيها الى الطائفة الاخرى من جراء اقتناعه بالادلة الموجودة فيها • ان هذه الكتب لا تقنع الا أصحابها أو المحافظين الذين يفكرون مثلهم ، أما المتعلمون من الجيل الجديد فهم لا يقرأونها لانهم مشغولون بكتب أخرى ، وهم عندما يهتمون بالقضايا الطائفية إنما يبتغون منها أن تساعدهم في الحصول على الوظيفة أو الترقي فيها ، وتراهم لا يبالون بعدئذ أن تكون هذه الطائفة أو تلك على حق أو على باطل •

رابعاً : نشأت في العهد العثماني طقوس دينية كانت ملائمة لعقول الناس آنذاك ومنسجمة مع قيمهم الاجتماعية ، وحين جاءت الحضارة الحديثة وتفتحت أذهان الناس أخيراً بقيت تلك الطقوس على حالها ، وربما نما البعض منها وتضخم • وأوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو ما يسمى بـ « المواكب الحسينية » ، فقد أخذت هذه المواكب تتضخم عاماً بعد عام بشكل لا ينسجم مع روح العصر ، ويؤدي الى الضرر في النفس والمجتمع ، ووقف الكثير من رجال الدين موقف المتفرج تجاه هذا التضخم « المخزي » ، وربما أيده البعض منهم بأدلته « العقلية » و « النقلية » ، بينما الواجب الديني يقضي عليهم أن يهبوا جميعاً لمكافحته والقضاء عليه • إن الحجة التي يتمسك بها رجال الدين لتبرير موقفهم هذا هو أن العوام لا يطيعونهم ، وقد قال لي أحدهم ذات يوم : « لو جاء الحسين نفسه يردع العوام عن تلك المواكب لما سمعوا منه » •

خلاصة القول إن رجال الدين لم يستطيعوا أن يجاروا التغير الفكري الذي حدث في العصر الحديث • نحن لا ننكر أن فريقاً منهم بدأوا يتعلمون الآراء الحديثة ويحاولون التكيف للظروف المستجدة ، ولكن تغيرهم هذا بطيء بالمقارنة الى التغير الهائل الذي حدث في عقلية الكثير من الناس •

الملحق الثاني

الفرضيات الثلاث

قد يلاحظ القارىء الذي تابع دراساتي الاجتماعية ، منذ صدور أول كتاب لي في عام ١٩٥١ حتى الآن ، أني حاولت تفسير المجتمع العراقي في ضوء فرضيتين : احداهما « ازدواج الشخصية » ، والثانية « صراع البداوة والحضارة » ، ثم أضفت اليهما في الآونة الاخيرة فرضية ثالثة هي فرضية « التناشز الاجتماعي » • ولابد لي من أن أعترف في هذه المناسبة ـ كما اعترفت في مناسبات سابقة ـ أن هذه الفرضيات ليست من بنات أفكاري ، بل اقتبست كل واحدة منها من عالم اجتماعي معروف : فالاولى اقتبستها من مكايفر ، والثانية من ابن خلدون ، والثالثة من أوكبرن ، غير أني حورت وبدلت في كل واحدة منها ـ قليلا أو كثيراً ـ لكي أجعلها أكثر انطباقاً وانسجاماً مع ظروف المجتمع العراقي وطبيعة تكوينه •

وأود أن ألفت نظر القارىء الى أن هذه الفرضيات الثلاث مترابطة فيما بينها ترابطاً وثيقاً ، وقد يصح اعتبارها أوجهاً مختلفة لموضوع واحد هو موضوع المجتمع العراقي في المرحلة الراهنة التي يمر بها • وفيما يلي تلخيص لتلك الفرضيات حيث أعرضها حسب تسلسلها المنطقي لكي يتبين القارىء مبلغ الارتباط بينها بالنسبة للموضوع العام الذي تتصل به •

صراع البداوة والحضارة :

إن الوطن العربي الذي يمتد من المحيط الاطلسي غرباً الى الخليج العربي شرقاً يشتمل على أعظم منطقة صحراوية في العالم ، وهو يشتمل كذلك من خلال هذا الامتداد الصحراوي على بقاع خصبة وافرة المياه •

فالصحراء تنتج البداوة بينما البقاع الخصيبة تنتج الحضارة وقد كانت تلك البقاع في الواقع مهداً لأعرق الحضارات البشرية • ولهذا كان الوطن العربي ميداناً للصراع بين البداوة والحضارة منذ بداية التاريخ ، ولا يزال كذلك حتى يوم الناس هذا • ويندر أن نجد منطقة أخرى على وجه الارض تشبه الوطن العربي في ذلك •

ويتضح صراع البداوة والحضارة بأجلى مظاهره في العراق لأسباب لا مجال هنا لذكرها • إن العراق هو « بلد هابيل وقابيل » على حد تعبير المؤرخ المعروف توينبي • وهذا هو الذي جعل المجتمع العراقي عرضة لمد البداوة وجزرها على توالي العصور ، يأتيه المد البدوي تارة وينحسر عنه تارة أخرى حسب تفاوت الظروف • ويمكن القول إن أطول فترة سيطر فيها المد البدوي على العراق هي الفترة الاخيرة التي بدأت منذ سقوط الدولة العباسية ، أو قبل ذلك بقليل ، ثم استمرت ما ينوف على الستة قرون • فقد كانت تلك فترة شاذة اشتد فيها المد البدوي الى الدرجة القصوى إذ انهارت فيها سلطة الدولة ، واختل نظام الامن ، وتتابعت الفيضانات والاوبئة والمجاعات ، مما جعل الحضارة تذوي في العراق وتستفحل القيم البدوية فيه •

يكفي لفهم طبيعة تلك الفترة أن نذكر أن ثلاثة أرباع السكان فيها كانوا يخضعون للتنظيم العشائري وتسيطر عليهم قيم العصبية والغزو والثأر والدخالة والتسيار وغسل العار وما أشبه • أما الربع الباقي من سكان العراق ـ وهم الذين يمثلون أهل المدن ـ فهم وإن كانوا يختلفون عن العشائر في بعض الامور الظاهرية ، كالمساكن والملابس وطرق كسب العيش ، غير أنهم في أعماق نفوسهم لم يكونوا يختلفون عن أولئك كثيراً ، وطالما تعصب ابن المدينة لمحلته كمثل ما يتعصب الرجل البدوي لعشيرته •

لم يبق من قيم الحضارة القديمة في تلك الفترة سوى بعض الحرف

والصناعات البسيطة ، ولكننا حين ندرس شخصية صاحب الحرفة نجده أقرب الى قيم البداوة منه الى قيم الحضارة • فهو يود أن يغلب الزبون بدلا من أن يداريه ويرضيه على طريقة أهل الحضارة ، ولا يكاد الزبون يغفل عنه حتى يسرع هو الى غشه • إن نزعة « الغزو » و « الفرهود » أقوى عنده من نزعة العمل والانتاج ، فهو يهتم بالربح العاجل الذي يأتيه عن طريق الغلبة أكثر من اهتمامه بالربح الآجل الذي يأتيه من حسن السمعة • ولهذا كانت المشاجرات بين البائع والمشتري ، أو بين العامل وصاحب العمل ، أو بين الحرفي والعميل ، كثيرة الشيوع في المدن العراقية • والويل لمن يريد أن يبني داراً فانه سيحاط بعدد كبير من الناس وكل واحد منهم يحاول انتهاز الفرصة لغبنه أو التدليس عليه • واذا غشك أحدهم في شيء فانه لا يستحي من ذلك وربما ابتسم لك ابتسامة صفراء يشير بها الى أنه غلبك وضحك عليك •

التناشز الاجتماعي :

أهم سبب للتناشز الاجتماعي الذي نعانيه في المرحلة الراهنة هو أن الحضارة الحديثة جاءت الينا بأفكار ومبادىء ومفاهيم تناقض العادات الاجتماعية التي نشأنا علينا في بيئاتنا المحلية • فهي قد جاءت لنا مثلا بمبادىء المساواة والعدالة والديمقراطية والحرية والوطنية وما أشبه ، وهذه في حقيقة أمرها لا تنسجم مع قيم العصبية والقرابة والجيرة والنخوة والدخالة وحق الزاد والملح وغيرها من العادات التي كانت سائدة في الجيل الماضي ولا يزال أثرها باقياً في أعماق النفوس •

إن الأفكار الحديثة قد جاءتنا من طرق شتى كالمدارس والاحزاب ، والحفلات والمظاهرات ، والصحف والكتب ، والاذاعات والتمثيليات ، فحفظناها بسرعة لانها تلائم ما نشعر به من طموح أو نتحسس به من آلام ، ولكننا حين فعلنا ذلك لم نستطع أن نغير عاداتنا الاجتماعية التي

نشأنا عليها بمثل السرعة التي غيرنا بها أفكارنا •

يجب أن لا ننسى أن الحضارة هي عادات ونظم اجتماعية قبل أن تكون أفكاراً ومحفوظات • فالفرد في البلاد الراقية حضارياً ينشأ في حياته البيتية على عادات تلائم الحضارة التي يعيش فيها ، ولهذا فهو اذا كبر لا يجد فرقاً كبيراً بين حياته الاولى في طفولته وحياته الثانية في كبره • أما الفرد عندنا فهو قد ينشأ في بيئة محلية مفعمة بقيم العصبية والكسار والثأر والشقاوة والغلبة ، حتى اذا كبر تعلم أفكاراً مناقضة لتلك القيم ، وهو بذلك قد يجد نفسه مضطرا أن يجاري هذه تارة وتلك تارة اخرى • انه بعبارة اخرى يعيش في عالمين متضادين : عالم المثل العليا الذي ينادي بها في كتاباته وخطاباته ، وعالم الواقع الذي يعيش فيه بمفاخراته ومنابزاته •

ان العادات تميل بطبعها الى الجمود والتعلق بالماضي ، وان هي تغيرت كان تغيرها بطيئاً • أما الافكار ولا سيما فيما يخص المبادىء السياسية الجديدة فهي يمكن أن تتغير في أذهان الناس خلال وقت قصير ، فبمجرد أن تُلقي على الناس خطبة رنانة تضرب بها على أوتار قلوبهم حتى تجدهم قد تأثروا بها وحفظوا ما جاء بها من أفكار ، وربما أخذوا بدورهم يخطبون بها على من هم دونهم من الناس •

ازدواج الشخصية :

ان ازدواج الشخصية[١] هو أن يسلك الانسان سلوكاً متناقضاً دون

---

(١) هناك فرق كبير في موضوع ازدواج الشخصية بين المعنى النفسي منه والمعنى الاجتماعي ، ونحن هنا إنما نبحث في المعنى الاجتماعي منه ، فنرجو من القارىء الانتباه الى ذلك حذراً من الالتباس • انظر كتاب المؤلف « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » ـ بغداد ١٩٦٥ ـ الفصل الحادي عشر•

أن يشعر بهذا التناقض في سلوكه أو يعترف به ، وهو ينشأ عن وقوع الانسان تحت تأثير نظامين متناقضين من القيم أو المفاهيم ، فهو يتأثر بأحد النظامين تارة ، وبالآخر تارة اخرى • والواقع أن الازدواج بهذا المعنى كان موجوداً في العهد العثماني ، انما كان على نطاق ضيق ومقتصراً على بعض سكان المدن والقليل من سكان الارياف •

أستطيع أن أقول ان ازدواج الشخصية كان منتشراً بين اولئك الذين ينشأون في بيئة دينية متزمتة يكثر فيها الوعظ ، فهم يتأثرون بالمواعظ ظاهراً وقد يعظون غيرهم بنفس العبارات التي سمعوها من الواعظين ، غير أنهم في حياتهم العملية يسيرون حسب القيم المحلية التي تناقض التعاليم الدينية كل المناقضة ، وهم يفعلون ذلك دون أن يفطنوا الى ما في سلوكهم من ازدواج عجيب • ان الفرد منهم حين يكون تحت تأثير الموعظة يبدو كأنه انسان ورع تقي يخاف الله ويؤمن بأن الدنيا دار فناء وأن الآخرة دار بقاء ، ولكنه ينسى ذلك كله حالما يشهد معركة محلية ، أو يدخل في منابزة أو مفاخرة مع أحد ، فهو ينقلب فجأة الى رجل من طراز « عباس السبع » أو « حسن كبريت » ، وتراه اذذاك يتباهى بالغلبة والاغتصاب والاعتداء والنهب والخديعة ، ويحتقر المعتدى عليه باعتبار أنه « مخنث » لا خير فيه •

ان هذا النوع من الازدواج الذي كان موجوداً في العهد العثماني قد نشأ من جراء التناقض بين التعاليم الدينية والقيم المحلية وقد اعتاد عليه الناس على توالي القرون حتى صار فيهم عادة مألوفة ، أما الازدواج الحديث فهو قد نشأ فيهم من جراء التناشز الاجتماعي الذي تحدثنا عنه آنفاً ، وهو أوسع انتشاراً من الازدواج القديم وأشد وضوحاً ، وربما كان الكثير من المصابين به يفطنون اليه ولكنهم لا يكترثون له •

ان الازدواج الحديث أصبح الآن منتشراً بين شتى فئات السكان

لا سيما المتعلمين منهم ، وربما صح القول ان كل متعلم ، أو شبه متعلم ، يكاد لا يخلو من ازدواج في شخصيته قليلا أو كثيراً . انه قد حفظ الافكار والمبادىء الحديثة وهو يتحمس لها ويكثر من ترديدها في مقالاته وخطاباته ، واذا جلس في مجلس عام نراه شديد الانتقاد لكل من يخالف تلك المبادىء – من حكام ورعايا – ولكنه يخالفها هو نفسه كل يوم في حياته العملية من حيث يدري أو لا يدري .

ان الذي يستمع الى خطاباتنا ومقالاتنا يحسب أننا وصلنا في علاقاتنا الاجتماعية الى أرقى ما وصلت اليه الامم المتقدمة قبلنا ، ولكن هذا « الرقي » لا يعدو طور الكلام في الغالب ، اذ لا تكاد تتغلغل في أعماق المجتمع حتى تجده لم يتغير في عاداته عما كان عليه في الماضي الا قليلا .

الازدواج وظاهرة الوساطة :

أوضح مثل يمكن أن نأتي به عن ازدواج الشخصية في المرحلة الراهنة هو ظاهرة « الوساطة » ، فنحن جميعاً نشجب الوساطة في مقالاتنا وخطاباتنا ، ونحن جميعاً نعمل بها في حياتنا العملية فنوسط أو نتوسط حسبما يقتضيه المقام .

اننا نحترم الوسطاء من اولي النفوذ ونمدحهم حين يقومون بالوساطة لنا أو بتأثير رجاء منا ، ولكننا لا نكاد نراهم يتوسطون لغيرنا حتى نأخذ بذم الوساطة وندعو الى مبدأ المساواة وعدم التفريق بين المواطنين . اننا بعبارة اخر ندعو الى الوساطة تارة والى المساواة تارة اخرى مع العلم أنهما في الحقيقة مبدآن متناقضان .

كنت ذات يوم جالساً في احدى المقاهي المحلية في بغداد القديمة اصغي الى أحاديث الناس ، فوجدت زمرة منهم يتحدثون بحماس عن موظف كبير من أبناء محلتهم ، فهم يمدحونه ويصفونه بأنه « شهم »

و « سبع » و « ابن أجاويد » لأنه يساعد « جماعته » في قضاء حاجاتهم ، وهو لا يكاد يلمح أحداً من أبناء محلته قادماً اليه حتى يهب لمساعدته في كل سبيل ، وقد يعطل أعمال الناس في سبيل انجاز عمله ، وربما ترك دائرته ليتوسط له في الدوائر الاخرى . ثم أخذوا يقارنون بين هـذا الموظف « الشهم » وبين موظف آخر من أبناء محلتهم أيضا ، فمطـوا شفاههم اشمئزازاً منه ووصفوه بأنه « مخنث » وأنه « بومة » اذ هو لا يفرق بين « جماعته » وغيرهم ، وليس لديه نخوة ، فاذا جاء اليه أحدهم يستنجده في حاجة أخذ يتمتم ويمطمط اعتذاراً وأسفاً .

ان هؤلاء لم يخرجوا في حديثهم هذا عن القيم المحلية التي نشأوا عليها في بيئتهم القديمة ، فهم لا يزالون يؤمنون بالعصبية والنخوة وحق الجيرة والزاد والملح وما أشبه . أما مبدأ المساواة بين المواطنين فهو أمر جديد عليهم ، وهم ينادون به عندما تكون لهم حاجة به . فاذا كانت لهم معاملة في احدى دوائر الحكومة مثلا ، ثم وجدوا غيرهم قد تقدم عليهم في انجـاز معاملتـه عن طريق وسـيط من ذوي النفوذ ، رفعـوا اذ ذاك عقيرتهم يشجبون هذا الظلم الواقع عليهم وينادون بالويل والثبور عـلى الظالمين .

وقد يستفحل هذا الازدواج عند بعض الذين يعملون في السياسة ويتزعمون الجماهير ، فهم يخطبون ويهتفون بمباديء العدالة والمسـاواة والديمقراطية التي لا تفرق بين المواطنين ويدعون الى اعطاء كل ذي حق حقه ، ولكنهم لا يكادون يتولون مناصب الحكم حتى ينسوا ما هتفوا به وخطبوا ، وأخذوا يوسطون ويتوسطون كغيرهم من النـاس . انهم لا يختلفون عن رواد المقهى الذين تحدثنا عنهم اختلافاً كبيراً .

مما يجدر ذكره في هذا الشأن أن الناس ليسوا كلهم على درجـة واحدة في ازدواج شخصيتهم ، فمنهم من يشتد فيهم الازدواج ومنهم من

يضعف فيهم ، وبين هؤلاء واولئك درجات شتى • والملاحظ في الحياة الاجتماعية بوجه عام أنه كلما كان الفرد أكثر انتقاداً لغيره كان الازدواج فيه أشد ، وقد نجد نماذج كثيرة في مجتمعنا لهذا الطراز من الافـــراد الذين دأبوا على انتقاد كل شيء يرونه ، فهم ينتقدون كل انسان كمـــا ينتقدون كل عمل تقوم به الحكومة أو أية مؤسسة اخرى • انهم يريدون من الناس أن يكونوا ملائكة معصومين من الخطأ ، وأن تكون الدنيا جنة الفردوس ، مع العلم أنهم في سلوكهم الواقعي لا يختلفون عن غيرهم من الناس وربما كانوا أشد من غيرهم انحرافاً عن المثل العليا التي ينـادون بها في انتقاداتهم المتتابعة •

خطأ شائع :

هناك خطأ شائع لا يزال بعض مفكرينا يؤمنون بصحته هو أننـــا نستطيع أن نجمع في أنفسنا محاسن الحضارة الحديثة مع محاسن التراث الاجتماعي الذي نشأنا عليه ، أي أننا نستطيع أن نكون من أرقى الامم في العلم والصناعة والجهاز الحكومي مع المحافظة على روابط القرابة والجيرة والنخوة والمروءة والزاد والملح وغيرها من القيم المحلية التي ورثناها عن الآباء • منشأ الخطأ لدى هؤلاء أنهم لا يدركون طبيعة التناقض بـــين الحضارة الحديثة وقيمنا المحلية القديمة ، فلقـــد نشأت تلك القيم في مجتمع بدوي وهي ملائمة له كل الملائمة ، انما هي اذا سيطرت في مجتمع حديث أدت الى انحطاطه وهدمه •

يمكن تشبيه الحضارة الحديثة بالماكنة المعقدة ذات الاجزاء الدقيقة ، فكل جزء منها يجب أن يكون في مكانه المناسب له ، وهي تتوقف عـــن العمل عند طروء أي خلل في أي جزء منها مهما كان صـــغيراً • ان الحضارة بعبارة اخرى تقوم على أساس الاختصاص وتقسيم العمل وعلى أساس وضع الشخص المناسب في المكان المناسب •

ان قيمنا المحلية القديمة تفرض على كل رجل من ذوي النفوذ أن يهب لنجدة من يأتيه راجياً اياه في حاجة ، والمتوقع منه أن يتوسط له في دوائر الحكومة والمؤسسات العامة والخاصة ، فاذا نجح في ذلك مدحه الناس ، أو افتخر هو به أمام الناس ، ولكنه لا يدري أنه بعمله هذا كان كمن يضع أجزاء « الماكنة » في غير أماكنها المناسبة ، أو كمن يضع جزءاً مكان جزء فيها • فهو يعطل « ماكنة » الحضارة في بلاده ويحسب أنه فعل خيراً •

اننا تحت تأثير قيمنا المحلية القديمة لا نستطيع أن ننظر الى الفرد نظرة خالية من اعتبارات العصبية والقرابة والجيرة والصداقة والفضل وما أشبه ، ومعنى هذا أننا لا نستسيغ في علاقاتنا الاجتماعية مبدأ «الفردية» الذي هو من أهم اسس الحضارة الحديثة • فالفرد في نظرنا ليس كما هو في حد ذاته ، وما لديه من محاسن ومساويء خاصة به ، بل بما له من روابط شخصية وعائلية وعشائرية وغيرها •

ان « الفردية » مبدأ جديد بالنسبة لنا وطاريء علينا ، ويتضح هذا في الشتائم الشائعة بين العامة في العراق فهم لا يشتمون الشخص وحده بل لابد أن يلحقوا به في الشتيمة أباه وامه ، أو اخوته وأخواته ، أو سائر عائلته أو عشيرته • ولا حاجة بنا الى القول ان الشتائم العامية هي من أوضح الدلالات عما في المجتمع من نزعات وقيم •

الاخلاق والامور الجنسية :

وهناك ناحية اخرى من هذا الموضوع جديرة بأن نتطرق اليها في هذه المناسبة هي ناحية الاهتمام الشديد بالامور الجنسية ، فنحن من أشد الامم اهتماماً بهذه الامور ، ونستطيع أن نستدل على ذلك بالشتائم العامية الشائعة بيننا فقلما يتشاتم العامة دون أن يكون لتلك الامور أثر في

شتائمهم المتبادلة ، وهم لا يشتمون الفرد اذا كان في علاقاته الجنسية « فاعلا » فذلك في نظرهم من امارات الغلبة والرجولة ، انما العار كل العار أن يكون هو أو أحد أفراد عائلته « مفعولا به » •

والملاحظ أن الكثيرين منا اذا ذكروا الاخلاق السائدة في البلاد الراقية حضارياً ـ ولا سيما فيما يتصل بالامور الجنسية منها ـ أبدوا اشمئزازهم منها وأخذوا يطنبون في مدح أخلاقنا القديمة بالمقارنة اليها • حدثني رجل من تجار بغداد كان قد زار باريس في احدى جولاته التجارية ، فقال انه ركب ذات مرة قطار تحت الارض فرأى فيه مشهداً اجتماعياً أثار غضبه ، انه رأى فتى وفتاة يتعانقان ويقبل أحدهما الآخر ، فأخذ يحملق فيهما ويحوقل ، وقد استغرب حين وجد الركاب ينظرون اليه شزراً ويحتقرونه بدلا من احتقار العاشقين المتعانقين • ان هذا الرجل لا يزال ينظر الى الامور من خلال القيم المحلية القديمة التي نشأ عليها في بغداد ، فهو يعتبر تبادل القبلات بين ذكر وانثى أمام الناس من أبشع الرذائل الخلقية ، وهو قد اعتاد في محلته أن يكون بمثابة رقيب على كل من يفعل ذلك فيوبخه أو يصفعه ، وقد يجتمع أهل المحلة ليعاونوه في ذلك وربما اتفقوا جميعا على طرد هذا « العنصر الفاسد » من المحلة •

ان الحضارة الحديثة تقوم على أساس آخر من الاخلاق ، فالناس فيها لا يكترثون أن يفعل الانسان بنفسه ما يشاء ما دام لا يتعرض بغيره أو يعتدي عليه • فالحرية الفردية هي المحور الذي تدور عليه أخلاق الحضارة ومؤداها أن الفرد حر أن يفعل ما يشاء ما دام لا يتعرض بحرية غيره • ولذا رأينا ركاب القطار بباريس لا يمتعضون من رؤية ذكر وانثى يتعانقان لانهما لم يضرا بذلك أحداً ، غير أنهم امتعضوا من صاحبنا البغدادي لأنه حملق فيهما وحوقل وهذا في نظرهم تدخل في حرية الغير •

الملحق الثالث

الشعر والحضـارة

كان من نتائج النكسة التي حلت بنا في حزيران عـام ١٩٦٧ أن صار كل فريق منا يحاول أن يجد سبباً للنكسة لكي يلقي اللوم عليـه ويستريح ، وقد وصل الحال بالبعض منا الى حد أنه اعتبر غناء ام كلثوم أحد أسباب تلك النكسة • ولكن أمراً واحداً غفلوا عنه في هذا الصدد هو ولعنا المفرط بالشعر ، ولست أدري لماذا غفلوا عنه مع العلم أنه أجدر بأن يكون سببا للنكسة من غناء ام كلثوم •

الواقع أننا من أكثر الامم ولعاً بالشعر وانهماكاً فيه ـ ان لم نكن أكثرهم على الاطلاق ـ وهذا في رأيي من عيوبنا الاجتماعية أو هو بالاحرى من مظاهر التناشز الاجتماعي فينا • فنحن نريد أن نسير في مضـمار الحضارة الحديثة ولكننا في الوقت نفسه نصر على المحافظة على تراثنـا الشعري الذي هو على طرفي نقيض مع نظم الحضارة ومقتضياتها •

ان ولعنا المفرط بالشعر تراث بدوي نشأ فينا منذ أيام الجاهلية حين كانت القبيلة تحتفل بنبوغ الشاعر مثلما تحتفل بنبوغ الفارس الشجاع ، فالشاعر يقاتل عن القبيلة بلسانه كما يقاتل الفارس بسيفه • ان الحياة البدوية تقوم على أساس من الحـرب الدائمة ، ومن خصائصها أنهـا تعتمد على الحماس والفخر والشعر فتلك وسائل ثلاث تؤدي الى هدف واحد هو تقوية معنوية القبيلة تجاه أعدائها • فالقبيلة البدوية هي دائما اما غازية أو مغزية ، وهي اذن في حاجة شديدة الى ما يقوي في كـل

فرد من أفرادها ثقته بنفسه ويدفعه نحو الاقدام على المـــوت من غير اكتراث ظاهر .

يقول عمرو بن كلثوم أحد شعراء الجاهلية المشهورين من قصيدة له يفخر بقبيلته :

ملأنا البر حتى ضاق عنا　　وماء البحـــر نملأه سفينا
اذا بلغ الفطام لنا صبي　　تخر له الجبـــابر ساجدينا

يلاحظ القاريء أن هذا فخار مبالغ فيـــه الى الدرجة القصوى ، والذي يتفوه به من أهل عصرنا قد يُعد في نظر الناس سفيهاً أو مجنونا ، انما هو كان في أيام الجاهلية جائزاً أو مستحسناً ، وهو قد يكون لـــه أثره المجدي من الناحية النفسية والاجتماعية في الحياة البدوية لأنـــه يبعث في الرجل الغرور بنفسه وبقبيلته ويقوي فيه روح العصبية التي هي من شرائط تنازع البقاء في الصحراء .

شعراء السلاطين :

عندما انتقل العرب الى طور الحضارة ظهر عامل جديد في ترويج الشعر وتشجيعه هو جوائز السلاطين المغرية للشاعر المجيد الذي يمدحهم بقصائده الرنانة . وبذا تحول الشاعر من كونه لسان القبيلة والمنـــافح عنها الى كونه مداحا في أبواب السلاطين .

الملاحظ أن معظم الشعراء الذين اشتهروا في هذا الطور نشأوا من أصل وضيع ، فقد يبدأ الرجل منهم حياته وهو في أشد حالات الفقـــر والحرمان ، ثم يرتفع بشعره شيئاً فشيئا ، فاذا ساعده الحظ ونال الحظوة لدى أحد السلاطين صار ذا منزلة رفيعة ، يشار اليه بالبنان ، ويجـالس الامراء والكبراء ، وتكثر لديه الجواري والغلمان . ان مثل هذا الشاعر « العصامي » لا بد أن يكون قدوة ومثالا يحتذى به في نظر الكثيرين من

الشبان الذين نشأوا مثل نشأته ، وقد يدفعهم ذلك الى الانهماك بالشعر طمعاً بأن يرتفعوا به كما ارتفع الشاعر المشهور • ان هذا يشبه من بعض الوجوه ما يحدث الآن في البلاد الراقية حضارياً حيث ينهمك الكثير من أبناء الفقراء بالعلم لكي يصلوا عن طريقه الى ما يطمحون اليه من جاه وثراء ، انما الفرق بينهما هو أن هؤلاء يريدون الارتفاع عن طريق العلم بينما كان اولئك يريدونه عن طريق الشعر • ان الانسان بوجه عام يود الارتفاع بأية وسيلة تتيحها له الظروف الاجتماعية التي تحيط به وهو لا يبالي أن يتم ذلك عن طريق الشعر أو العلم أو أي طريق آخر ـ صالحاً أو طالحاً ـ ما دام يؤدي الى الهدف المنشود • وقد صدق من قال : « اذا أردت أن تعرف طبيعة مجتمع فانظر الى الذين نالوا المكانة المحترمة فيه » •

درجات الشعراء :

من طبيعة البشر انهم حين يتنافسون على شيء لا بد أن تتفاوت درجاتهم فيه تبعاً لاختلاف مواهبهم وظروفهم النفسية والاجتماعية ، وهذا هو ما كان عليه وضع الشعراء في طور الحضارة العربية ، فالقليل منهم هم الذين نالوا الدرجة القصوى من النجاح أما الباقون منهم فانهم بعد أن حاولوا وفشلوا نراهم يكتفون بأن يتقربوا لدى من هم دون السلاطين في وفرة الجوائز كالامراء والوزراء ، أو الاغنياء والتجار ، وربما وصل الحال ببعضهم الى الدرجة السفلى بحيث صار الشاعر منهم ينتظر مناسبات الافراح والاحزان لدى أبناء الطبقة الوسطى ، كمناسبة الفاتحة على ميت ، أو العودة من الحج ، أو ختان الولد أو زفافه ، ونراه عند ذاك يلقي القصائد « الرنانة » حسب مقتضى الحال متوقعاً أن ينال بها شيئاً من المال قليلا أو كثيراً • وقد يعمد أحدهم الى نظم القصائد للمناسبات المختلفة قبل حدوثها ثم يحشوها بالاسم الملائم عندما يأتي

أوانها • ان هؤلاء لا يختلفون عن شعراء السلاطين الا من حيث الدرجة اذ هم جميعاً مداحون يتكسبون بشعرهم كما يتكسب الشحاذ عن طريق الدعاء للناس بطول الاعمار •

الشعر والموضوعية :

من المباديء التي سار عليها الشعر العربي منذ بداية أمره هو أنه لا يبالي بالصدق في تصوير الامور ، ومن هنا جاء الوصف الشائع عنه : « أكذبه أعذبه » • وقد وصف القرآن الشعراء بأنهم « في كل واد يهيمون » و « أنهم يقولون ما لا يفعلون » •

والواقع أن هذا ليس بالامر المستغرب بالنظر الى وظيفة الشعر في الحياة الاجتماعية التي نشأ فيها • فالشاعر كان في حياة الجاهلية ينافح عن قبيلته تجاه خصومها ـ كما رأينا ـ ومعنى هذا أنه لا يبالي بالحقائق بمقدار ما يبالي بنصرة القبيلة ، فقبيلته هي المحقة دائما ، وهي الافضل والاقوى والاعلى نسباً وحسباً ، ولا يمكن أن تصل الى مستواها الرفيع أية قبيلة اخرى على وجه الارض • ان الشاعر بعبارة اخرى يجب عليه أن يسير في شعره على المبدأ البدوي القائل : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » •

وحين انتقل الشاعر العربي الى طور الحضارة وصار مداحاً للسلاطين ـ أو الذين هم دونهم من الامراء والاغنياء ـ وجد نفسه مضطرا أن يمدح ويهجو حسبما يقتضيه المقام ، أو حسبما تكون عليه الجائزة من كثرة أو قلة ، فهو لا يبالي أن يصف السلطان بأنه أعدل خلق الله حين تكون جائزته كبيرة ، وأنه أظلمهم جميعاً حين تكون جائزته على عكس ما كان متوقعا منها • وقد رأينا أمير الشعراء قديما ـ أي المتنبي ـ وأمير الشعراء حديثا ـ أي أحمد شوقي ـ يفعلان مثل هذا دون حياء •

يجب أن لا ننسى أن هذه اللامبالاة من حيث الصدق في تصوير الامور عند الشعراء تبدأ لديهم منذ أول تمرينهم على نظم الشعر ، أي أنهم يتعودون عليها ويمارسونها منذ بداية أمرهم ، حتى اذا كبروا صارت فيهم عادة مألوفة لا يجدون فيهاحرجا أو يخجلون منها •

يقول الدكتور عبدالرزاق محي الدين أثناء مجادلة جرت بيني وبينه منذ سنوات[1] : ان الشاعر العربي حين يتمرن على قول الشعر في أول أمره يأخذ بالنظم في الموضوعات التقليدية التي نظم فيها الشعراء المجيدون قبله فيتغزل من غير غرام ، ويتحمس من غير شجاعة ، ويتكلف الشباب وهو طاعن في السن ، ويبكي على الطلول وهو مقيم في المدينة ، ويصف الخمرة دون أن يذوقها ، ويصطنع المجون وهو من أشد الناس تزمتاً ووقاراً •••

ان هذا كله يفعله الشاعر المبتديء من أجل التمرين ، ولا يخفى ما للتمرين في عهد الصبا من أثر في تكوين العقلية عند الكبر • ولهذا كان الشعراء المشهورون اذا مدحوا أحدا أو هجوه لا يهتمون بأن يكون قولهم منطبقا على الواقع أم لا • ومما يجدر ذكره أن الناس حين يستمعون الى قصيدة من شاعر لا يهتمون هم من جانبهم بأن يكون الشاعر قد قال صدقاً أو كذبا ، كل اهتمامهم ينصب على جودة القصيدة من حيث روعة ألفاظها وانسجام قوافيها ، أي انهم يطربون للشعر من ناحيته الفنية المجردة ولا يكترثون لما فيه من حق أو باطل •

---

(١) يجد القاريء تفاصيل هذه المجادلة في كتاب « اسطورة الادب الرفيع » للمؤلف ـ بغداد ١٩٥٧ •

نهضة القرن الماضي :

شهد العراق في القرن التاسع عشر نهضة شعرية ضخمة كثر فيها الشعراء المجيدون في بغداد والنجف والحلة وكربلا والموصل والبصرة • ومن يدرس أسباب تلك النهضة يجدها لا تختلف من حيث محتواها الاجتماعي عن أسباب النهضة في الزمان القديم الذي يُدعى بـ « العصر الذهبي » •

يمكن القول إن داود باشا كانت له يد في ترويج الشعر ، كما كانت للسيد مهدي بحر العلوم الذي تولى الزعامة الدينية في النجف يد أخرى • وقد ظهرت في بعض المدن العراقية أسر ذات جاه وثراء فأخذت تشجع الشعر وتمنح الجوائز المغرية فيه كآل الجليلي بالموصل ، وآل كبة ببغداد ، وآل القزويني بالحلة ، وآل الرشتي بكربلا ، وآل باش أعيان بالبصرة ، وآل السعدون في المنتفق ، ورؤساء الخزاعل في الفرات الأوسط • وصار الشعراء يقصدونهم في مناسبات الأفراح والأحزان ويلقون في دواوينهم القصائد « العصماء » • ثم ظهر أخيراً الشيخ خزعل في المحمرة فكان قصره في « الفيلية » لا يختلف عن قصور السلاطين القدامى إذ كان يقصده الشعراء والخطباء ، كما يقصده المطربون والمطربات • والواقع أن بعض الفضلاء الذين نحترم ذكراهم كانوا في طور من أطوار حياتهم مداحين عند الشيخ خزعل ينظمون في أمجاده القصائد ويؤلفون له الكتب•

إن هذه النهضة الشعرية جعلت كل متعلم يطمح أن يكون شاعراً مجيداً لكي ينال الحظوة لدى بعض الأعيان أو الأمراء • وقد بلغ الولع بالشعر لدى المتعلمين في بعض المدن درجة يندر أن يكون لها نضير في التاريخ ، ولا تزال بقية منها موجودة حتى يومنا هذا •

أنقل للقاريء نبذة من مقالة لأحد شعراء النجف المخضرمين ، نشرها في جريدة الجمهورية في ١٩٦٨/٦/٤ ، يصف بها شدة الولع

بالشعر بين الشبان من أبناء جيله . إنه قال : « فتحنا عيوننا قبل أربعين سنة والندوات الأدبية في بغداد والحلة والنجف وكربلاء ، وفي أهم المراكز العراقية المعروفة ، تحفل بالشعراء وقصائدهم ، وبالادباء وأدبهم ، في كل اتجاه لا سيما المواضيع السياسية الثورية التي تطالب بالاستقلال وتحث على الفضائل الاجتماعية والتجديد والتحرر الفكري . وكنا نخرج من حفل أدبي كي نتسابق الى ندوة شعرية أخرى ، نتبارى بالتقفية والمطاردات الشعرية ـ كما كان يُعبّر عنها ـ ونتراهن فيما بيننا ، وكم أُتخمنا بعد أكلات دسمة كان يعدها الفريق الخاسر المسكين منا ، أو قضينا وقتاً من الأيام في سفرة جميلة الى الضواحي القريبة ... على حساب أحدنا في جو مرح عامر نعود منه بثروة شعرية من وصف السفرة وما تخللها من مبادرات وجدانية تكون زادنا ومتاعنا في مجالسنا بعد العودة الى حين طويل حين يجدّ حادث ينسينا ما قبله ، وهكذا . تصور يا أخي القارىء ما كان يبعثه هذا الجو الادبي العامر بالمسابقات والمراهنات في نفس الواحد من هؤلاء من إثارة للغيرة واستنهاض للهمم والحميات حيث يحشد كل طاقاته وامكاناته ليلحق بأخيه وزميله وقريبه ... » .

بين الشكل والمحتوى :

لا ننكر أن شعراءنا اليوم قد تغيروا عما كانوا عليه بالأمس ، فقد تحول الكثيرون منهم من مدح السلاطين الى مدح الشعوب ، ولكننا يجب أن لا ننسى أن تغيرهم هذا انما كان من ناحية الشكل في الغالب ، أما من ناحية المحتوى فلم يتغيروا الاّ قليلاً . إنهم ظلوا يسيرون في شعرهم على نفس الطريقة القديمة من حيث الاندفاع في الفخر والحماس وقلة المبالاة بحقائق الأمور . فهم بدلاً من أن يجعلوا السلطان ظل الله في الارض وأعدل الناس طراً ، اتجهوا نحو الشعب فجعلوه « نبيلاً » كاملاً في جميع صفاته لا يتطرق اليه النقص أبداً .

يبدو أن شعراءنا حين تركوا مدح السلاطين واتجهوا نحو مدح الشعب صاروا كأنهم عادوا الى حياة البداوة الأولي حين كان الشاعر يمدح قبيلته ، ويذم خصومها ، في الحق والباطل • فهم لا يختلفون عن شعراء الجاهلية الا من حيث أنهم وسعوا نطاق القبيلة فجعلوه « الشعب » أو « الوطن » أو « الأمة » • إنهم بعبارة أخرى غيروا شكل العصبية ، أما مضمونها فلم يغيروه حيث بقوا ينظرون الى شعبهم أو وطنهم أو أمتهم كما كان الشاعر البدوي ينظر الى قبيلته •

إن هذا النمط من التفكير الحماسي ـ وهو الذي يصح أن نسميه بالتفكير الشعري ـ لم يقتصر أثره على الشعراء فقط بل شمل أيضاً الكثير من المفكرين وحملة الاقلام والخطباء ، فهم جميعاً يجرون على طريقة واحدة هي طريقة عمرو بن كلثوم : « ماء البحر نملأه سفيناً ! » •

قرأت في كتاب عراقي صدر منذ عهد قريب العبارة التالية أنقلها بنصها : « قلنا إن من خصائص الفرد العراقي حب العمل والشهامة والرجولة والتآخي وهي ثلاث خصائص اذا وُجدت في شعب ومجتمع استطاع أن يبلغ أقصى ما يهدف اليه وأن يحظى بما لا يستطيع أن يناله أحد من المجتمعات أو الشعوب إذ ليس ثمة من خير عميم ولا فضل وفير الا كان نتاجاً لهذه الخصائص ••• » • ان هذا كلام قد نجد له أمثلة عديدة في شتى صحفنا ومجلاتنا ومؤلفاتنا ، وكثيرا ما يكتب الكاتب منا ويبدو كأنه يلقي قصيدة رنانة أو يتلو نشيداً حماسياً •

الحرب الحديثة :

من خصائص التفكير الشعري أن أصحابه اذا انتصروا في حرب نسبوا سبب انتصارهم الى أنفسهم وما أبدوا في الحرب من بسالة وتضحية، أما اذا انكسروا عزوا هزيمتهم الى سبب خارج عنهم كالاستعمار أو الخونة

الذين يتعاونون مع الاستعمار • ولا يخفى أن هذا النوع من التفكير يجعل أصحابه بعيدين عن تفهم الواقع كما هو ، والاستفادة من دروسه •

نجد نموذجاً واضحاً من هـــذا التفكير لـدى البعض من كتابنا ومؤرخينا بالنسبة لثورة العشرين ، وهي الثورة التي استطاعت فيهـــا عشائر الفرات الأوسط أن تنزل ضربة ساحقة بقوات الاحتلال البريطاني في عام ١٩٢٠ ، فقد عزوا هذا النصـــر الى وطنية العشـــائر واستماتتها في القتال ، ولكنهم حين حلت الهزيمة بالعشائر أخيراً عزوا سببها الى الخونة الذين تآمروا على الثورة وضربوها من الخلف •

لست هنا بصدد البحث في ثورة العشرين ، فهذا موضوع سأحاول دراسته في جزء قادم من هذا الكتاب ، ولا شك عندي أنها كـانت ثورة مجيدة تستحق أن نفخر بها ولا يجوز أن نستهين بها ولكننا في الوقت نفسه لا يجوز أن نغالي فيها على طريقة الشعراء •

إن العشائر في هذا العصر الذي نعيش فيه لا يمكن أن تنجح فـــي حرب ضد جيش منظم لديه مدافع ومصفحات وطائرات ، وان هي نجحت مرة على سبيل الصدفة فليس في مقدورها أن تنجح في كل مرة • ولعلني لا أعدو الصواب اذا قلت إن النصر الباهر الذي نالته العشائر في ثورة العشرين كان أشبه بالحدث الشاذ منه بالحدث الذي تُبنى عليه قاعـدة عامة • فقد اجتمعت عوامل شتى مكنت العشائر من النصر • وليس من المحتمل أن تجتمع تلك العوامل مرة أخرى لتنتج مثل ذلك النصـــر •

تغيرت طبيعة الحرب في العصر الحديث تغيراً أساسياً ، إذ هـــي أصبحت تعتمد على العلم والتقنية اكثر من اعتمادها على الفخر والحماس • إن رجلا شجاعاً من طراز عنترة العبسي لم تبق له تلك الأهمية التي كانت له في الحروب القديمة ، فلقد حل محله الجندي المدرب الذي يحمل بيده

أحدث الأسلحة النارية ومن ورائه المصانع والعلماء يجهزونه كل يوم بشيء جديد • وكذلك حل محل الرجز أو « الهوسة العشائرية » خطة يعمل على وضعها الخبراء العسكريون عدة سنوات وفق أحدث التطورات في فن السلاح والحرب •

حدث مرة أثناء ثورة العشرين أن استطاع رجل عشائري أن يستولي على مدفع ، ويقتل صاحبه ، بسلاح بدائي هو عبارة عن عصا في رأسها كتلة من القير ـ وهو الذي يسمى في العراق بالمقوار ـ ومن هنا نشأت « الهوسة » المشهورة التي صارت فيما بعد شعار الثورة : « الطوب أحسن لو مقواري ! » ومعناها أن المقوار أقوى من المدفع وأقدر منه على الغلبة • مشكلتنا آنذاك ، ولا تزال حتى الآن ، أننا نريد أن نجعل تفضيل المقوار على المدفع قاعدة عسكرية عامة وأن نعتمد عليها في كل ثورة نقوم بها أو حرب نخوضها • فشعراؤنا وكتابنا لا يزالون ينظمون القصائد ويدبجون المقالات ليبرهنوا عن طريق الألفاظ الرنانة أن المقوار يغلب المدفع دائماً وأننا ما دمنا قد انتصرنا به في الماضي فلابد أن ننتصر به في المستقبل « حتماً » •

وربما صح القول بأن انتصار مصر في عام ١٩٥٦ يشبه من بعض الوجوه انتصار العشائر العراقية في عام ١٩٢٠ ، فكل منهما قد ساعدت عليه ظروف وعوامل ليس من المحتمل اجتماعها كلها مرة أخرى ، ولكننا اغتررنا بأنفسنا وتملكنا الحماس والفخار المغالي فيه ، وملأنا الجو بالأناشيد !

المجتمع العراقي والعربي :

عندما أصدرت كتابي الأخير « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » في عام ١٩٦٥ أشرت في مقدمته الى ما يجرى في مصر والعراق وبعض الأقطار العربية الأخرى من ظهور عدد كبير من المؤلفات في موضوع

« المجتمع العربي » ، ومحاولة ادخال هذا الموضوع في مناهج السنوات الاولى من جميع الكليات والمعاهد الدراسية ، وقد لاحظت أن هذه المؤلفات والدروس تنحو في الغالب منحى الوعظ والتوعية الحماسية ، وتتبع الاسلوب الخطابي بدلاً من الاسلوب الموضوعي . وقلت اذ ذاك ما نصه (كما جاء في ص ١٠ من الكتاب) :

« لست أشك أن هذا المنهج (الوعظي) في دراسة المجتمع العربي مهم ومفيد ، لا سيما اذا أخذنا بنظر الاعتبار كون المؤلفات السائرة على هذا المنهج قد كتبت لتوضع بين أيدي طلاب هم في السنوات الأولى من دراستهم الجامعية ، فلابد لها اذن من أن تنحو نحو الوعظ والتوجيه ، لكي تفتح عيون الطلاب الى ما عليهم من واجبات تجاه وطنهم الاكبر . ولكنني أعتقد أننا لا يجوز لنا أن نقف عند هذه الدراسة التوجيهية ، فنكتفي بها ، ولا نتعداها الى دراسة أخرى أكثر عمقاً منها وأقرب الى منهج علم الاجتماع الحديث . أخشى أننا اذا غلونا في الاندفاع بهذا التيار أن نكون مثل (وعاظ السلاطين) الذين كانوا يملأون عقول الناس بالمثل الطوبائية ، بينما هم يغضون النظر عن الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه الناس ، والذي يمنعهم من إدراك تلك المثل العالية » .

من المؤسف ان تلك الدعوة الى الدراسة الموضوعية لم تلق في حينها قبولاً لدى الكثيرين ، وظل هؤلاء ، كما كانوا ، يعتقدون أن التوعية الخطابية أولى من الدراسة الموضوعية في هذه المرحلة الدقيقة التي نحارب فيها الاستعمار وربيبته الصهيونية . وقد صارحني بعضهم ذات يوم قائلاً بأن دراسة أي جزء من الوطن العربي كالمجتمع العراقي أو السوري أو المصري — بدلاً من دراسة المجتمع العربي كله في موضوع واحد — هي بمثابة دعوة الى الاقليمية المقيتة وهي تضر العرب في هذه المرحلة أكثر مما تنفعهم .

يبدو على أي حال أن نكسة حزيران عام ١٩٦٧ لفتت أنظار بعض

مفكرينا الى خطأ هذا النوع من التفكير . ولعل من المناسب أن أنقل هنا ما ذكره محمد حسنين هيكل الصحافي المصري المعروف ـ في جريدة الاهرام في ١٣/١/١٩٦٨ ـ بصدد تعداد الأخطاء التي تورطت بها القوى الثورية في البلاد العربية . إنه قال ما نصه :

« ... إن القوى الثورية لم تضع أمام عملها خريطة اجتماعية للعالم العربي الذي تنتمي اليه وتتحرك وسط تضاريسه . وكان لابد من تحديد هنا وإجابة على أسئلة كثيرة : الى أي مدى يؤثر العامل القومي الذي ينبع من حقيقة أن العرب جميعاً أمة عربية واحدة ؟ والى أي مدى يؤثر العامل الوطني الذي ينبع هو الآخر من حقيقة مضادة وهي أن شعوب هذا الأمة العربية الواحدة تنقسم الى أوطان مستقلة لكل منها حدودها ، ما هي أوجه الشبه وما هي أوجه الخلاف بين الشعوب العربية التي تنتمي الى أمة واحدة ؟ وهل مجتمع النهر في مصر وهو الذي عرف نظام الدولة قبل سبعة آلاف سنة يشبه نظام الصحراء حيث ما زال نظام القبيلة سائداً ومتحكما ؟ ما هو الوزن الحقيقي للاوضاع العنصرية والطائفية التي تؤثر على موازين القوى داخل العديد من الأوطان العربية ، داخل لبنان مثلاً ، وداخل العراق ، وداخل سوريا ، وداخل الجزائر ؟ وغيرها وغيرها . في غيبة مثل هذه الخريطة العلمية للتضاريس الانسانية للعالم العربي فان القوى الثورية فيه اعتمدت على العاطفة وحدها ، والعاطفة بالطبيعة ـ وعندما تكون وحدها ـ تكون قصيرة النفس غير قادرة على الشوط الطويل العنيف » .

أود في الختام أن أعيد نفس الكلمة التي ذكرتها في مقدمة هذا الكتاب ، وهي أننا ـ في هذه المرحلة المتأزمة من تاريخنا ـ في أشد الحاجة الى التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في أنفسنا ، فليس من الخير أن يسيطر الحماس على تفكيرنا دوماً ، كما أنه ليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحماس !

فهرس الكتاب

ـ اعتذار ـ

وقعت في الكتاب أخطاء مطبعية غير قليلة لم نستطع تلافيها ،ونترك أمر تصحيحها لفطنة القاريء اللبيب •

كتب المؤلف المطبوعة

(١)	شخصية الفرد العراقي	١٩٥١
(٢)	خوارق اللاشعور	١٩٥٢
(٣)	وعاظ السلاطين	١٩٥٤
(٤)	مهزلة العقل البشري	١٩٥٥
(٥)	اسطورة الأدب الرفيع	١٩٥٧
(٦)	الاحلام بين العلم والعقيدة	١٩٥٩
(٧)	منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته	١٩٦٢
(٨)	دراسة في طبيعة المجتمع العراقي	١٩٦٥
(٩)	لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (الجزء الاول)	١٩٦٩

٣/١٢٠٠٠/١٩٦٩

SOCIAL ASPECTS
Of
IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. **ALI WARDI**

EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD